الطرق القديمة المستخدمة في استثمار الموارد المائية

في خبرة جبل سيس وأوابدها التاريخية

الدكتور ابراهيم أحمد سعيد

أستاذ مساعد بقسم الجغرافيا

كلية الآداب-جامعة دمشق

الطرق القديمة المستخدمة في استثمار الموارد المائية في خبرة جبل سيس وأوابدها التاريخية

الهدف من البحث:

يهدف هذا البحث إلى إظهار دور الموارد المائية في إقامة مراكز عمرانية حضارية في المناطق الجافة وشبه الجافة، وكذلك التعرف على الطرق التي استخدمت في استثمار تلك الموارد، وتأمين مصدر مائي دائم طيلة العام، وبالتالي الاستفادة من تلك الطرق في تنمية الموارد المائية المتاحة في منطقة الدراسة وفي المناطق المشابهة لها في وطننا العربي.

الطرق المستخدمة في البحث:

يعد هذا البحث دراسة ميدانية قام بها الباحث إلى منطقة الدراسة أثناء العام الدراسي ١٩٩٦-١٩٩٧، من خلال ثلاث جولات متباعدة. (اعتمد فيها الباحث على الملاحظة المباشرة والمعاينة، وقام بقياس الآبار المنتجة). وقد تم الاعتماد على الصور الفضائية والصور الجوية لتحديد خطوط تقسيم المياه وتحديد المساحات التي تصرف أمطارها في مياه خبرة جبل سيس.

الموقع الجغرافي لمنطقة البحث:

تقع منطقة البحث ضمن إقليم الحماد السوري، على طرف الصبة البركانية إلى الشرق من منطقة الهيجانة (انظر المصور المرافق رقم (١) والصورة الفضائية) وبمسافة تبعد نحو ١٠٥ كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق، ونحو ١٠٠كم جنوب طريق دمشق-بغداد (موقع سبع بيار).

مقدمة في الخصائص الجغرافية لمنطقة البحث:

لقد تشكّل جبل سيس نتيجة للنشاط البركاني، حيث ارتفعت كتلة مشكلة بركاناً نموذجية الشكل ذا فوهة واسعة يزيد قطرها عن ٥٠٠متر، وعمقها يبلغ نحو ٤٠متراً.

ولكن البركان تعرض للنشاط في مرات متتالية، والدليل على ذلك وجود المقذوفات البركانية ذات الأعمار والقساوة واللون المختلفة. والقساوة واللون، ويبدو أن البركان تعرض في آخر نوبة نشاط له لانفجار ضخم، أودى بالمسلة (الكالديرا) التي تحتل بالعادة فتحة البركان، وتبقى كشاهد على النشاط الأخير. ونتيجة الانفجار الضخم، فقد تناثرت مكونات المسلة على السفوح الداخلية للبركان، وبالوقت نفسه على السفوح الخارجية له والمشرفة على الخبرة التي تقع جنوبه وشرقه. وقد قسنا أبعاد بعض الصخور البازلتية القاسية المتوضعة في أعلى سنام سفوح البركان، فكانت تتراوح بين ١-٣م، وبسماكة تصل أحياناً لـ ٧٠سم[1]، أما فتحة البركان ذاتها. فقد انشدقت (أي تهشمت) في الجهة الشمالية الغربية، بحيث اندلقت المقذوفات البركانية منها والتي تجمعت في فوهة البركان النشيط، وانتشرت على مساحة كبيرة في الجهتين الشمالية والغربية، مشكلة لحفاً بركانية تتوضع فوقها أحجار بازلتية مكورة الشكل ومتباينة الحجم الأحجام، أغلبها بحجم كرة القدم، تعلوها حالياً طبقة من الدهان الصحراوي، وتنمو فوقها مساحات لابأس بها من الأشنيات. وقد ساهمت العوامل الجوية كالأمطار والرياح المحملة بالرمال في تشذيبها وزيادة تكويرها. لقد بقيت في أسفل فوهة البركان ثمانية نتوءات متباعدة كمخلفات لبقايا المسلة البركانية التي انفجرت وتطايرت، وتحصر هذه النتوءات منخفضات بينية مغلقة تتجمع فيها مياه الأمطار الهاطلة على السفوح الداخلية للبركان وفي داخله، وكذلك تتجمع فيها الرمال المنقولة بفعل الرياح من مناطق بعيدة فتعطي للمياه المتجمعة لوناً يماثل لون المياه في الخبرات والسبخات الموجودة في المناطق المجاورة للبركان، وخاصة في المناطق غير البركانية.

ومن معاينة المكان من أعلى سنام السفوح البركانية، وجدنا أن المنطقتين الجنوبية

والشرقية من البركان قد تعرضتا للخفس والانكسار، حيث تشكل صدع هلالي الشكل يحيط بالبركان من الجهتين المذكورتين. وقد اسهم نشاط الحت المائي بتعميق وبروز ذلك الصدع، وأسهم أيضاً النشاط الإنساني في تطور تلك الظاهرة، حيث تم اقتلاع الحجارة اللازمة لبناء الجزء الجنوبي (القصر الكبير والأبنية المجاورة له).

من المركز العمراني في المنطقة/انظر المخطط التوضيحي رقم(٢)/

وبين الصدع ونهاية سفوح البركان الخارجية من الجهتين الجنوبية والشرقية تشكلت خبرة جبل سيس، التي نشأت بفضلها الحضارة العمرانية التي تدل بقاياها المتناثرة على عظمة وأهمية تلك الحضارة. فقد إستطاعت مياه الخبرة أن تمد المركز العمراني واحتياجات النشاطات الاقتصادية والبشرية بالمياه اللازمة.

تعد منطقة الحماد (التي توجد فيها منطقة البحث) من أكثر المناطق جفافاً في سورية، حيث يبلغ متوسط معدل الأمطار السنوية ١١٥مم، وتتميز الهطولات المطرية في المنطقة بخاصية عدم الانتظام سواء على الصعيد الشهري، خلال موسم الهطول المطري، أم على الصعيد السنوي، فقد تنخفض لأقل من ١٠٠مم في بعض السنوات، وقد تزيد عن ٢٥٠مم في سنوات أخرى. وفي هذا العام (شتاء ٩٦-١٩٩٧م) تجاوزت الهطولات المعدل السنوي بكثير.

أما عن درجات الحرارة فهي تتميز بالارتفاع صيفاً، حيث يزيد المعدل عن ٣٠مْ، وقد يصل لأكثر من ٤٥مْ، وفي الشتاء يبلغ المعدل نحو ١٠مْ، ويمكن أن تنخفض لأقل من -٥مْ، وتمتاز المنطقة بارتفاع درجة قاريتها[٢] التي تصل (٤٠مْ)، وتزداد هذه القارية باتجاه الشمال الشرقي. تؤمن كميات الهطولات المطرية المذكورة أساساً كافياً لنمو غطاء نباتي معتدل إلى متدهور[٣] في المنطقة، وتساعد بنية التربة قليلة السماكة المتراكمة بين الحجارة المتناثرة على الاحتفاظ بالمياه لمدة طويلة، على الرغم من قلة سماكتها، وهذا يعود لسببين اثنين:

١- بنيتها البركانية ذات القوام السهلي والطيني.

٢- عدم نفوذيتها.

وتسود في المنطقة نباتات رعوية وطبية كالشيح والروثة والقضقاض والقيصوم والرغلي والشنان والتفل والشعير البري والخردل....

خبرة جبل سيس:

تشغل الخبرة المسماة باسم الجبل نفسه الجهة الشرقية من الجبل، وهي تمثل الجزء المنخفض من المنطقة الواقعة بين حدود الانكسار الخارجي وبداية السفوح الشرقية لجسم البركان. وقد كانت أعمق مما هي عليه بكثير ولكنها امتلأت بالرسوبيات والطمي والغبار والرمال المنقولة سواء بواسطة المسيلات المائية أم بواسطة الرياح القادمة من مناطق بعيدة.

ومن إلقاء نظرة على المكان، تبيّن لنا أن تغذية الخبرة بالمياه تتم من كل المناطق المحيطة بها، ولكن التغذية الأساسية تأتي من خلال مسيلين مائيين (انظر الشكل التوضيحي رقم٣):

- **الأول:**

ويأتي من الغرب ويقوم هذا المسيل بتصريف مجمل المياه المتساقطة في الجهتين الجنوبية الغربية والجنوبية، والتي تغطي سفوح الجبل البركاني والمناطق المشرفة على الانكسار من جهة اليمين.

وقد لاحظنا أن المياه استطاعت أن تحت الصخور وتكون مجرى مائياً عميقاً، وتمكنت في الوقت نفسه من تشكيل جرف صخري قائم الانحدار ومتراجع إلى الخلف في أحد الأماكن نتيجة لاختلاف بنية الصخور، فهي قاسية في الأعلى وطرية في الأسفل

(انظر الشكل التوضيحي رقم٤). فالطبقة القاسية المكونة من البازلت القاسي يصعب على المياه حتها (وهي بالأساس مكونة من محتويات بركانية قديمة وصخور رسوبية مختلطة لونها مائل للصفرة والبرتقالي).

يتجه المسيل المائي الغربي نحو الشرق في بطن الوادي الذي تكوّن بفضل الانكسار أو الصدع الأولي، ولكنه تعمّق نتيجة لنشاط الحت المائي المستمر عاماً بعد عام، ويبلغ طوله نحو ١,٥ كيلو متر، وهو قليل العرض في مجراه الأعلى، حيث لايتجاوز عرضه عشرة أمتار، ولكنه يتسع باتجاه الشرق ليزيد عن ٥٠٠ متر في مجراه الأدنى.

هنا يخترق المسيل بقايا الآثار العمرانية التي تتوضع على جانبيه على شكل قسمين، القسم الجنوبي الواقع بين المسيل والانكسار، والقسم الشمالي ويقع بين سفح الجبل البركاني والمسيل المائي.

- **المسيل الثاني:**

وهو المسيل الشمالي الشرقي، الذي يبدأ بالتشكل من منطقة متقدمة في الجهة الشمالية الشرقية، حيث يقوم بتصريف المياه المتساقطة على السفوح الشرقية والشمالية من جسم البركان، وكذلك تصريف المياه المتساقطة على السفوح الغربية للمنطقة المشرفة على خط الانكسار في الجهة الشمالية الشرقية، وهذا المسيل ليس بطول المسيل الأول، هنا لا توجد آثار لبقايا عمرانية، وعندما ترتفع المياه في الخبرة تغمر معظم مجراه الأدنى والأوسط.

ينتهي المسيلان الغربي والشمالي الشرقي إلى وسط الخبرة التي تأخذ شكلاً مستطيلاً من الشمال إلى الجنوب، على شاكلة حبة الفول، فهي مبعوجة في وسطها الشرقي. وتبلغ أبعادها بالمتوسط نحو ٢×١,٥كم=٣كم[٢].

أما متوسط عمق المياه فيها في نهاية فصل الأمطار فيقدر بنحو ٢متر.

وتبلغ طاقة التخزين في الخبرة ٣×٢=٦ مليون م(٣).

وتبلغ مساحة حوضة التغذية (أي المنطقة التي تصرف مياهها في الخبرة) نحو ٤٨ كيلو متر مربع، بمتوسط هطول سنوي للأمطار يقدر بـ ١٢٥مم.

الطرق المستخدمة في استثمار مياه الخبرة:

لقد ذكرنا سابقاً أن صخور منطقة جبل سيس وخبرته تتكون من توضعات بركانية، وهذا ما جعلها تتميز بعدم نفاذيتها، كذلك فإن تجمع كميات كبيرة من الطمي والطين والرمال المنقولة المتجمعة في قاع الخبرة قد جعلها كتيمة ولا تسمح بتسرب المياه ضمن الطبقات الأرضية، والفاقد الوحيد من مياه الخبرة يكون من خلال التبخر الذي تتعرض له الخبرة، وعليه فإن المياه نادراً ماتجف وإذا جفت فإن جفافها يحصل بالعادة في نهاية فصل الصيف والنصف الأول من فصل الخريف، ويتحدد ذلك من خلال أحد أو مختلف العوامل التالية:

١- كمية الهطولات المطرية.

٢- كمية التبخر.

٣- نسبة استثمار المياه.

لقد استثمرت مياه الخبرة بطريقتين خلال الفترة الزمنية السابقة:

١- طريقة الاستثمار المباشرة، وهي الطريقة الأكثر شيوعاً والتي لا تتطلب من الإنسان أكثر من الوصول إلى المياه.

٢- الطريقة الثانية باستثمار مياه الخبرة وتتلخص بحفر الآبار الموزعة في مناطق متباعدة ضمن منطقة الآثار. وقد عاينّا نوعين من الآبار:

- **النوع الأول:** وهو عبارة عن آبار محفورة في المنطقة البعيدة في بطن المسيل المائي، وتقع داخل منطقة الآثار. وهذه الآبار مبنية بالحجر البازلتي المسوى بشكل جيد ومتناسق، أكسب البئر مظهراً دائرياً جيداً. وقد تغطى البئر بحجارة كبيرة مثقوبة في وسطها بقطر يصل نحو متر واحد، في حين يصل قطر البئر في وسطها إلى ١,٥م، وهذا النوع من الآبار يعتمد في تغذيته على عملية الرشح الداخلي التي تجري بشكل دائم من مياه الخبرة خلال الطبقات الرسوبية (انظر الشكل التوضيحي رقم٥).
- **النوع الثاني:** وهو عبارة عن أبار محفورة في بطن المسيل المائي القادم من جهة الغرب.

وتعتمد الآبار المحفورة هنا على طريقتين في التغذية:

١- طريقة الرشح الداخلي، التي تحدثنا عنها سابقاً.

٢- طرقة التغذية السطحية المباشرة والتي تتم خلال حركة المياه في بطن المسيل.

(انظر الشكل التوضيحي رقم٦).

لقد قمنا بمعاينة النوعين المذكورين من الآبار، فتبين أن المياه في النوع الأول ممتازة وصالحة للشرب، لأنها ترشحت عبر طبقات الأرض فتخلصت من كل المواد الغريبة واكتسبت طعماً معتدلاً، لا قابضاً ولا ملحياً ولا حامضاً، هنا تبقى المياه طيلة أيام السنة حتى وإن جفت مياه الخبرة، فالتغذية الباطنية تبقى مستمرة.

أما في النوع الثاني، فكانت المياه معكرة ولونها مائل للخضرة، ومستوى المياه في البئر مرتفعة، ولم يبق أكثر من متر واحد لتفيض البئر. وقد تم بناء جدار إسمنتي مرتفع فوق سطح الأرض، وفي إحدى الجهتين تم بناء منهل خاص لسقي الحيوانات، بحيث تُسحب المياه من البئر ثم تصب في المنهل، ولكن للأسف فقد تداعت حالة هذه الآبار والمناهل، وهي بحاجة للصيانة والاعتناء الدائم.

الآثار العمرانية المتبقية وتوزعها الجغرافي:

تتنوع الآثار العمرانية في منطقتين متقابلتين:

الأولى: وهي تقع على السفح الجنوبي لبركان سيس، حيث تتلاصق البيوت الصغيرة الأبعاد ذات المداخل الواسعة، وفي داخلها توجد بقايا أوانٍ فخارية كثيرة ملونة، بعضها باللون القرميدي، ومنها باللون الأبيض والكريمي، وبعضها الآخر مزركش بألوان مختلفة يغلب عليها اللونان الأزرق والأخضر (واللون الأحمر على الفخار الأبيض). ولازالت بقايا بعض الأقواس البازلتية، وهي على شكل بوابة عريضة ومنخفضة، وفوق هذه الآثار وإلى الشرق والشمال الشرقي، توجد بقايا طريقين قد استخدمتا لجلب الحجارة البازلتية القاسية والمتناثرة على الجزء العلوي من سفح الجبل البركاني (انظر الشكل التوضيحي رقم٢).

الثانية: وهي تقع في الجهة المقابلة للبركان، على يمين المسيل المائي الغربي بين الصدع والمسيل. لقد تمّت الاستفادة من الصدع كمقلع لتأمين الحجارة البركانية اللازمة لبناء المراكز العمرانية المتجاورة. إن بقايا المنازل هنا مشابهة لبقايا المنازل في الجهة الأولى المذكورة سابقاً، ولكن الفرق أكثر اتساعاً، وتعد بقايا القصر الكبير أهم الآثار المتبقية في منطقة جبل سيس[٤].

إن أول ما يلفت الانتباه من القصر الكبير هي بقايا البوابة الشمالية، وهي على ما يبدو المدخل الوحيد. يبلغ عرضها نحو أربعة أمتار، وارتفاعها يبلغ العرض نفسه، وهي مضلعة من الداخل ولكنها مقوسة من الخارج، والجزء الخارجي مبني من الحجارة المنحوتة الجميلة. أما عرض برج البوابة فيبلغ نحو تسعة أمتار. وإذا دخلنا إلى القصر من البوابة، فإننا نجد بعد عشرين متراً تقريباً بئراً محفورةً في وسط القصر، مبنية بالحجارة البازلتية، وقد وضع على فوهتها حجر بازلتي كبير، يبلغ ارتفاعه نحو

متر واحد عن أرضية القصر. والحجر مثقوب بثقب يبلغ قطره نحو المتر وقد حُفر جزء من الحجر بشكل دائري بطول يبلغ نحو ١٥سم وعمق يبلغ ٥سم، واعتقد أنه حّفر لوضع غطاء معدني أو حجري لتغطية البئر والمحافظة على سلامة ونظافة المياه فيها.

لقد قمنا بقياس الجدار الخارجي للقصر، فوجدنا أن سماكته تتراوح بين ١,٧٥م وحتى٢م.

أما أطواله فكانت متساوية تقريباً، لأن القصر مبني على شكل مربع، فطول ضلعيه من الشرق والغرب يبلغ ٦٧,٥٥م، ومن الشمال يبلغ طول ضلعه ٦٧,٥٥م، أما من الجنوب فطوله نحو ٦٦,٥٥م فقط. وضمن كل جدار توجد أبراج نافرة من الجدار على شكل هلالي (نصف دائري)، لكل برج مدخل طولاني، وإلى جانبه وبجوار الجدار الخارجي من الداخل يوجد دهليز عميق مغطى بالحجارة المنحوتة الكبيرة. يعد المركز العمراني في جبل سيس من أقدم المراكز العمرانية الأموية المقامة خارج المدن، في الصحراء العربية. ويذكر كلاوس بريسش (Klaus Brisch) في تقريره الذي أعده في نهاية أول حملة حفريات جرت في هذه المنطقة وهي الوحيدة) خلال الفترة الممتدة بين نيسان إلى حزيران في عام١٩٦٢[٥]. أن القصر والحمامات والمسجد تعود لعصر الخليفة الأموي الوليد بن الملك[٦]، وقد استند على ذلك من المعطيات الآتية:

١- العثور على نقود تعود للفترة التي حكم فيها الوليد بن عبد الملك.
٢- وجود أسماء كثيرة تخص أبناء الوليد وخاصة محمد بن الوليد.
٣- تطابق تصاميم القصر والحمامات والمسجد مع تصاميم البناء الأموي.
٤- وجود محراب مع كوة في المسجد، حيث لم تُعرف المساجد ذات المحراب والكوة قبل عصر الوليد، وهو الذي أدخلها إلى المساجد (كما يؤكد التقرير).

وبالنتيجة، فإن مسجد وحمامات جبل سيس تُعدّ من أقدم المساجد والحمامات الإسلامية الواقعة خارج المدن. ويبدو أنه قد تم في هذا المركز العمراني لأول مرة في تـــاريخ الحضارة الإسلامية استخدام الجص في تزيين الأبنية[٧].

أما عن وجود تشابه وتطابق وتداخل بين العناصر البنائية مع عناصر الفن البنائية مـع عناصر الفن المعماري الساساني فيري كلاوس بريسش بأن ذلك يعود لسببين اثنين:

١- تأثر الفن المعماري الأموي بالفن المعماري الساساني بشكل عام.

٢- كون إحدى زوجات الخليفة الوليد بن عبد الملك من الساسانيين.

دور الموارد المائية في نشأة حضارة جبل سيس:

ما من شك تعدّ المياه العامل الحاسم والأساس في تشكيل وازدهار حضارة جبل سيس، بغض النظر عن الفترة الزمنية التي تعود إليها. لقد وجدنا في جبـــل ســـيس رســـوماً تصويرية وأشكالاً تبين النشاطات الاقتصادية للسكان في فترات زمنية قديمـــة جـــداً، بعضها يعود لإنسان ما قبل التاريخ، وهذا يؤكد أن الحياة البشرية في المنطقة لم تنقطع على مرّ العصور. بالطبع يعود ذلك لتوافر الأساس المادي لقيـــام حضـــارة متقدمـــة ويمكن إيجاز مكونات ذلك الأساس بالآتي:

١- توافر كميات كافية من المياه تقدر بـــ٦مليون متر مكعب سنوياً.

٢- توافر المراعي الجيدة في معظم الأراضي المحيطة بالمنطقة.

٣- وقوع جبل سيس على مفرق طرق متعددة في وسط الصحراء (طريق قادم من تدمر إلى الزلف فالنمارة ثم عمان، طريق الضمير جبل سيس فالحماد السوري ثم شبه جزيرة العرب الطريق القادم من الجزيرة السورية فجبـــل ســـيس ثـــم الجنوب السوري وفلسطين).

وإذا كانت المراكز العمرانية في منطقة جبل سيس لم تتوسع لتشكل مدينة كبيرة، إلا أنها بموقعها الهام وبتوافر كميات كبيرة من المياه، في منطقة شبه صحراوية تندر في المياه، قد جعلت من المنطقة أحد المراكز الذي يستطيع تقديم خدمات متنوعة للقوافل المتحركة على أطراف الصحراء.

فكمية المياه المتوفرة بـ ٦مليون م٣ كافية لتأمين حاجات عدد من السكان تقدر بـ ١٣٠ ألف نسمة بمتوسط استهلاك يومي للفرد الواحد مقر بـ ١٠٠ليتر من المياه على مدار السنة. طبعاً هذا مقدر من الناحية النظرية فقط، فثلاثة أرباع (٣/١) هذه الكمية يتم تبخرها إلى الغلاف الجوي إلى سقي الحيوانات(٨).

الاستنتاجات:

تعاني منظومة المياه في خبرة جبل سيس وأوابدها التاريخية من مجموعة من المشكلات يمكن حصرها بالآتي:

١- ارتفاع مستوى قاع الخبرة عاماً بعد عام نتيجة لتراكم كميات كبيرة من الطمي والأتربة والحصى والمواد العالقة (عضوية وغير عضوية)، التي تنقلها مياه السيول وخاصة إذا كانت الهطولات فجائية وغزيرة، وهذا ما يجري بالعادة في المناطق الجافة وشبه الجافة، لذلك تجرف المياه الطبقة السطحية من التربة وما يتوضع فوقها وقد تصل نسبة العوالق في مياه السيول لنحو ٢٥% وهذا يعني أن ما يزيد عن ٧٥٠ألف طن من المواد العالقة تجرفها السيول وتوضعها سنوياً في قاع الخبرة، وهناك كميات لا بأس بها من الغبار والرمال تأتي بها الرياح من مناطق بعيدة أو مجاورة فترمي بها في قاع البحيرة.

٢- إن ارتفاع مستوى قاع الخبرة سيؤدي إلى اتساع مساحتها، وبالتالي ستزداد كمية التبخر منها لاتساع السطح المعرض لأشعة الشمس، فتصبح معرضة للتراجع عاماً بعد عام.

٣- لقد لاحظنا أن الآبار المحفورة في بطن المسيل المائي تتعرض بشكل دائم لتوضع الرسوبيات والمجروفات، التي تنقلها مياه المسيل أثناء حركتها باتجاه الخبرة. وقد تخربت أجزاء من الجدران المقامة حول فوهات الآبار، لذلك تتردى نوعية المياه فيها.

٤- وصول مياه الخبرة إلى منطقة الآبار وغمر أجزاء منها وخاصة الحمامات، وذلك لقربها من الخبرة.

٥- تردّي حالة الأوابد التاريخية في المنطقة وعدم وجود أي اهتمام من أيّ نوعٍ كان.

٦- صعوبة الوصول إلى المنطقة لعدم وجود طرق تؤدي إليها أو شواخص تدل عليها.

أما عن الاستنتاجات من خلال دراستنا الميدانية للمنطقة فيمكن تحديدها بالآتي:

١- لقد ساعدت المياه المتوافرة بشكل كاف على إقامة حضارة متميزة (ربما كانت من أقدم العصور التاريخية).

٢- لقد وفرت الصخور البازلتية (البركانية) القوية مادة بناء كافية وقريبة، وفرت الجهد وقللت نفقات تحضيرها وبنائها.

٣- يمكن القول أن الطرق المستخدمة في استثمار الموارد المائية المتاحة كانت ناجحة ومتوافقة إلى درجة كبيرة مع الخصائص الجغرافية للمنطقة مناخياً وبنائياً.

التوصيات:

في نهاية هذه الدراسة، وبعد مراجعة كل المعطيات والمشكلات التي تعاني منها منطقة جبل سيس، فإننا نقترح بعض التوصيات التي تعالج تلكِ المشكلات وتجعل منها منطقة حية، تضج بالحياة مرة ثانية:

١- ضرورة نقل بعض الرسوبيات التي تتوضع في قاع الخبرة سنوياً، وذلك لنضمن عدم ارتفاع مستوى قاعها إلى الأعلى، كي لا تتسع مساحتها ويزداد الحاسر وتتردى نوعية المياه.

٢- العمل على بناء جدار يحمي منطقة الآثار من طغيان مياه الخبرة عليها.

٣- صيانة الآبار بشكل دائم لضمان تحسن إنتاجيتها من جهة وتحسن نوعية مياهها من جهة أخرى.

٤- الاعتناء بالأوابد التاريخية واستكمال عمليات التنقيب والدراسة، وإعطاء أهمية للكتابات الموجودة في أعلى جبل سيس لاختلاف مظاهرها ومدلولاتها وتاريخها.

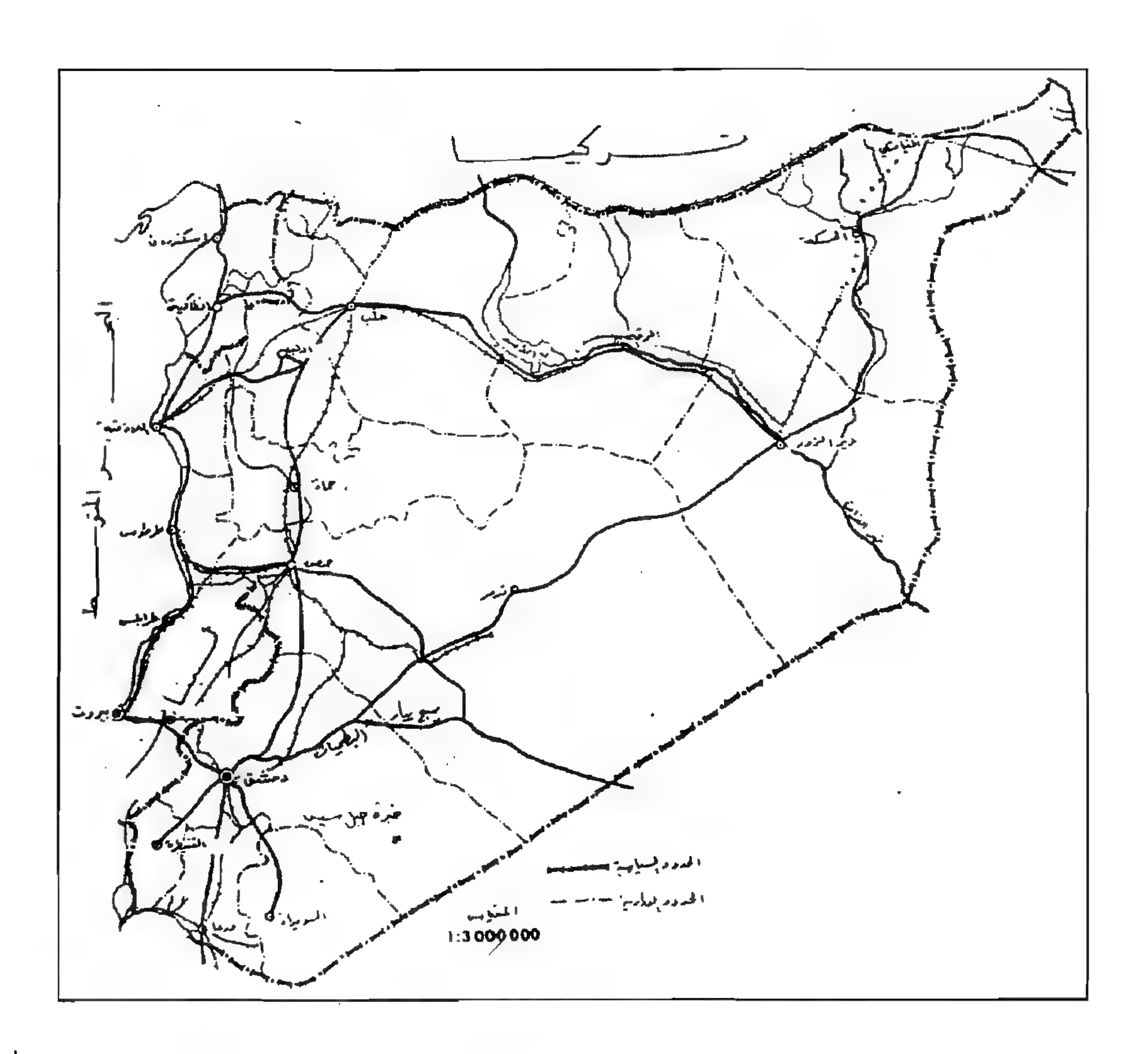
٥- دراسة إمكانات إقامة مخيم سياحي في المنطقة يهتم بالسياحة التاريخية والصحراوية والجبلية بالوقت نفسه وتتوافر المياه اللازمة لذلك.

٦- تحسين الطريق الوعرة الموجودة وتعبيدها، إن توافرت الإمكانات، ووضع الشواخص التي تدل على الطريق الصحيح منها وإليها (لأن المنطقة صحراوية وسهلية تكثر فيها الاتجاهات التي تحير السائر، وقد تؤدي به إلى الضياع).

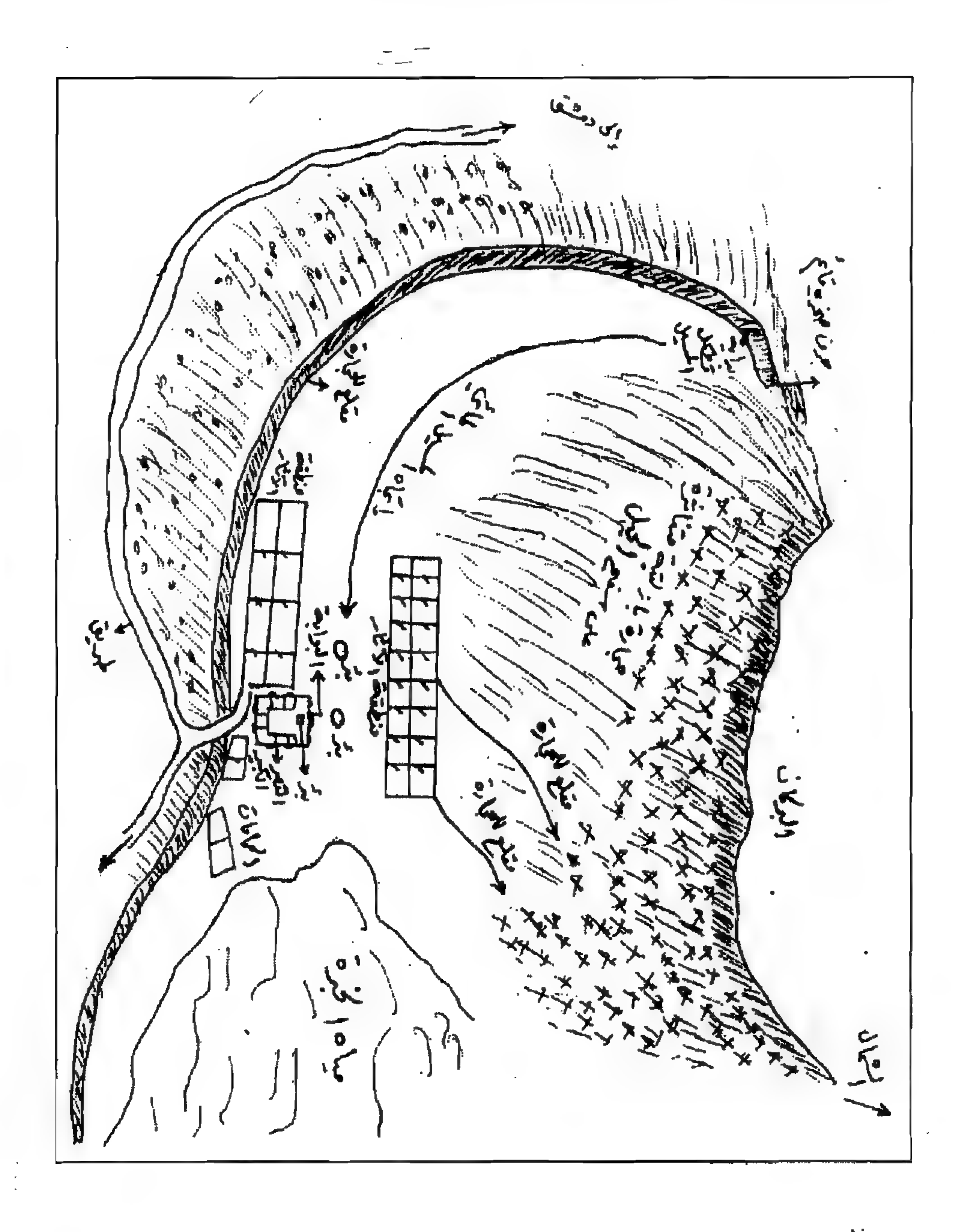
٧- نوعية الرعاة في المنطقة أو العمل على إشراكهم في تنظيم وحماية الموارد المائية المتاحة، ويمكن التعاون معهم كأدلاء سياحيين في السياحة الصحراوية، وإذا تم استثمار المنطقة سياحياً، أو توجيههم لصناعة بعض التحف والمواد المرّوجة سياحياً والتي تهتم بالعادات والتقاليد والفلكلور الشعبي.

الخاتمة:

في النهاية، أرجو أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة، التي حاولت أن تكون عيناً جغرافية صادقة تلاحظ الظاهرة وتسجلها. وقد حاولت تلمس المشكلات التي تعاني منها منطقة الدراسة وتحديدها واقتراح الحلول المناسبة لها، وقد كانت غايتي من كل ذلك خدمة الحقيقة العلمية ولفت النظر إلى منطقة هامة يمكنها أن تقدم فائدة كبيرة للوطن بمجالات مختلفة.



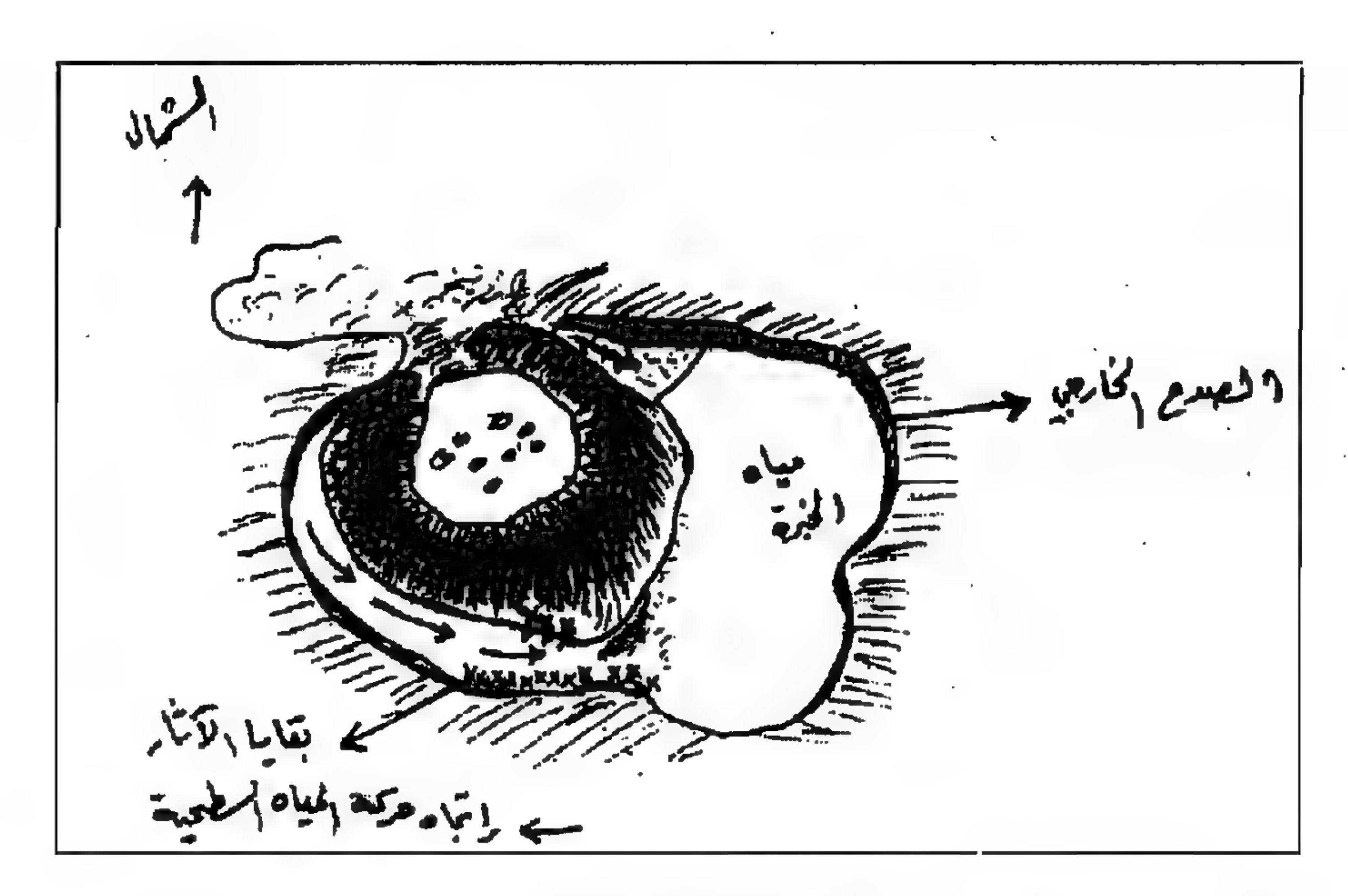
مصور رقم ـ١ـ



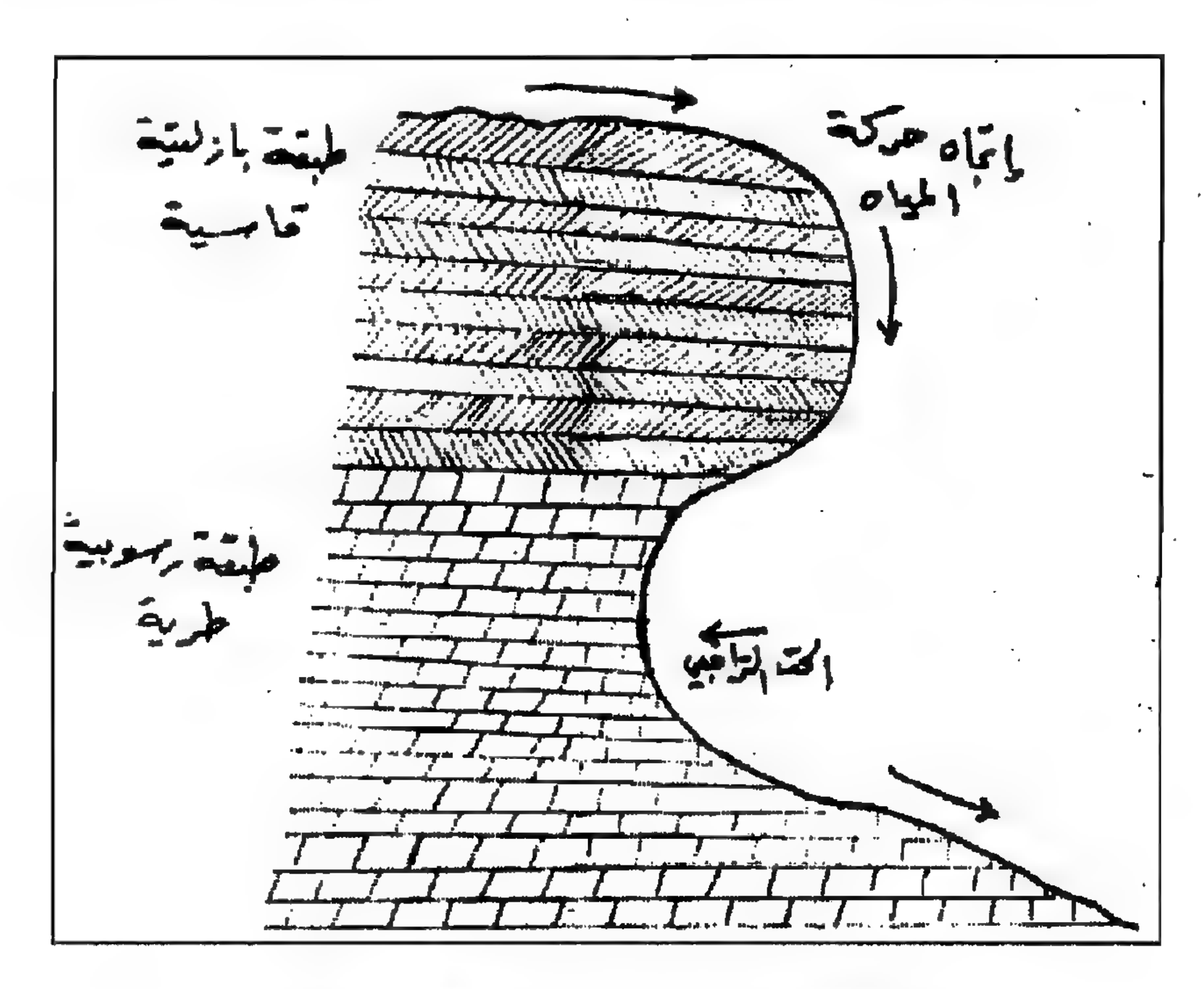
رسم توضيحي رقم ـ٢ـ



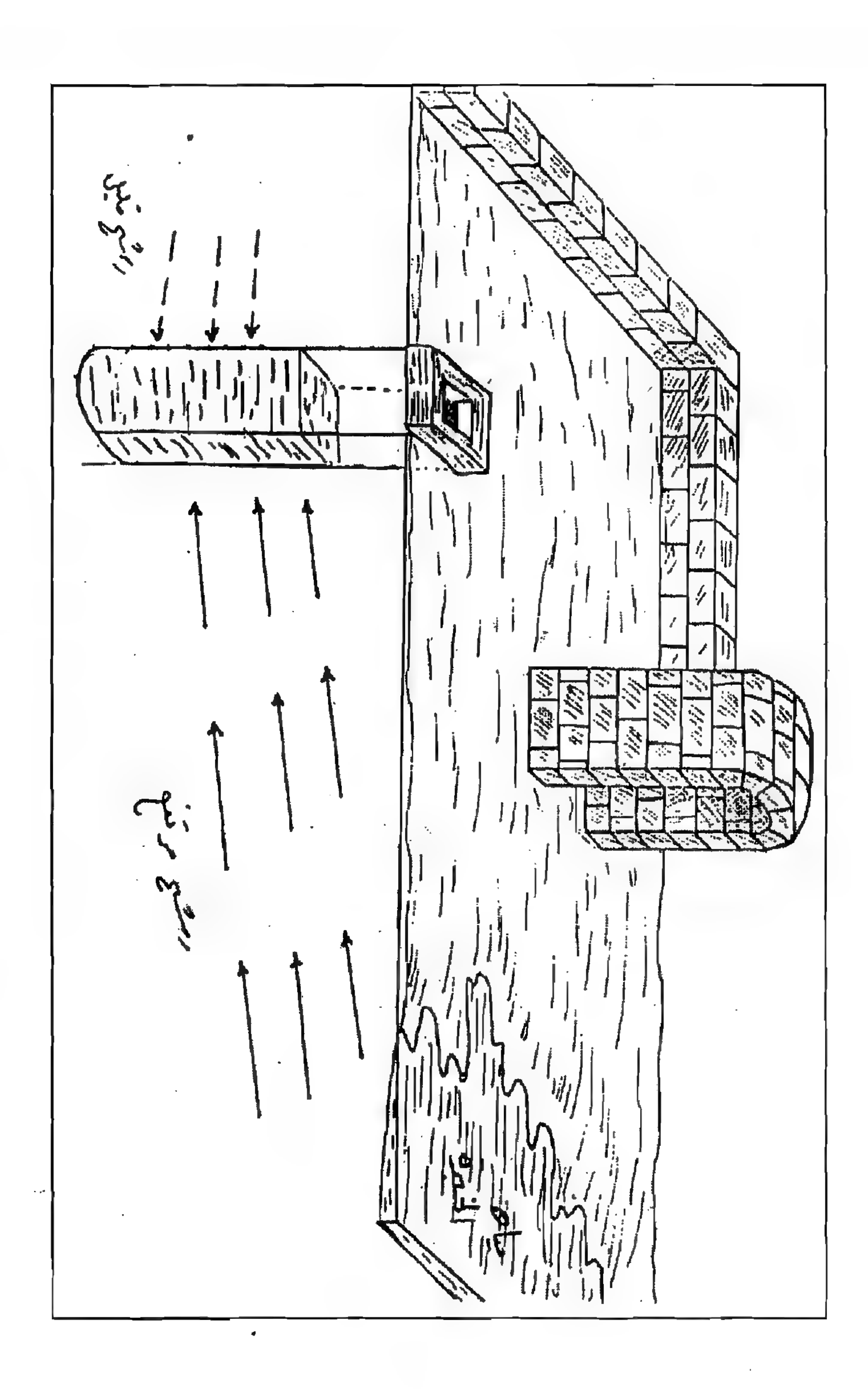
هيجانة



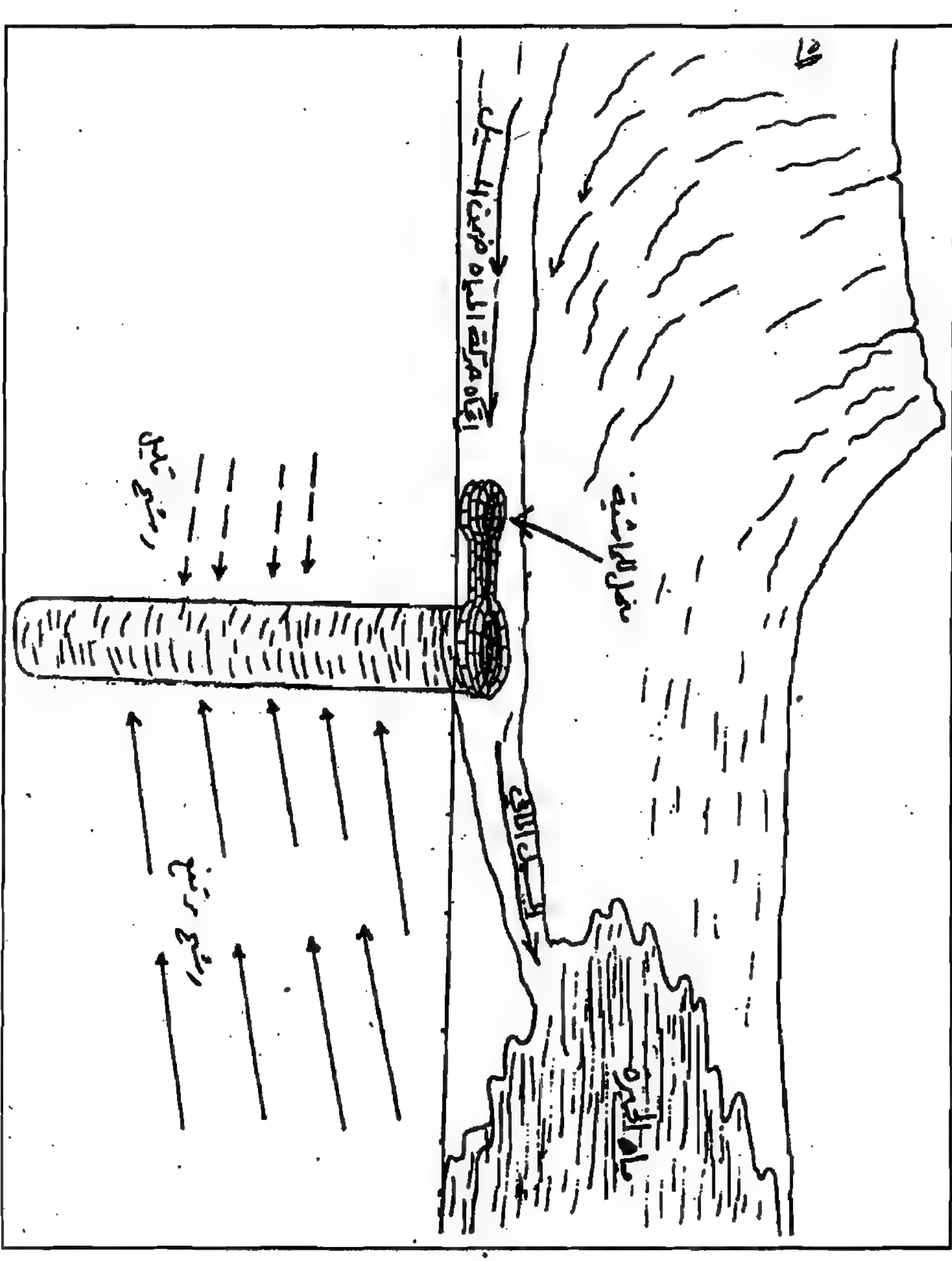
رسم توضيحي يبين منطقة الدراسة رقم (٣) (جبل سيس وخبرته المائية)



رسم توضيحي لتشكل الجرف الصخري رقم (٤)



نموذج الآبار في خبرة جبل سيس (رقم ٥)



نموذج الآبار في حفرة جبل سيس رقم (٦)

الهوامش

١- لقد قام الإنسان قديماً بالكتابة على هذه الألواح الصخرية الكبيرة بلغات مختلفة وقام برسم لوحات معبرة عن نشاطه الاقتصاد، وقد قام الباحث بتصويرها على شريط فيديو.

٢- يقصد بدرجة القارية: الفرق بين أعلى درجة حرارة وأدنى درجة حرارة في المنطقة، سواء كانت على الصعيد اليومي أو السنوي.

٣- لقد تدهور الغطاء النباتي نتيجة للرعي الجائر والمبكر، واقتلاع جذور النباتات المعمرة من قبل الرعاة.

٤- لقد قمنا بتصوير المنطقة بما فيها القصر الكبير على شريط فيديو.

٥- **قصر جبل سيس الأموي الحوليات الأثرية السورية**، المجلد الثالث عشر الصفحات ٢٤٣-٢٦٢، تعريب الأستاذ الدكتور نور الدين حاطوم.

٦- **حكم الوليد بن عبد الملك خلال الفترة الممتدة بين ٨٦-٩٦هـ**، الموافق ٧٠٥-٧١٥م.

٧- انظر **تقرير كلاوس بريسش** المذكور سابقاً.

٨- من الناحية العلمية يمكن للثروة المائية المتوافرة في خبرة جبل سيس أن تكفي نحو ٣٨ألف نسمة لمدة عام كامل، فهي إذن منطقة غنية بالموارد المائية قياساً للمناطق الجافة وشبه الجافة.

الصراع على إشبيلية

بين

الفونسو السادس ويوسف بن تاشفين

(١٠١٣ـ١٠٩١م، ٤٠٤ـ٤٨٤هـ)

الدكتور فارس بوز

جامعة دمشق ـ كلية الآداب ـ قسم التاريخ

الصراع على إشبيلية بين الفونسو السادس ويوسف بن تاشفين

(١٠١٣ـ١٠٩١م، ٤٠٤ـ٤٨٤هـ)

صفحات من تاريخ مدينة إشبيلية، عندما كانت عاصمة لإحدى أكبر وأقوى دولة من دول الطوائف في ظل صاحبها المعتمد بن عباد، الشاعر الرقيق والفارس العربي الشجاع الذي لمع نجمه في المعارك التي خاضها ضد الأسبان وخاصة في معركة الزلاقة الشهيرة-ضد الفونسو السادس وكذلك عند استبساله في الدفاع عن عاصمته، بعد أن اجتاح أسوارها جندُ ابن تاشفين أمير المرابطين في المغرب.

يعكس تاريخ المدينة الصراع الدامي بين القوى الأسبانية الناهضة في شبه الجزيرة الإيبيرية في الشمال، التي بدأت حربها القومية التي عرفت باسم حرب الاسترداد، في محاولة للإطاحة بدول الطوائف وإنهاء الوجود العربي الإسلامي في سبه الجزيرة وبين القوى الجديدة المتمثلة بحركة المرابطين، التي ظهرت في المغرب جنوباً ورفعت راية الجهاد والتي هبت لنجدة القوى الإسلامية في الأندلس. لذلك كانت المواجهة بين الشمال الأسباني وبين الجنوب الإسلامي أمراً محتوماً.

• لم يكد ينصرم القرن الرابع الهجري (١٠)م الذي يمثل العصر الذهبي للدولة الأموية، حتى انتابت الأندلس حالة مريعة من الضعف والتفكك تبعث على الأسى، فقد تصدع بنيان ذلك الصرح الشامخ، ودخلت الأندلس بعد ذلك في فترة صراع بين قوى متعددة[١]، بعد أن أعلن أهل قرطبة إلغاء الخلافة الأموية[٢] وقامت على أثر ذلك دويلات أو ممالك مستقلة دعيت "دول الطوائف"[٣]. وكانت هذه الدويلات على حال من الضعف الشديد لم تستطع معها أن تثبت لهجمات الأسبان. كما تفاوتت بالمساحة والموارد الطبيعية، ولم يكن عددها ثابتاً، لأن الدول الكبيرة نسبياً وصاحبة الموارد الأكثر، كانت قادرة على تجنيد المرتزقة[٤] والإغارة على الدويلات المجاورة في محاولة للتوسع وبسط النفوذ. فأدى هذا الأمر إلى اختفاء عدد من هذه الدويلات من خارطة الأندلس، غير أن ذلك لم يزد الأمر إلا تعقيداً، لأن العداء أصبح مستحكماً بين هذه الدول نتيجة الصراع على الحدود، بعد أن تجاوزت أراضي تلك الدول نتيجة لابتلاع الدويلات الصغيرة. وأشهر من تبقى من هذه الدويلات[٥] قبيل قدوم المرابطين إلى الأندلس:

١ـ مملكة إشبيلية:

وأصحابها من العرب وهم بنو عباد[٦] اللخميّون. وقد أسّس هذه الدولة القاضي إسماعيل بن عباد في مدينة إشبيلية أولاً، ثم عمل بنو عباد (٤٠٤-٤٨٤هـ) على توسيع رقعة بلادهم بالإغارة على الإمارات الصغيرة التي تجاوزهم. فقد استولى المعتضد على بعض الحصون من مملكة بني الأفطس إضافة إلى مدينة لبلة وفتح شلب وولى عليها ابنه المعتمد، فأصبحت الدولة ممتدة بعد أن قضى بنو عباد على دولة بني جَهور في قرطبة من شرق الوادي الكبير حتى الأطلس غرباً، إضافة إلى الجزيرة الخضراء جنوباً، كما خضعت لهم مرسية أمداً قصيراً.

٢ـ إمارة الثغر الأعلى:

لصاحبها ابن هود[٧] الجذامي. وكان بنو هود قد تولّوا عليها بعد أن زالت دولة التجيبيين في سرقسطة، وقد بقيت المدينة عاصمة للدولة الجديدة.

٣ـ مملكة طليطلة:

وتعرف بالثغر الأوسط لأنها من الممالك المواجهة للحدود الأسبانية لأصحابها بني النون المغاربة[٨]. من رجالاتها يحيى الملقب بالمأمون، الذي دخل في منازعات مع ابن هود صاحب سرقسطة وابن عباد صاحب إشبيلية، كما استعان بالأسبان في سبيل تحقيق أطماعه وحاول الاستيلاء على قرطبة من بني عباد ففشل في مسعاه[٩]. وقد تولى حفيده "القادر" الحكم ولكنه أرغم على الفرار[١٠] ولجأ إلى الفونسو يستعين به لاستعادة ملكه الضائع[١١].

٤ـ مملكة بطليوس الثغر الأدنى:

لأصحابها بني الأفطس[١٢] المغاربة الذين انتسبوا إلى قبيلة تجيب العربية وقد امتدت رقعة هذه المملكة على حوض نهر آنة واتخذت بطليوس عاصمة لها. وقد دخل أصحاب هذه المملكة في نزاع مع بني عباد من جهة ومع بني ذي النون من جهة أخرى.

ومن أشهر رجالات هذه الدولة محمد بن الأفطس الملقب (بالمظفر)، و(المتوكل) الذي سقطت في عهده مملكة بطليوس في يد المرابطين.

٥ـ مملكة غرناطة:

وأصحابها بنو زيري الصنهاجيون[١٣] (٤١٢-٤٨٣هـ). وقد أسس هذه الدولة حبوس بن ماكس ثم خلفه ابنه باديس، الذي استولى على مالقة من بني حمود بعد نزاع طويل مع ابن عباد. وفي عهده سقطت المملكة بيد المرابطين.

٦ـ مملكة المرية:

لأصحابها بني صمادح (٤٣٣-٤٨٤هـ)، الذين تولوا الحكم فيها إثر انقسام الدولة التي أقامها موالي العامرية في شرق الأندلس. وهذه المملكة من أصغر الدول المذكورة ولكنها غنية بالموارد بسبب نشاط مدينة المرية التجاري[١٤].

وهكذا انقسمت البلاد مزقا ودولا وقام الأمراء "فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلتها أو عصبيتها، فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها"[١٥]. هذا في الوقت الذي أصبح فيه الأسبان يتطلعون إلى بسط سلطانهم على شبه الجزيرة برمتها، بعد أن أصبحت حركة الاسترداد حروباً صليبية بمعنى الكلمة ترعاها كنيسة روما، وتجند الفرسان المسيحيين من أجل المشاركة فيها. روى صاحب البيان المغرب أن أحد الأمراء الأسبان قال لمحدثيه من المسلمين: "إنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم فقد سكنتموها ما مضى لكم، وقد نصرنا الآن برادعتكم فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا... ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم....."[١٦].

في الوقت الذي ظهر فيه النورمان في جنوب إيطالية وأخذوا يرنون بأبصارهم للاستيلاء على صقلية[١٧]، نجح الفونسو السادس (١٠٦٥-١١٠٩) الذي أصبح سيد (ليون) و(قشتالة) في سياسته التي مارسها على ملوك الطوائف، فقد كان قادراً على أن يضم إلى بلاده ما يشاء من ديار السلام. ولكنه قنع بالجزية لقلة عدد أتباعه[١٨]، فهم لا يستطيعون تعمير الأراضي التي ينتزعها من المسلمين دفعة واحدة[١٩]، في الوقت الذي سيفقد فيه أعداداً كبيرة منهم في القتال. لذلك لجأ إلى تحريض تلك الدويلات على بعضها "حتى ترق وتضعف"[٢٠] وتتفسخ، فيضرب عليها الحصار ويرغمها على قبول شروطه المهينة.

لذلك امتنع الفونسو عن تأييد دولة إشبيلية في محاولتها احتلال دولة الزيزيين في غرناطة لقاء جزية سنوية كبيرة[٢١]. بينما قنع بنصف ذلك المبلغ بدفعته الزيزيون للأسباب نفسها. وبذلك أخذ "ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى والفتنة بين أمراء الأندلس تستعر إلى أن كلب العدو على جمعهم وملّ من أخذ الجزية ولم يقنع إلا بأخذ البلاد"[٢٢] وهكذا دفع ملوك الطوائف الجزية لعدوهم المتربص، وباعوا بلادهم ثمناً لبقائهم في السلطة، بل باعوا خلقهم وكرامتهم.

"وصاروا للفنش عمالاً يجبون له الأموال-لا يخالف أمره ولا يتجاوز له الحد[٢٣]، وقد عد أحدهم أنه مقرب من الفونس لأنه أهدى له قرداً مقابل الهدية الثمينة التي قدمها له[٢٤]"، وقد عمد الفونسو قبل احتلاله لطليطلة إلى سياسة التهديد المباشر، فتحرك بجيشه "فشق بلاد الأندلس شقاً، يقف على كل مدينة منها فيفسد ويقتل ويسبي ثم يرتحل إلى غيرها...."[٢٥].

لم يكن الهدف من هذه المناورات السياسية خافياً على أحد، فقد صرح شيشلاند[٢٦]، بذلك لصاحب غرناطة: "إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر حتى غلبهم العرب، وألحقوهم باخس البقاع، جليقية فهم الآن عند التمكن طامعون بأخذ ظلاماتهم ولا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة، حتى إذا لم يبقَ مال ولا رجال، أخذناها بلا تكلف[٢٧]".

أما بالنسبة إلى الأوضاع الداخلية لتلك الدويلات. فلم تكن الصورة أكثر إشراقاً. فإذا استثنينا الازدهار الفكري الذي واكب عصرهم، فإن الأوضاع كانت تنذر بأسوأ العواقب. فقد كانت الرعية ترزح تحت أعباء مالية باهظة، إذ كان عليها أن تؤمن الجزية[٢٨] لملوكها. إضافة إلى مرتبات الجنود المرتزقة[٢٩] ونفقات الحروب والفتن الدائرة بين الأمراء أنفسهم وتأمين الأموال اللازمة لحياة البذخ والترف في القصور[٣٠].

وهكذا أصبح الناس "بين عدو يتربص بهم وأمير يسترق دمائهم"[٣١] على حد قول الأمير عبد الله أحد ملوك الطوائف. وهذه المغارم المختلفة لم تعرفها الأندلس قبل عهد الطوائف. فالمغارم التي كان يقبضها السلاطين فإنما كانت بخاصة على الأرضيين فكانت تقرب مما فرض عمر على الأرض وأما اليوم فإنما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها القطيعة ويؤدونها مشاهرة، وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والخيل وعلى كل حليبة شيء وقبالات (ضرائب) على كل ما يباع في

الأسواق وعلى إباحة بيع الخمر بين المسلمين في بعض البلاد[٣٢]، وهكذا كله مما يقبضه المغلبون اليوم. كذلك أخذ الزيريون أصحاب غرناطة على كل ما تنتجه الأرض، فقد كانوا يأخذون من الكتان نصفه أو ثلثه كما ذكر ابن حزم واحتكر بنو عامر تجارة الخيول، "فلا تكاد الرمكة تنتج مهراً حتى يكتب على ربه بنعته ويلزمه تربيته والقيام عليه إلى أن يصلح للرياضة، فيقبض منه وعند ذلك يعطي منه خمسة دنانير لا يزال عليها في وقت ولا يبرأ منه أن تنفق إلا ببراءة، من ثقته. ولقد قطع إذن رجل لقطعه إذن مهر، طلب التشويه بخلقه[٣٣]. ويصور الأمير عبد الله صاحب غرناطة[٣٤] تلك الفترة أصدق تصوير ويبيّن المرحلة الأولى من سياسة الفونسو تجاه دول الطوائف بقوله: "وكان الجميع يساير الأمور ويدافع الأيام، ويقول: من هنا إلى أن تتم الأموال وتهلك الرعايا بزعمهم، يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين"[٣٥].وجاء احتلال الفونسو السادس الذي أطلق على نفسه لقب "الإمبراطور ذي الملتين"[٣٦] لمدينة طليطلة[٣٧] (٢٧) محرم ٤٧٨هـ ٢٥مايس١٠٨٥) ليدق ناقوس الخطر في أرجاء شبه الجزيرة. فتلك الكارثة التي ارتبط بها التحول الخطير في التاريخ الإسلامي لبلاد الأندلس وأدت إلى دخول المرابطين إلى الأندلس وأنزل ملوك الطوائف عن عروشهم. تلك الكارثة جعلت ملوك الطوائف يدركون أن الفونسو قد غير سياسته القديمة وأنه لن يرضى بعد اليوم عن الأرض بديلاً[٣٨]. فبادروا يخطبون وده ويسترضونه بالمبالغة في دفع الأتاوات والهدايا، ولكنه لم يقنع فقد كان يطمع بقرطبة "واسطة السلك"[٣٩] واستولى على بلنسية وضرب الحصار على سرقسطة. ورفض الأموال السخية التي عرضت عليه لفك الحصار[٤٠]. وتغالي الروايات في تصوير مآثر الفونسو وأعماله البطولية وأنه اجتاز بلاد الأندلس حتى أقصى الجنوب "فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال: هذه آخر بلاد الأندلس:.."[٤١].

الدعوة إلى توحيد الأندلس:

عد ذلك ارتفعت في الأندلس دعوة لتوحيد الجهود، للوقوف صفاً واحداً أمام العدو

المتربص. وقد رفع لواء هذه الدعوة (طبقة) الفقهاء التي تزعمت قيادة الجماهير، ومنهم الفقيه عمر بن حسن الهوزني، الذي وقف جهده للدعوة إلى التوحيد ولمّ الشمل والحض على الجهاد، وأبوا الوليد الباجي الذي قام بجولة في عدد من المدن الأندلسية داعياً إلى لمّ الشعث ونبذ الفرقة في وجه الزحف الأسباني...ولكن تلك الدعوات لم يكتب لها النجاح.

إشبيلية تستنجد بالمرابطين:

لكن قضية الدعوة التي دخل المرابطون على أثرها الأندلس والمنسوبة إلى ابن عباد تثير مسائل متعددة، لاختلاف روايات المؤرخين من جهة وعدم تسلسل الأحداث التي مهدت السبيل لدخولهم إلى الأندلس من جهة أخرى. والرواية المشهورة عن دخول المرابطين إلى الأندلس تذكر أن المعتمد بن عباد قد اختلف مع سفارة لالفونسو السادس عام ٤٧٥هـ التي قدمت لتسليم الأموال التي تعهد بتقديمها كجزية سنوية لالفونسو ملك قشتالة، وقد رفض ابن شاليب (ابن شبيب) اليهودي الذي ترأس السفارة، تسلم النقود بسبب عيارها وعدها زائفة، وهدد المعتمد بأن الفونسو لن يقنع بعد اليوم عن الأرض بديلاً، وأنه سيكون المدفوع في العام القادم حصوناً ومدناً لا مالاً زائفاً، ثم طلب بوقاحة السماح لزوجة الفونسو بالإقامة في مدينة الزهراء بعد أن تضع مولودها في جامع قرطبة.

اتصل بالمعتمد ما فاه به اليهودي فغضب من وقاحة السفير وأمر بصلبه وأسر بقية أعضاء السفارة. تأثر الفونسو عندما بلغه ما حل بالسفارة فأقسم بالله وبأرواح القديسين لينتقمن لهم من عدوه انتقاماً مروعاً وليغزونّه في إشبيلية. ويذكر الحميري أن الفونسو أرسل إلى المعتمد بن عباد رسالة يقول فيها: (كثر مقامي في مجلس الذبان واشتد علي الحر، فألقي من قصرك بمروحة أروّح بها عن نفسي، وأطرّ بها الذباب عني)، فوقّع له المعتمد بن عباد بخط يده على ظهر الورقة (قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك

وإعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية، في أيدي الجيـوش المرابطـة، تروّح منك لا تروّح عليك إن شاء الله). فلما بلغ ذلك الفونسو أدرك فداحة الخطر.

أدرك المعتمد أن الفونسو متوجه إليه لا محالة، فأرسل إلى ابن تاشفين غرة جمـادى الأول من سنة ٤٧٨هـ/١٤آب ١٠٨٨م. يطلب منه التدخل لإنقاذ الأندلـس ضارباً عرض الحائط نصائح ابنه (الراشد) الذي كره أن يستنجد أبوه بالمرابطين مخافـة أن يطمعوا في ملكه ويصرفوه عما بيده من البلاد، مفضـلاً أن يرعـى الجمـال فـي الصحراء، على أن يرعى الخنازير في قشتالة. بل شاع بين المؤرخيـن أنـه سـعى لمقابلة ابن تاشفين شخصياً وحثه على العبور إلى الأندلس، وإن ابن الأفطس صـاحب بطليوس قد شاركه هذا الرأي[٤٢]. ثم ركب الجميع الموجة بعد أن حذروا المعتمد سوء العاقبة[٤٣]. وأشاروا بمداراة الفونسو ومصانعته[٤٤]. وقالوا: "إن الملك عقيم والسـيفان لا يجتمعان في غمد!" فأجابهم "يا قوم إني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالـة شك ولا بد لي من إحداهما؛ أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين، أو إلـى الأذفونس، فمن الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا يفعل، فهذه حالـة شك، وإما حالة اليقين فإني إن استندت إلى الاذفونس أسخطت الله، فإذا كـانت حالـة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه...[٤٥]".

إن هذه الرواية لا تعطي صورة صادقة عن الأحداث التي وقعت آنذاك، ولكنها تبيـن بوضوح أن دولة إشبيلية مهددة بالزوال سواء من الفونسو من الشمال أو مـن دولـة المرابطين في الجنوب، وقد كره الأمراء أن يكونوا بين عدوين الإفرنج من شـمالهم والمسلمون عن جنوبهم.[٤٦] أما بالنسبة للمرابطين، فقد تم لهم فتح مدينة أغمـات[٤٧] عام ٤٤٩/ أو ٤٥٠هـ/ وتابعوا زحفهم شمالاً تحركهم أسباب دينية (مثاليـة) وهـي الرغبة في تحقيق الدعوة التي بثها أمامهم عبد الله بن ياسين، وإسقاط الحكومات التـي لا تنسجم تصرفاتها مع الشرع وبعامل مادي للسيطرة على الخطوط التجارية القادمـة من قلب الصحراء. لذلك ما إن تهيأت للمرابطين الموارد الحربية الكافية سـواء فـي

الرجال أم في الأموال، حتى فتحوا مدينة فاس[٤٨] الهامة عام ٤٥٥ وأنهوا في ذلك الصراع الدامي بين زنانة وصنهاجة الجنوب.

وكان على المرابطين بعد ذلك لإتمام سيطرتهم على المغرب الأقصى، أن يستولوا على إقليم الساحل الغني بموارده المختلفة والذي يشكل حلقة من حلقات الاتصال مع الأندلس. لذلك اندفعوا بقواتهم لاحتلال ثغر طنجة الهام الذي تسيطر عليه قبائل برغواطة الضاربة على ساحل المحيط، كما فعل الأمويون قبلهم واتخذوه قاعدة لقواتهم المتوغلة نحو الجنوب، تمهيداً لتوسيع نفوذهم في المغرب.[٤٩] وقد استطاع البرغواطيون إقامة إمارة لهم بمنطقة سبته[٥٠] وطنجة[٥١]، معتمدين في ذلك على قبائل عماره[٥٢] القوية بعد أن سقطت الدولة الأموية. ورغم أن المرابطين قد استطاعوا بعد فتح مدينة فاس القضاء على برغواطة في إقليم الساحل[٥٣]، إلا أن تلك الإمارة الصغيرة بقيت تسيطر على المنطقة الساحلية وتتحكم بالمضائق، إضافة إلى أن أسطولهم القوي، الرابض في ميناءي سبتة وطنجه كان يتحكم في تجارة الأندلس.

والأمير البرغواطي[٥٤] سكوت[٥٥] هذا صاحب طنجة من قبيلة برغواطة الزناتية، ومنازلها على ساحل المحيط في المغرب الأقصى، بين طنجة وأصيلة (أصيلا)، وتجاورهم من الشرق منازل قبيلة غمارة الزناتية أيضاً. وكان سكوت على خلاف مع بني عباد[٥٦] أصحاب إشبيلية ومهدداً لهم[٥٧]، ولما قامت دولة المرابطين ووصل يوسف بن تاشفين إلى شمال المغرب قريباً من أحواز طنجة، طلب ابن تاشفين من الحاجب سكوت أن ينضم إليه ومن معه من الغماريين للقضاء على قبيلة برغواطة عام ٤٧١هـ. وقد رغب سكوت أول الأمر بالانضمام لابن تاشفين، ولكن ابنه ضياء الدين ثناه عن رغبته تلك[٥٨]. فلما انتصر ابن تاشفين على قبيلة غماره[٥٩]، جهز جيشاً مؤلفاً من اثني عشر ألف فارس من المرابطين وعشرين ألفاً من قبائل المغرب الأخرى، وأسند قيادة الجيش إلى صالح بن عمران وعندما اقترب الجيش من أحواز طنجة، خرج الحاجب سكوت البرغواطي صاحب طنجة للقائهم، وكان قد تقدمت به

السن وجاوز ستة وثمانين عاماً، فقال "والله لايسمع أهل طنجة طبول اللمتونين وأنا حي أبدا(٦٠)". ودارت بين الطرفين معركة حامية الأوار في وادي (منى) القريب من طنجة وانتهت بانتصار المرابطين بعد أن قتل سكوت وهُزِم جيشه. ودخل المرابطون طنجة وكتب القائد صالح بن عمران إلى الأمير يوسف بن تاشفين يخبره بفتح المدينة وكان ذلك عام ٤٧١هـ(٦١).

لم يبق أمام المرابطين لإتمام سيطرتهم على الساحل إلا فتح مدينة سبته(٦٢). لذلك حاصرت قواتهم بقيادة المعز بن يوسف تاشفين المدينة واشتركت بعض سفن(٦٣) أسطولهم الناشئ بحصارها من البحر. وقد استطاع المرابطون الاستيلاء على المدينة في ربيع الأول سنة ٤٧٧هـ تموز ١٠٨٤م.

وبفتح مدينتي طنجة وسبته امتدت سيطرة المرابطين لتشمل إقليم الساحل المطل على الأندلس بعد أن انتظمت قبائل تلك الناحية كلها في سلك الدولة اللمتونية المرابطية. وهذا يعني أن المرابطين قد أصبح بإمكانهم العبور إلى الأندلس بعد أن أصبحت نقطة العبور تحت سيطرتهم.

دخل ابن تاشفين مدينة سبته، فأصلح أحوالها ورمم سفنها في الوقت الذي قدمت عليه الوفود من أرجاء المغرب، (فأتاه من بلاد الصحراء والقبلة والزاب، القبائل والحشود فشرع في تجويز الجيوش إلى الأندلس(٦٤)). ورغم ما ذكره صاحب روض القرطاس عن رحلة ابن عباد وحثه لابن تاشفين على العبور إلى الأندلس تلبية لاستغاثة أهلها، وتلبية ابن تاشفين لتلك الدعوة، فإن سير الأحداث التي جرت في ربوع المغرب قد بينت أن ابن تاشفين كان يعدّ العدة للتدخل في أمور الأندلس، متذرعاً بالجهاد قبل سقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ، وقبل رحلة ابن عباد التي ذكرها صاحب روض القرطاس.

ذكر المقرى(٦٥) نقلا عن الحميري(٦٦) أن ابن تاشفين قد تاقت نفسه إلى العبور إلى جزيرة الأندلس وهمّ بذلك وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها بعد أن تم له فتح

المغرب وبنى مدينتي مراكش وتلمسان الجديدة[٦٧]، حتى أنه طلب من سكوت بن محمد البرغواطي صاحب سبته بقصد الغزو، وتشوقه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس، وسأله أن يخلي الجيوش تجوز في المجاز فتعذر عليه، فشكاه يوسف إلى الفقهاء، فأفتوا أجمعين بما لا يسر صاحب سبته[٦٨].

وهذه الرواية ظاهرة الصحة تدل على عزم ابن تاشفين على العبور إلى الأندلس، كما تؤكد أن المرابطين لايحاربون مسلماً إلا بفتوى. وقد طبقوا تلك القاعدة في جميع مراحل تقدمهم من الصحراء نحو الشمال[٦٩].

ذكر صاحب روض القرطاس[٧٠] وصاحب الحلة السيراء[٧١]، نقلا عن مصادر معاصرة أن أمير المغرب يوسف بن تاشفين قد ازدلف خلال ذلك إلى سبته حسبة ورغبة في الجهاد. وقد دانت له بلاد (العدوة المغربية)، وسأل سكوت بن محمد صاحب سبته أن يبيح له فرض الإجازة إلى الأندلس، فأبى وتمنع من ذلك فأفتى الفقهاء بقتاله لصده عن سبيل الله، فقتل هو وابنه في خبر طويل. وفتح الله على ابن تاشفين سبته[٧٢].

لذلك نرى أنه من المعقول أن يستمر زحف المرابطين شمالاً، باتجاه الأندلس، لتوفر العوامل نفسها التي دفعتهم للاستيلاء على المغرب الأقصى حتى سبته شمالاً. فحكومات الطوائف في الأندلس لم تكن أقل بعداً عن الدين من الدويلات المارقة في المغرب، وكما أنه تتوفر فيها فرص الجهاد ضد الإسبان (النصارى) الذين شنوا حرباً لا هوادة فيها ضد المسلمين. ورغم ماتؤكده المراجع من أن دولة المرابطين قد قامت من أجل الجهاد، وإنقاذ العالم الإسلامي مما دهمه من فرقة وتخاذل، إلا أنها كانت مدفوعة إلى جانب ذلك بعامل مادي للسيطرة على الطرق التجارية القادمة من قلب الصحراء، لأن الأندلس تشكل النهايات الطبيعية للخطوط التجارية والأسواق الهامة لتجارة المغرب وأفريقية المنطلقة نحو الشمال، وتمهد الطريق لأسواق أوروبة عن طريق موانئ شرق الأندلس ويدعمها في ذلك نمو البحرية المرابطية[٧٣]، التي أصبح

بمقدورها حراسة الطرق في البحر، وتأمين الحماية للموانئ الهامة، في الوقت الذي أصبحت فيه بلاد الأندلس تنافس بأسواقها المغرب في ميدان التجارة الدولية وتقصدها المراكب التجارية القادمة من الإسكندرية والشام[٧٤].

إضافة إلى أنه قد توفرت لهم (أي المرابطين) جميع الوسائل اللازمة للعبور[٧٥] إلى العدوة الأندلسية، بعد أن أصبحت كل الموانئ الهامة بحوزتهم، ووصلت الدعوة الضرورية اللازمة لدخولهم. وقد وصلت هذه الدعوة -كما سلف- قبل دعوة المعتمد بن عباد بعدة سنوات. فقد تلقى يوسف بن تاشفين دعوة من صاحب بطليوس الملك ابن الأفطس[٧٦]، الذي تبنى دعوة الباجي، والأمير الزيري صاحب مالقة الذي أراد الانتقام من أخيه صاحب غرناطة[٧٧].

بيد أن المعتمد بن عباد لم يكن مخلصاً في اتصاله بيوسف بن تاشفين وحثه على العبور إلى الأندلس لإنقاذها، بل هدف من وراء ذلك تهديد الأسبان به ليقنع الفونسو بالتخلي عن سياسته العدوانية التي تتمثل بأخذ المدن وضم أراضي المسلمين إلى مملكته، وبحمله على العودة إلى سياسته القديمة.

وهنا نتابع الأحداث كما وردت في رواية ابن الأثير.[٧٨] فقد اجتمع مشايخ قرطبة[٧٩] بعد أن سمعوا ما جرى لأعضاء السفارة التي أرسلها الفونسو لابن عباد وقالوا:

"هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الإفرنج ولم يبق منها إلا القليل، وإن استمرت الأحوال على مانرى عادت نصرانية كما كانت" ثم ساروا قاصدين القاضي أبا بكر عبد الله بن محمد بن أدهم وقالوا له "إلا تنظر إلى مافيه المسلمون من الصغار والذل وعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها منهم" وعرضوا عليه الاستنجاد بعرب أفريقية (فإذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله ...)[٨٠]. وقد أجابهم القاضي أبو بكر محذراً من سوء العاقبة وقال: إنهم بعد أن يصلوا سيخربون البلاد كما فعلوا بأفريقية ويتركون الأسبان ويبدؤون بنا ثم أضاف والمرابطون أصلح

منهم وأقرب إلينا[٨١]. فقالوا له: "كاتب أمير المسلمين وأرغب إليه ليعبر إلينا ويرسل بعض قواده[٨٢]".

ورواية ابن الأثير هذه تعتبر من أكمل الروايات حول الاجتماع المذكور، وتفيد بأن اجتماع الفقهاء كان ذا طابع عدائي بالنسبة إلى ملوك الطوائف بدليل عقدهم له سراً وخاصة أنه قد تم فيه الاتفاق على التحالف مع المرابطين.

ويذكر ابن الأثير بعد ذلك أن ملوك الطوائف قد اتصلوا بمؤتمر الفقهاء هذا. فقد أقبل المعتمد بن عباد بينما هم يتفاوضون، فعرض عليه القاضي ابن الأدهم ماتخذوه من توصيات (قرارات) فقال ابن عباد: "أنت رسولي إليهم، أي إلى ابن تاشفين في ذلك[٨٣]"، فامتنع القاضي عن قبول هذه المهمة كأنما يبرئ نفسه من تهمة عقد الاجتماع على حد قول ابن الأثير،[٨٤] ولكن المعتمد ألح في طلبه فقبل القاضي المهمة.

بعد ذلك طلب ابن عباد من صاحب بطليوس وصاحب غرناطة أن يبعثا إليه كل منهما قاضي حضرته "فوصل من بطليوس قاضيها أبو اسحق بن مقانا، ومن غرناطة قاضيها القليعي واجتمعا في إشبيلية بالقاضي أبو بكر بن أدهم[٨٥] فعرفهم ابن عباد أنهم رسله إلى ابن تاشفين[٨٦].

تدلنا رواية ابن الأثير أن المعتمد وملوك الطوائف كانوا بعد أن تقدم المرابطون شمالاً واحتلوا مدينة سبته الاستراتيجية، بين نارين، وحلوا المشكلة بجعل المرابطين يدخلون إلى الأندلس برضاهم ويضربونهم بالأسبان، وفي نفس الوقت يجرّدون دخولهم من خطره باشتراط عدم التدخل. وهذا ماأوصى به المعتمد وملوك الطوائف عندما طلبوا من الوزير ابن زيدون الذي رافق وفد الفقهاء، وأسندت إليه مهمة إبرام العقود بأن يشترط على ابن تاشفين "أن لايعرض للأمراء في بلدهم ولايقبل عليهم رعيتهم بمن يروم الفساد عليهم[٨٧]. وقد بينت الأحداث عزم ابن تاشفين على العبور إلى الأندلس

كما بينت مماطلة ابن عباد في تسليم الجزيرة الخضراء. وقد أكد الأمير عبد الله ابن بلقين، وهو شاهد عيان للأحداث التي تمت في تلك الفترة، أن الأمير يوسف بن تاشفين أرسل سفارة إلى إشبيلية بعد مماطلة المعتمد، فأمسكهم عنده مدة ثم أرسل معهم وفداً من شيوخ إشبيلية ليعلموا ابن تاشفين عن موافقته تسليم الجزيرة، شريطة أن يتربص في سبته ثلاثين يوماً قبل ذلك[٨٨]. لكن أصحاب ابن تاشفين حذروه من المعتمد عندما طلب منه الوفد رسالة خطية وقالوا له: لا لم يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء إلا لأنه يريد أن يرسل إلى الفونس يعلمه بقدومك، وله منه مايرغب ويهدد بك ويسأله أن يعاقده على أن يهبه الجزيرة أعواماً. فإن فعل استجاش عسكره على الجزيرة، ومنعك الجواز... وإن كان النصراني لايتأتى له أرسل إليك في الجواز فأسبقه إليها[٨٩].

لذلك تقدمت قوة مرابطية مكونة من خمسمائة فارس نحو الجزيرة الخضراء على رأسها داوود بن عائشة "وأحدقوا حواليها يحرسونها، ثم طلب من الراضي بن المعتمد تسليمه الجزيرة دون قتال وقال له" وعدتمونا بالجزيرة ونحن نأتي لأخذ بلدة ولاضرر بسلطان، إنما أتينا للجهاد فإما أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا وإلا، فالذي تقدر عليه فاصنع...[٩٠]" لذلك لم ير المعتمد بداً من التسليم بالأمر الواقع فطلب من ابنه تسليم الجزيرة للمرابطين[٩١].

معركة الزلاقة وحصار حصن لييط:

عبر يوسف بن تاشفين البحر بعد أن اجتمع له "نحو من سبعة آلاف فارس في عدد كبير من الرجل[٩٢] قاصد الجزيرة الخضراء بخرج إليه بما عندهم...وامتلأت المساجد والرحاب بضعفاء المطوعين[٩٣] وقد أعلن ابن تاشفين أن هدفه من هذا العبور هو إنقاذ الأندلس من الروم (لما رأينا استبدادهم على أكثرها وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم للراحة...ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول الفتنة إلى المسلمين وأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش إنما همّ أحدهم فرس يروضه...[٩٤]).

اتجهت القوات المرابطة نحو إشبيلية[٩٥]، فهرع ابن عباد لاستقبال ابن تاشفين، وسارع كذلك ملك غرناطة[٩٦] وأخوه صاحب مالقة وابن ذي النون وبنو عزون[٩٧]. حتى لم يبقَ من ملوك الأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج[٩٨]. بينما أرسل ابن صمادح ابنه معتذراً بالضعف وكبر السن ولعله بقي "متربصاً فيرى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم"[٩٩]، على حد زعم الأمير عبد الله، الذي اشترك في معركة الزلاقة وصور الروح الإيجابية لملوك الطوائف عند ملاقاتهم لابن تاشفين بقوله: "ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس، ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا ما زادنا ذلك في رغبة، ولو استطعنا أن نمنحه لحومنا، فضلاً على أموالنا... كلّ يرغب في الجهاد وقد أعمل جهده ووطن على الموت نفسه...كأن القلوب إنما جمعت على ذلك[١٠٠]".

وصلت القوات المشتركة[١٠١] المغربية الأندلسية إلى الزلاقة[١٠٢] من إقليم بطليوس وإلى هذا المكان وصل الفونسو ودارت بين الطرفين معركة حامية الأوار استمرت نهاراً كاملاً (يوم الجمعة في رجب عام٤٧٩هـ/ تشرين ١٠٨٦م) وانتهت بانتصار المسلمين، وتسلل الفونسو مع فلول جيشه تحت جنح الظلام إلى أحد الروابي لا يلوي على شيء[١٠٣].

ورغم أن النصر الذي أحرزه المسلمون في الزلاقة لم يكن حاسماً لأنهم لم يقطعوا ثماره بالقضاء على العدو والتوغل في أراضيه، كما كان يرغب المعتمد بن عباد، وتبقى لمعركة الزلاقة نتائج متعددة غاية في الأهمية. فقد أوقفت المعركة المد الأسباني الزاحف من الشمال ومهدت السبيل لضم الأندلس إلى المغرب لتبقى في حوزة المسلمين أربعة قرون أخرى[١٠٤]، كما أظهرت للمسلمين في الأندلس خطر الفرقة التي يعيشها أمراء الطوائف. فقد كادت الأندلس أن تضيع بسبب نزاعاتهم. كما بيّنت للمسلمين هناك أن المرابطين يمكن أن يكونوا جنود العدل وأن ينقذوهم مما يرزحون تحته من مغارم بعد أن سمعوا عن عدل المرابطين وتمسكهم بإحكام السنة، وأحيائهم بواعث الجهاد. كما رفعت تلك المعركة من مكانة ابن عباد. فقد أبلى في هذه المعركة

أحسن البلاء[١٠٥] وعقرت تحته ثلاث أفراس...ولكنه استغل هـــذه المكانـــة لتوطيـــد سلطانه وأخذ يسعى لتوسيع مملكته معتمداً على قوة المرابطين وعلاقاته الطيبة معـهم، بينما تألق نجم ابن تاشفين أعظم التألق فهو منتزع النصر وبه انتهت هزائم المســلمين وبدأ حسن طالعهم.

وقد جمع ابن تاشفين أمراء الأندلس قبل مغادرتهم وأوصاهم بالتآلف والاتحـــاد لصـــد الأعداء، ثم عبر البحر عائداً إلى بلاده، بعد أن ترك حامية مرابطيـــة علـــى رأســـها الأمير سير بن أبي بكر لتواصل أعمال الجهاد في شبه الجزيرة.

إشبيلية تستنجد بالمرابطين ثانية: (حصار حصن لبيط)

ما إن وطئت أقدام ابن تاشفين ارض المغرب، حتى عاد ملوك الطوائف إلى ســيرتهم الأولى، وأخذ بعضهم يكيد لبعض وتناسوا أن العدو ما يزال قادراً على قتالهم. وقـــد استطاع الفونسو نتيجة لذلك أن ينظم قواته ليثأر لهزيمته التي نالها على يد المرابطين. فأخذ يغير بقواته على بلاد المسلمين. ويذكر صاحب روض القرطاس أن قواته عاثت في منطقة إشبيلية،[١٠٦] هذا في الوقت التي ساءت فيه الأمور في شرق الأندلس مـــن جراء الغارات التي كان يشنها المغامر القشـــتالي الـــذي عـــرف باســـم الســـيد[١٠٧] (الكمبيادور) وقد كتب سيرين بن أبي بكر قائد الحامية المرابطية في الأندلـــس إلـــى الأمير ابن تاشفين يخبره (أن الجيوش بالثغر مقيمة على مكـــايدة العـــدو....وملـــوك الأندلس في أرغد عيش وأطيبه)[١٠٨].

وقد تركز الخطر الجديد على المنطقة الشرقية في حصن لبيط[١٠٩] وهو حصن منيـــع بني فوق جرف عال متداخل من أراضي المسلمين في منطقة مرسية على مقربة مـــن لورقة. وكان هذا الحصن مركزاً لحامية أسبانية مكونة من ثلاث عشر ألـــف جنـــدي بينهم ألف فارس[١١٠]. وكانت تلك الحامية تقوم بأعمال العدوان والتخريب في منـــاطق بلنسية ولارده وشاطبة ومرسية مهددة بذلك أملاك المعتمد بن عباد[١١١]، والـــذي أدرك

فداحة الخطر الذي يتعرض له بعد أن عمد الفونسو إثر معركة الزلاقة إلى التركيز في أعماله العدوانية على أراضي لورقة ومرسية، ليثأر من المعتمد لخروجه عن سياسة التحالف السابقة واستنجاده بالمرابطين[١١٢]. وكانت مدينة مرسية تابعة للمعتمد بن عباد من الناحية الشرعية وكان مدير شؤونها ابن عمار،[١١٣] ولكنه خرج عن طاعته بعد خلاف وقع بينهما فأرسل المعتمد بن عباد إلى المدينة ابن رشيق[١١٤] للإطاحة بابن عمار عامله المتمرد فيها. وقد استطاع ابن رشيق تسلم زمام الأمر في المدينة إثر غياب ابن عمار عنها، بعد أن استمال وجوه القوم فيها. ولم يستطع ابن عمار العودة لاستعادة ملكه وقصد إلى صاحب سرقسطة ودخل في خدمته[١١٥]، ثم حاول الاستيلاء على شقورة[١١٦]. فوقع في أسر صاحبها الذي سلمه للمعتمد بن عباد وانتهى أمره بأن مات قتيلاً بيد المعتمد[١١٧].

غير أن ابن رشيق كان وصولياً أكثر من ابن عمار. فلم يلبث أن استبد بأمر مرسية وخرج عن طاعة أميره[١١٨]. وحاول المعتمد بن عباد استعادة سلطته المطلقة في تلك المنطقة، وتوجد لدينا تفاصيل وافية عن تلك المحاولات لاستعادة مرسية مستغلاً قوة المرابطين. وقد ذكر هذه التفاصيل ابن الأبار[×] في الحلة ونقلها المؤرخ غاسبار روميرو على ما يبدو بقوله: "وحشد المعتمد ابن عباد جملة من جنوده ومن الجنود الذين تركهم ابن تاشفين في الأندلس محاولاً استعادة سلطته في مرسية. وقد اتجه المعتمد إلى مدينة لورقة ولكنها استطاعت الصمود في وجهه وامتنعت عليه، فغادرها إلى مرسية وضرب حولها الحصار، ولكن ابن رشيق استطاع أن يكسب المرابطين إلى جانبه، وأن يقنعهم بأن يتركوه في سلام[١١٩].

ولتلك الأسباب رأى المعتمد أن يستنجد بالمرابطين مرة أخرى. فعبر البحر لمقابلة ابن تاشفين. ذكر ابن الأبار[١٢٠] أنه اجتمع بأمير المسلمين في شمال المغرب الأقصى على وادي (سبوا) في منعطف فيه يعرف (بالدخلة). وشكا له ما يتعرض له المسلمون في تلك المنطقة "وعظم له شأن لييط[١٢١] وعاقده على أن يأتي عليه بنفسه برجاله".

وكانت وفود المسلمين من أهل بلنسية ومرسية ولورقة وبسطة قد غـادرت الأندلـس واجتمعت بأمير المسلمين واستغاثت به ليرد عدوان الأسبان (النصارى) عن أهالي تلك المنطقة. وعاد الجميع إلى بلادهم بعد أن وعدهم ابن تاشفين بتحقيق رغبتهم[١٢٢].

عبر ابن تاشفين البحر للمرة الثانية استجابة لابن عباد والمسلمين في تلك المنطقـة، إلا أن الروايات مختلفة حول تاريخ هذا العبور. ذكر ابن الخطيب أنه كان في ربيع الأول من عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م[١٢٣]. بينما ذكر ابن الأبار هذا العبور بقوله: "وفي سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، حرك المعتمد ابن تاشفين للغزو بعد أن أجاز إليه البحـر...)[١٢٤]. مما يلفت النظر في هذا التاريخ الذي قدمه ابن الابار أنه مخالف لسير الأحداث التـي تمت في الأندلس في تلك الفترة. فمن المعروف لكل الباحثين في التاريخ الأندلسـي أن ابن تاشفين قد قرر إسقاط ملوك الطوائف عن عروشهم بعد عام من عودته من حصار لييط (٤٨٢هـ/١٠٨٩م). وكان فتح غرناطة وهي أول دولة من دول الطوائف تسـقط في أيدي المرابطين عام ٤٨٣هـ. وقد تظاهر قائد المرابطين قبل فتح المدينـة أنـه متجه نحو طليطلة للجهاد في تلك المنطقة. ويبدو أن ابن الأبار قد اختلط عليه الأمـر فذكر تاريخ العبور الثالث للقوات المرابطية. ولعل كلمة (الغزو) التي وردت في نـص ابن الأبار المذكور تفسر أمر ذلك الاختلاط[١٢٥].

وعندما استقر ابن تاشفين بقواته في الجزيرة الخضراء[١٢٦] راسل ملـوك الطوائـف يخبرهم بقدومه ويطلب منهم الاستعداد واللقاء عند حصن لييط[١٢٧]. ثم غادر بقواتـه إلى مالقة[١٢٨] بعد أن وافاه ابن عباد حيث انضمت إليه قوات الأمير تميم صاحبها[١٢٩] وابن صمادح صاحب المريّة[١٣٠] كذلك وصل إلى ذلك المكان رؤساء الأندلـس مـن شقورة وبسطة وجيان[١٣١] كما وصل ابن رشيق صاحب مرسية بقواته ومعـه عـدد كبير من النجارين والبناءين والحدادين للاشـتراك فـي الأعمـال التـي يتطلبـها الحصار[١٣٢].

وهكذا أجمعت الروايات على توافد أمراء الطوائف جميعاً للاشتراك في الهجوم على حصن لييط. ولم يتخلف أحد من الأمراء في هذا الحصار. إلا صاحب روض القرطاس،[١٣٣] انفرد برواية تقول بتخلف ابن الأفطس صاحب بطليوس عن هذه الحملة، مما يدعو إلى التساؤل. فابن الأفطس هو من أصحاب المبادرة في استدعاء المرابطين للدخول إلى الأندلس، مما يشك في تخلفه عن هذا الحصار. أم لعله كان يرقب النتائج لعلمه أن المستفيد من تلك الجهود هو ابن عباد؟

وبذلك اتفقت كلمة الأمراء على استدعاء ابن تاشفين وتوحيد الجهود لإنشاء جبهة واحدة تستطيع الصمود أمام الزحف الأسباني.

سارت القوات المشتركة قاصدة حصن لييط، وبعد وصولها ضربت الحصار حوله وشنت الغارات عليه من كل ناحية طوال أربعة أشهر[١٣٤]. ولكن المسلمين لم يستطيعوا اقتحامه أو يرغموا حاميته على الاستسلام. وانتهى الحصار والقتال من (نصيب المجانيق والعرادات، وحتى لم يبق عمل يرام به من اقتحام المعاقل إلا صنع)[١٣٥]. حتى أن ابن صمادح (أتى بفيل أقامه وخرق به العادة، وفي كل ذلك لا ينجح عمل ولا يظهر فيه المسلمين فرصة)[١٣٦]، كل ذلك والخلاف على أشده بين الأمراء المجتمعين. وحاول المتخاصمون الأندلسيون من شتى الفئات استغلال قوة المرابطين لمصلحتهم وتوجيهها بما يتفق وتحقيق مطامعهم الخاصة، وقد عمدوا في ذلك إلى أساليب مختلفة، كاستمالة القواد البارزين في الجيش المرابطي بالمال والهدايا أو التقرب إلى الفقهاء، الذين صحبوا ابن تاشفين في تلك الحملة. كذلك كان الفقهاء بدورهم يوغرون صدر ابن تاشفين على ملوكهم. وقد صور الأمير عبد الله المعاصر، حال سلاطين الأندلس في تلك الفترة أصدق تصوير: (وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها مغاث سلاطين الأندلس ورعيتهم في ذلك يأتون أفواجاً شاكين لما وجدوا لمن استندوا إليه، فالراضي منهم يلتمس الزيادة والساخط يرجو الانتقام)[١٣٧].

من أبرز الخلافات ما وقع بين المعتمد وابن رشيق عامله المتمرد في مدينة مرسـيـة. فقد شكا كل منهما صاحبه إلى ابن تاشفين ليحسم القضية لصالحه. ولجأ كل منهما إلى المناورة لتحقيق أهدافه(١٣٨). فقد بذل ابن رشيق الأموال للمرابطين وتقرب من سـير بن أبي بكر وبالغ في إكرامه على حد قول الأمير عبد الله(١٣٩).

ثم خلع طاعة أميره ابن عباد وأعلن ولائه لابن تاشفين والعدوة له على منابر مدينتـه، قاصداً بذلك إحراج ابن عباد والتمكين لنفسه في تلك المنطقـة. واحتـج بقولـه: لـم يقدمني-ابن عباد- إلى مرسية(١٤٠) وزعم أن أهل المدينة هم الذين اختاروه بأنفسـهم بعد أن قدمه ابن عمار(١٤١) ولعله كان يقوم بألاعيب للاحتفاظ بمرسية. يذكر الأمـير عبد الله أن ابن رشيق قال أثناء الحصار: "أريد أن أكون صنيعك وأدخل في جملتك ثم أبلغه بعد ذلك مع رسوله لو أنك تقبل من تخلف فيها لأقام الخطبة باسمك وكانت فـي طاعتك" لكن الأمير رفض طلبه على حد زعمه(١٤٢).

أما ابن عباد، فقد اتهم ابن رشيق باتصاله مع الفرنجة (ولاسيما أن معونته للروم بلييط لم تخف على أحد)، يعتقد أن ببقائها يثبت في مرسية، فكان يمـسيرهم ويقويـهم بمـا يعجزون عنه، إبقاء لرمقهم، وخوفاً من الداخلة عليه بفقدهم)(١٣٤) كما ذكـر صـاحب غرناطة. لكن الأمير المرابطي الذي حرص في جميع تصرفاته على التمسك بالشرع، والظهور بمظهر الزاهد في ملك الأندلس لم يتورط في تلك المناورة. ورأى أنـه لا ينبغي أن يفسد الأمر بينه وبين المعتمد. لذلك أنكر على ابن رشيق قيامه بالدعوة لـه، لأن ذلك يوقع بينه وبين المعتمد الشحناء(١٤٤).

وقد أدرك ابن تاشفين أن ابن رشيق لم يفعل ذلك إيثاراً له، بل لإشغاله عن نفسه بعـد أن صح لديه اتصاله بالروم ومد يد العون لهم. لذلك أمر بإلقاء القبض على ابن رشيق بعد استشارة الفقهاء الذين أفتوا أنه ناكث للعهد (بعد دخوله في البيعـة للمعتمـد أول أخذه لمرسية)(١٤٥).

استغاث ابن رشيق بالأمير ابن تاشفين، فأجابه: لو كان لك حق عندي لوهبته لك، غير أنها أحكام السنة لا أستطيع إزاحتها عن مراتبها[١٤٦] وأمر بتسليم ابن رشيق للمعتمد مشترطاً له الإبقاء على حياته، كما أرسل إلى أهل مرسية يأمرهم بالرجوع إلى صاحبهم المعتمد والطاعة له، إثر توجه الراضي بن المعتمد إلى المدينة لتسلم زمام الأمور فيها بدلاً من ابن رشيق[١٤٧]. ولكن ذلك أدى إلى انسحاب الجنود التابعين لابن رشيق من الحصار. وعمد أشياع ابن رشيق الذين اعتصموا في مرسية إلى قطع ميره (التموين) عن الجيش المحاصر فدبت الفوضى في صفوفه نتيجة المجاعة، وموجة الغلاء الفاحش[١٤٨]. وقد صور الأمير عبد الله الذي اشترك في ذلك الحصار، اضطراب المعسكر الإسلامي بقوله:

ونحن أحوج ما كنا إليه للإنفاق، ولاسيما في تلك المجاعة التي عدمت فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم، فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع وطالت تلك المحنة الملعونة فإنها مثلق أبان الطبيب من الخبيث، وكشف العورات فلم يزد الرؤساء إلا توحشاً ولا الرعية إلا تسلطاً...وكانت مقدمات سؤ وزماناً على السلاطين عسيراً"[١٤٩].

كذلك خشي الأمراء أن يصيبهم ما أصاب ابن رشيق بسبب المؤامرات والدسائس التي كان يقوم بها الفقهاء،[١٥٠] فالفقيه ابن القليعي[١٥١] مثلاً: قد ثار خباؤه بتلك المحلة مغنطيساً لكل صادر ووارد[١٥٢]. وكان الفقيه القليعي قد قدم بصحبة أميره عبد الله لمنزلته عند أمير المسلمين. وكان القليعي كثير التردد على مضارب ابن تاشفين مقدماً له النصح والمشورة.

وقد أصبح القليعي بعد أن شوّر في أمر ابن رشيق مصدر تهديد لأمراء الطوائف. فقد كان يخاطب رعاياهم بأن لا يدفعوا شيئاً من مغارم الإقطاع مما سبب لهم الأذى. وقد ذكر الأمير عبد الله ما كان يقاسي منه الأمراء نتيجة لذلك بقوله: "ولقد كان القليعي في تلك المحلة يخاطب إخواننا بحضرتنا ألا يعطونا شيئاً، ويعدهم بما كان فلما كان يأتيهم

الحفز منا، ويقعدون بنا كما أكثر القليعي من الإشارة لما أصاب ابن رشيق على يديه، وأنه على استعداد للإفتاء بأمرهم" وإن جعل لنا مجلس لغيره فعلنا به مثل ذلك[١٥٣]. وكانت كلماته هذه كما قال الأمير عبد الله: "مما أوحشنا وغيرت أنفسنا عليه، مع تهديد تلك السفرة وضربه الأمثال، وجدّة معانيه واستطالة لسانه". وكان الأمراء لا يستطيعون أن يشكوه إلى الأمير ابن تاشفين دون تقديم بينة أو برهان فتكون له الحجة عليهم مما يضعف موقفهم أمام أمير المسلمين[١٥٤].

ولا شك أن الخلاف الذي نشب بين المعتمد وابن رشيق واعتماد كل منهما على المرابطين لتدعيم موقفه[١٥٥]، قد أدى لإقامة طويلة حول الحصن، وهذه الإقامة قد سمحت للتناقضات بالبروز "منها ما وقع بين الأمير تميم صاحب مالقة وأخيه عبد الله صاحب غرناطة". فقد تقدم الأمير تميم بشكوى إلى ابن تاشفين لينصفه من أخيه في الميراث الذي تركه والداهما* وكان قد ألح في طلب ذلك إثر موقعة الزلاقة وأعاد القول أثناء الحصار ولكن الأمير لم يحفل بشيء[١٥٦].

وكذلك وقع خلاف بين المعتمد والمعتصم صاحب المرية حول بعض المعاقل، ولكن الأمير لم ينظر في هذا الأمر فانفصلا دون أن يتوصلا إلى اتفاق[١٥٧].

أدت تلك الخلافات إلى زعزعة صفوف المعسكر الإسلامي وغلى فشل الحصار،[١٥٨] مما جعل ابن تاشفين يسيء الظن بالمعتمد وتساوره الشكوك في إخلاصه لحركة الجهاد*. فقد حاول أن يستغل نصر الزلاقة وأن يوجه جهود المرابطين لتحقيق مآربه الخاصة بتوجيه الحملة نحو حصن لييط ليس حباً بالجهاد ومدافعة الأسبان (النصادى)، بل ليتخلص من الغارات المستمرة التي كان يشنها فرسان ذلك الحصن على بلاده، وليتخلص من عامله ابن رشيق الذي استبد بالأمر دونه في مرسية. لذلك أدرك (أي ابن تاشفين) أنه انساق وراء أطماع المعتمد الذي تسبب في إبقاء الفرقة في صفوف المسلمين بنزاعه الخاص مع ابن رشيق وأدرك ما يرمي إليه المعتمد حين قال: "قصد ابن عباد أن يرينا صعوبة قتال الحصون المنيعة وأن بلاده ذات معاقل صعبة"[١٥٩].

لم يكن ما حصل في لييط بداية الخلاف في الرأي بين ابن تاشفين والمعتمد. بل لقد ظهر ذلك جلياً أثناء معركة الزلاقة نفسها، فقد طلب ابن عباد من أمير المسلمين ملاحقة العدو المنهزم للإجهاز عليه[١٦٠]. بينما تريث ابن تاشفين في الأمر[١٦١]. ولم يلاحق فلول الجيش خشية "أن يهلك العدو الذي من أجله استدعي فيقع الاستغناء عنه" على حد قول صاحب الروض المعطار. بينما يمكن تعليل ذلك بأن التقاليد التي يتبعها المرابطون في القتال تجعلهم يأنفون من تعقب العدو المنهزم وطعنه من الخلف وهو يولي الأدبار[١٦٢].

لذلك انسحبت القوات المشتركة في الحصار عن الحصن، خاصة بعد أن وردت الأخبار عن تقدم الفونسو بقواته لإنقاذ المحاصرين، فآثر ابن تاشفين أن ينسحب بقواته إلى لورقة،[١٦٣] بعد أن أدرك عدم جدوى الاشتباك مع الفونسو في ظل هذه الفرقة، بينما تقدم الفونسو وأنقذ من بقي في الحصن حياً. ثم عمد إلى تخريب أسواره وانسحب إلى مدينة طليطلة، دون أن يشتبك مع القوات المشتركة. وفي أثناء ذلك دخلت قوات ابن عباد إلى الحصن إثر انسحاب الفونسو منه[١٦٤].

رغم النتائج التي أسفرها الحصار، نرى الشاعر ابن حمديس[١٦٥] يمدح المعتمد ويشيد بالنصر الذي حققه المسلمون[١٦٦]، ويبدو أن ابن حمديس لا يجانب الصواب حيث اعتبر النتيجة نصراً لابن عباد، لأنه حقق أهدافه من تلك الحملة، بينما اعتبر ابن تاشفين أن فشل الحصار يعود إلى تخاذل ملوك الطوائف وتناحرهم، لذلك رفض طلب الملوك إبقاء قوات مرابطية في الأندلس لمتابعة أعمال الجهاد، كما حدث بعد انتصار الزلاقة بقوله: "أصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم"[١٦٧] ثم غادر لورقة إلى الجزيرة الخضراء، وعبر إلى العدوة المغربية عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م.

إن فشل الحصار كان نهاية لمرحلة ما يسمى توحيد الجهود أو الجبهة المشتركة لمرحلة جديدة هي مرحلة التدخل المباشر في الأندلس وإسقاط دول الطوائف.

سقوط إشبيلية بيد المرابطين:

بعد عودة ابن تاشفين إلى المغرب، رأى الفونسو أن الوقت مناسب جداً للعودة إلى سياسته القديمة الرامية إلى إضعاف دول الطوائف، كي تسقط كالثمرة الناضجة بعد أن عصفت رياح الفرقة بالقوى الإسلامية. فأرسل قائده (البرهانس) مهدداً صاحب غرناطة باحتلال وادي أش[١٦٨] إذا لم يدفع الأموال المستحقة عليه. بينما أرسل قواته لتقوم بأعمال التخريب في أملاك ابن عباد[١٦٩]. في الوقت الذي عاقد فيه صاحب سرقسطة ومن يليه من الشرق بعد أن دفعوا ما سلف له عندهم[١٧٠]. ورغم الخطر الأسباني، فقد عاد ملوك الطوائف إلى منازعاتهم القديمة وإلى حبك المؤامرات والدسائس والكيد لبعضهم البعض. ذكر الأمير عبد الله صاحب غرناطة أن أخاه تميماً صاحب مالقة أرسل إلى القاضي ابن سهل خمسين مثقالاً ليستميله إلى جانبه ليقوم بالحجة عليه، لكن ابن سهل أعرض عن ذلك[١٧١].

كما نشب خلاف بين ابن عباد وصاحب غرناطة بسبب تدخل الأخير في أمر مرسية[١٧٢]. وقد صور صاحب الذخيرة المعاصر فساد ملوك الطوائف وتنازعهم بقوله: ولم يزل ديارهم على ما ذكرت يستشري وعقارب بعضهم على بعض تدب وتسري حتى أذن الله لأمير المسلمين رحمه الله فساد سعيهم وحسم أدواء بغيهم والانتصاف لكواف المسلمين من فعلهم الذميم"[١٧٣].

ورغم فرقة الأمراء وتنازعهم فقد اتفقوا على الوقوف في وجه ابن تاشفين على حد قول ابن خلدون، فقطعوا الميرة عن جنوده ومحلاته التي تركها في الأندلس وعمدوا إلى تحصين بلادهم خشية قدومه لأخذها[١٧٤].

أما الأوضاع الداخلية لتلك الدول في تلك الفترة فقد كانت تنذر بأسوأ العواقب، نظراً للسياسة التي اتبعها أمراء تلك الدول. فقد ثار يهود مدينة أليسانة[١٧٥] وحملوا السلاح عندما فرض الأمير عبد الله صاحب غرناطة ضريبة جديدة باسم التقوية،[١٧٦] إضافة

إلى ثورة مؤمل[١٧٧] في مدينة لوشة[١٧٨] وقيام الثائر نعمان عليه في بعض الحصون ودعوته للمرابطين[١٧٩]. بينما استمرت المؤامرات التي كان يدبرها الفقهاء ضد ملوكهم منها: ماقام به القليعي، فقد أخذ يسعى لنفسه ويحيك الدسائس ضد صاحب غرناطة ويهدده بالمرابطين. فاضطر الأمير عبد الله إلى إلقاء القبض عليه وسجنه في القصر، ولكنه أرغم على إطلاق سراحه تحت تأثير والدته، ففر إلى قلعة (يحصب) من أملاك ابن عباد ثم قصد قرطبة وراسل ابن تاشفين من مقره الجديد[١٨٠]. بعد علم من عودة الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب، اتخذ قراره بتصفية ملوك الطوائف وإنزالهم عن عروشهم، وقد آثر عند ملاقاته لهم، أن يأخذ كلاً منهم على انفراد في الوقت الذي لم تنقطع المؤامرات والدسائس التي كان يدبرها الخصوم الأندلسيون للنيل من بعضهم.

عبرت القوات المرابطية البحر للمرة الثالثة في أول عام ٤٨٣ هـ/١٠٩٠م وكان هدف هذا العبور يختلف عما سبقه فهو لم يكن تلبية لدعوة من أهل الأندلس أو من أحد ملوكها، بل كان الهدف إنزال ملوك الأندلس عن عروشهم. وقد جرت عادة بعض المؤرخين[١٨١] أن يذكروا أن الأمير يوسف بن تاشفين، قد عبر البحر بنفسه على رأس هذه الحملة بعد أن اتخذ قراره بتصفية تلك الدول الضعيفة في الأندلس، إلا أنه من المستحسن مناقشة هذا الرأي قبل سرد الأحداث التي أدت إلى دخول الأندلس في دولة المرابطين.

من المعلوم أن مدينتي سبته وطنجه كانتا بمثابة مراكز أمامية هامة على حدود المرابطين الشمالية ولا يفصلها عن بلاد الأندلس سوى بحر الزقاق[١٨٢] (مضيق جبل طارق). حتى أن الجزيرة الخضراء كانت تبدو للناظرين من مدينة سبته،[١٨٣] وكان يرابط في هاتين المدينتين بعض الفرق العسكرية المدربة لتكون على استعداد لتلبية أية نداء للعبور إلى الأندلس، كما حصل عند اشتراك القوات المرابطية في معركتي الزلاقة وحصن لييط. فقد جمع ابن تاشفين الرجال والأقوات حول مدينة سبته ثم عبر

على رأس قواته إلى الأندلس[١٨٤]. ويبدو أن الأمر هذه المرة لايختلف عما سبقه. وقد نقل ابن تاشفين مقر قيادته إلى سبته[x] وطنجة ولكن كما يبدو لايعبر البحر كما فعل في السابق بل ليرقب المعركة التي ستدور رحاها على أرض الأندلس، وكي يرسل أوامره للقائد الأعلى على جناح السرعة أو ليتدخل بنفسه إذا اقتضت الضرورة.

ورغم ماذكر بعض المؤرخين عن جواز ابن تاشفين الثالث إلى الأندلس وأنه لم يغادر مدينة سبته على رأس قواته المتجهة إلى الأندلس بل أقام فيها "مترقباً لأنبائهم ومتشوقاً لما يحدث عنهم[١٨٥]".

إلا أن صاحب الحلل الموشية يذكر أن ابن تاشفين التقى بابن عباد في الجزيرة الخضراء فقدم له ابن عباد الضيافة وبالغ في إكرامه. ثم يذكر أن ابن عباد قد قدم بصحبة المتوكل بن الأفطس إلى غرناطة لتهنئة ابن تاشفين بفتح المدينة،[١٨٦] ولعل الأمر اختلط على المؤرخين، فذكروا غرناطة بدلاً من الجزيرة الخضراء التي من المحتمل أن الأمير ابن تاشفين قد قصدها من سبته، بعد أن تم لقادته فتح غرناطة ثم عاد أدراجه إلى المغرب، بعد أن اطمأن أن قادته قادرون على متابعة الفتح.

ورغم أن الأمير عبد الله صاحب غرناطة قد شهد بنفسه تلك الأحداث، فهو لم يقدم أي نص نتخذه دليلاً على جواز ابن تاشفين الثالث، بل إن الأمير عبد الله نفسه، يسوق بعض العبارات التي يفهم منها أنه لم يقابل ابن تاشفين عند سقوط غرناطة، بل أرسله قرور المرابطين إلى الجزيرة الخضراء لهذه الغاية قائلاً:

"تنتظرون بها السلطان حتى يرد عليكم" وبما أن تلك المقابلة لم تتم أرسل صاحب غرناطة إلى سبته بعد أن قيل له: "فيها تنتظرون الأمير[١٨٧]". لهذا كله نرى أنه من الأرجح أن يكون الأمير ابن تاشفين قد أقام في مدينة سبته، أثناء تنفيذ مخططه الرامي إلى إسقاط ملوك الطوائف.

غادرت القوات المرابطية مدينة سبته[١٨٨] وعلى رأسها عدد من أعلام قواد المرابطين: كسير بن أبي بكر وأبي عبد الله بن الحاج وجرور الحشمي وأبي زكريا

بن واسينوا... وقصدت هذه القوات أرض الأندلس بعد أن احتلت جزيرة طريف[١٨٩]. وتظاهر قائد المرابطين أنه متجه نحو مدينة طليلة للجهاد ولم يكشف عن أهدافه الحقيقية. ولم يشارك أمراء الطوائف في هذه المسيرة لأن ابن تاشفين لم يطلب منهم المشاركة كما فعل في المرات السابقة[١٩٠]. ولعل قائد المرابطين كان يهدف من توجيه قواته إلى تلك المدينة إيقاع الذعر في صفوف القوى المعادية ومنعها من أن تقدم العون لأي من أمراء الطوائف. بعد ذلك اتجهت قوات المرابطين نحو غرناطة دون أن تشتبك في معركة حاسمة مع القوات الإسبانية[١٩١]. وكان الأمير عبد الله صاحب غرناطة قد أيقن أن أمير المسلمين ابن تاشفين لن يتركه، خاصة بعد أن علم بما يقوم به من تشييد الحصون وشحنها بالمقاتلة والعتاد[١٩٢].

وقد برر الأمير هذه السياسة بقوله: (ليس من الممكن أن يتعرض أمير المسلمين أحداً من سلاطين الأندلس إلا بعد إبرامه لأمر الرومي، ولابد عند مناظرتهم من فرج، أن غلب المرابط لم يفتأ الدخول في طاعته، ولا أسدينا إليه ما تذم عاقبته أكثر من الاحتياط على بلادنا والمداراة عليها، فلا الحمار سقط ولا الزق انخرق. وإن غلب الرومي كنا منه على حذر ــ وقد نفعنا ماأبرمناه من هذا البنيان والتشييد، فسيكون بذلك حماية وإنجاز إلى غير إذ البنيان مع المرابطين لاينفع[١٩٣]. لكن الأمير بعد ذلك على حد زعمه، على مساعدة الفونسو، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فدفع له جزية ثلاث أعوام سبقت من ماله الخاص[١٩٤] خوفاً من أن تثور الرعية، وتكون مقدماتها بمركوش -مراكش- شاكون "أخذ أموالنا وأعطاها للنصارى[١٩٥]".

وقد قبل الفونسو المال والهدايا التي أرسلها صاحب غرناطة[١٩٦] وأقسم بجميع أيمانه أن يشد اليد عليه في ملكه وأن ينهض إليه بنفسه ويبذل جهده في نصره[١٩٧]. وقد زعم الأمير كذلك أنه خاطب المعتمد بن عباد وأعلمه بجلية الأمر مع الفونسو وحذره من انتقامه[١٩٨].

كما كاتب أمير المسلمين ابن تاشفين وصرح له مادفعت إليه الضرورة من مصانعة

الفونسو. وقد وصل جواب ابن تاشفين إلى الأمير الزيري محذراً من عاقبة مداخلته مع الروم بقوله "أما مراهنتك وقولك الباطل، قد علمناه وسنعلم عما قريب كيف ترضى الرعية، وما تصنع إذ زعمت أنك نظرت لها. ولاتسوّف فإن هذا قريب غير بعيد(١٩٩)".

لم يقنط الأمير عبد الله واستمر يراسل ابن تاشفين وبين له أن مابلغه عنه إنما هو من تدبير ابن القليعي وابن مسكن "فإنهم لاينقلون إلا على شهواتهم".

كذلك ساء ظن المعتمد بن عباد بالأمير عبد الله عندما عاث ألفونسو ببلاده في الوقت الذي سلمت فيه بلاد الأمير الزيرى(٢٠٠). وقد برر الأمير عبد الله هذا الأمر فيما بعد بأنه لو أراد التعاون مع النصارى لم يصل المرابطون إلى سبته إلا ومدينة غرناطة مملوءة منهم(٢٠١).

وكان ابن تاشفين قبل أن تعبر قواته البحر من سبته إلى الأندلس قد وافته رسل صاحب غرناطة (القاضي ابن سهل وباديس بن وار وابن تلكاته) يرحبون به ويعدونه بالمشاركة في أعمال الجهاد(٢٠٢). وقد اجتمع قائد المرابطين فور وصوله إلى قرطبة بالمعتمد بن عباد وسأله عما لهج به الناس في أمر صاحب غرناطة ثم أرسل إلى صاحبها الأمير عبد الله على لسان ابن تاشفين أن "أقبل إلينا ولا تتأخر ساعة واحدة(٢٠٣)".

لم يلب الأمير عبد الله دعوة ابن تاشفين وأرسل وفداً اعتذر عن عدم تمكنه من الحضور، فقرّع الأمير ابن تاشفين الوفد وأمر بإلقاء القبض على أفراده قائلاً: "إني غزوته كما تغزو الفونس، والذي يقدر عليه فليصنع(٢٠٤)".

بعد ذلك اتجهت القوات المرابطية قاصدة غرناطة وفي الطريق إليها فتحت مدينة اليسانة أبوابها للمرابطين. أما بقية المعاقل والحصون "فتناثرت كلها انتثار العقد" ووصلت طلائع الجيش إلى مدينة غرناطة وبقيت حاميات مرابطية في الحصون التي

سقطت بيدهم لحراستها. وقد طلب الأمير ابن تاشفين من صاحب غرناطة أن يخرج إليه وأن يتخير من بلاده مكاناً ينزل فيه[٢٠٥]. وذلك في ١٣ رجب عام٤٨٣ هـ[٢٠٦].

أيقن الأمير عبد الله استحالة المقاومة خاصة الحالة داخل المدينة[٢٠٧] تنذر بالسوء[٢٠٨]، لذلك خرج من المدينة للقاء ابن تاشفين بعد أن كتب له الأمان[٢٠٩] وحمل إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى سبته ومنها نقل إلى مكناسة الزيتون[٢١٠](x).

بعد ذلك استولى المرابطون على دولة مالقة ولم يشفع لصاحبها تقربه من المرابطين وإنه أول من ضرب الدراهم المرابطية في الأندلس. فأخذت المدينة فجأة وكبل صاحبها، ثم نفي إلى مدينة السوس في المغرب[٢١١]. وبذلك دخلت غرناطة ومالقة في دولة المرابطين.

كان ابن تاشفين قد وعد المعتمد بن عباد أن يعطيه غرناطة وقال له: "أنا رجل مغربي وليس قدمني أخذ مال ولا بلاد! ونتوقع عليها من الرومي. وليس غرضي أكثر من تخليصها فإذا صارت في يدي، ولايمكنني إمساكها لبين بلاد الأندلس من العدوة، وضعتها عند ذلك في يدك[٢١٢].

وكان هذا من حسن السياسة لأن غرناطة (ليست مما تؤخذ في وقفة واحدة). كما أمل ابن عباد فتبقى المعاقل التي طاعت لابن تاشفين بيده وينصرف المرابطون إلى بلادهم[٢١٣]. لذلك لم يحرك ابن عباد ساكناً لنصرة غرناطة وكذلك فعل صاحب المرية فقد أبهتهم أمرها وأقلقهم[٢١٤]. وكان الأمير عبد الله صاحبها قد خاطب ملوك الطوائف مستغيثاً بهم "فاليوم به وغداً بهم" أجابوا "إنما تريد أن تلطخنا بأفعالك، ونحن برأنا الله منها[٢١٥]".

عندما لم يعد ابن تاشفين غرناطة لابن عباد[٢١٦]، أدرك اللعبة وأيقن أنه التالي. وخاطب صاحبه الأفطس أن ينج بنفسه. مشيراً إلى ما حل بصاحب غرناطة [٢١٧]. وعندما طلبه الأمير ابن تاشفين للاجتماع به ماطل في الأمر. واستخدم الحكمة في

جوابه قائلاً: "إن ذلك كان وقت كنت ضيفاً وتريد الغزو، فلزمتني معونتك بنفسي وجميع أموالي والآن إنما أنت لي جار مثل باديس وحفيده وأنت أقدر مني على الشر بجنودك فلا يمكنني التغرير بنفسي عسى أنك تريد أخذ بلدي، إذ لاتصلح لك غرناطة إلا بما يضاف إليها من الأندلس[٢١٨]".

أيقن ابن عباد أن ابن تاشفين لن يتركه بعد الآن. فأرسل إلى الفونسو يستغيث به وهي كانت علة الجميع على حد قول الأمير عبد الله، حتى أنه زوج الفونسو زايدة[٢١٩] المسلمة (ابنته أو زوج ابنه المأمون) عربوناً على حسن النية، وكانت بعض القلاع التابعة لابن عباد قد سقطت بيد المرابطين، وأخذت رعية ابن عباد إلى الفونسو، فأجابه ابن عباد بأنه لو فعل ذلك قبل أن تؤخذ بلاده لكان يلام عليه "وأما بعد أني رأيت طلبي في الروم، اضطرتني الضرورة إلى ذلك للمدافعة ولو يوماً واحداً[٢٢٠]".

استشار ابن تاشفين الفقهاء في أمر ابن عباد فأفتوا بغزوه[٢٢١]. وأسندت مهمة الاستيلاء على إشبيلية للأمير سير بن أبي بكر وقد رأى الأخير أنه من الأفضل إحكام الطوق على المعتمد عن طريق اقتحام المدن والحصون التابعة لمدينة إشبيلية أولاً ثم ضرب الحصار عليها (إشبيلية) حتى تسقط بيده.

اتجهت القوات المرابطية قاصدة أملاك المعتمد، واحتلت أولاً، طريف أقصى ثغور مدينة إشبيلية الجنوبية وذلك في شوال عام ٤٨٣ هـ/ديسمبر ١٠٩٠م ونادى الأمير سير فيها بدعوة أمير المسلمين ابن تاشفين[٢٢٢].

أما القائد جرور الحشمي[٢٢٣]. فقد اتجه بقواته إلى مدينة رندة بناء على التعليمات التي تلقاها من القائد الأعلى سير بن أبي بكر. وقد أحكم جرور حصار المدينة التي كان يدافع عنها الأمير الراضي (يزيد بن المعتمد بن عباد،[٢٢٤] ولكنه لم يستطع فتحها لأنها كانت من أمنع القواعد الجنوبية التابعة لدولة إشبيلية. وقد استطاع الراضي الصمود في داخل المدينة فاضطر القائد المرابطي أن يقنع بالحصار منتظراً سير

المعارك في الجبهات الأخرى[٢٢٥]. وفي هذه الأثناء كانت قوة مرابطية أخرى، علـى رأسها القائد بطي بن إسماعيل قد زحفت على مدينة جيان وضربت حواليها الحصار.

هنا يذكر ابن الخطيب، أنه في أثناء الحصار قدم جيش من قشتاله أرسـله ألفونسـو لإنجاد مدينة جيان تنفيذاً للاتفاق المعقود بينه وبين ابن عباد. وقد دارت بين الطرفيـن معركة عنيفة أبيد فيها المرابطون. بيد أن صاحب روض القرطاس قـد أورد روايـة أخرى تقول أن بطي بن إسماعيل، حاصر مدينة جيان حتى دخلـها صلحـاً. وكتـب الأمير سير بن أبي بكر إلى ابن تاشفين يخبره بفتح المدينة[٢٢٦].

بعد فتح مدينة جيان طلب الأمير سير من القائد بطي بن إسماعيل[٢٢٧]. التوجه بقواتـه نحو قرطبة. وقد زحفت القوات المرابطية وضربت الحصار حول المدينة المذكـورة وكان الفتح الملقب بالمأمون ولد المعتمد بن عباد[٢٢٨]، الذي أسندت إليه مهمة الدفـاع عن المدينة، كان قد اتخذ كافة الاحتياطات الممكنة للدفاع عن المدينة، وأرسل زوجـه وأولاده وأمواله إلى الحصن المذكور القريب من أملاك صاحب قشتاله، تحسباً لما قـد تنجلي عنه الأحداث، فيكون باستطاعته الالتجاء إلى الحصن المذكور ليلـوذ بحمايـة الفونسو في الوقت المناسب[٢٢٩].

شدد القائد المرابطي الحصار علىالمدينة، خاصة بعد أن سقطت بيده القلاع والحصون المحيطة بها. والواقع أن المدينة لم تستطع الصمود طويلاً أمام المرابطين كمـا قـال دوزي[٢٣٠]. وبروفنسال[٢٣١] لأن أهل المدينة لم يقاوموا سوى مقاومة طفيفة واستطاع المرابطون دخول المدينة.

وقد تصدى المأمون للمرابطين الذين دخلوا المدينة بمداخلة من بعض أهلها، كما ذكـر الأمير عبد الله.[٢٣٢] وقد قتل المأمون خلال الهجوم والسلاح في يـده مدافعـاً عـن مدينته، فرفع المرابطون رأسه على رمح، كما قتل معه في تلك المرة وزيـراه ابـن زيدون وابن أبي بكر[٢٣٣]. في الوقت الذي انتزعت فيه قرطبـة انتزاعـاً[٢٣٤]، يـوم

الأربعاء ٣ صفر من عام ٤٨٤ هـ الموافق ٢٦ مارس سنة ١٠٩١م كما ذكر ابن الخطيب(٢٣٥). وابن أبي زرع(٢٣٦). ووافقها بروفنسال ودوزي الذي عاد إلى كل المصادر العربية التي ذكرت تاريخ بني عباد.

بعد سقوط قرطبة، استطاع المرابطون الاستيلاء على أبدة وبياسة وشقورة في شرقي قرطبة وسقط في يدهم كذلك حصن البلاط والمدور في غرب المدينة، كما بعث فاتح قرطبة حملة مؤلفة من ألف فارس إلى قلعة رباح فسقطت في أيديهم. وهكذا سيطر المرابطون على سائر أراضي الوادي الكبير، وعلى سائر قواعد مملكة إشبيلية ماعدا رندة وقرمونة وإشبيلية. لذلك قرر الأمير سير بن أبي بكر منازلة مدينة قرمونة(٢٣٧). التي تعتبر من أمنع قواعد إشبيلية الشمالية، وقد استطاع دخول المدينة عنوة في السابع عشر من ربيع الأول /١٠أيار سنة ١٠٩١م وأخذ يستعد لمنازلة إشبيلية.

حاصر الأمير سير مدينة إشبيلية بقوات ضخمة. وكان يعتقد عندما كلف بهذه المهمة كما ذكر صاحب روض القرطاس ووفيات الأعيان أن ابن عباد سيلقاه خارج إشبيلية مرحباً ويقدم له الضيافة والإكرام كما جرت عليه العادة في المرات السابقة(٢٣٨). ولكنه أحجم عن ذلك بالطبع وأخذ يحصن المدينة ويستعد للمعركة المرتقبة مع المرابطين. وقد راسل الأمير سير ابن عباد وطلب منه الدخول في طاعة أمير المسلمين، وتسليم البلاد دون قتال. وعندما لم يوافق ابن عباد على تلك الشروط، اقتحمت القوات المرابطية أملاك ابن عباد واحتلت المدن التي سبق الحديث عنها. وكان ابن عباد قد أرسل إلى الفونسو يستغيث به ويعده بإعطاء البلاد وبذل الطارف والتلاد إن كشف عنه ماهو فيه من الحصار(٢٣٩). وقد اشتد الأمر على ابن عباد بعد سقوط مدينة قرطبة، التي كان يأمل أن تصمد في وجه المرابطين، وكان قد أوصى ابنه المأمون قائلاً:"لاتجزع فالموت أهون من الذل وليس السلطان إلا من القصر إلى القبر(٢٤٠)".

ولكن المعتمد رفض تسليم المدينة وقرر الدفاع عن ملكه وخاصة بعد أن بلغه الفونسو قد قرر مساعدته للحيلولة دون وقوع مملكة إشبيلية بيد المرابطين، وأرسل كذلك حملة كبيرة على رأسها (البارهانيس) الذي يعتبر من كبار قادته وأبرعهم. وتذكر الروايات الاسلامية أن تلك الحملة كانت تتألف من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل[٢٤١].

وعندما علم الأمير سير بقدومهم انتخب من جيشه (عشرة آلاف فارس) وقدم عليهم إبراهيم بن اسحاق اللمتوني وقد التقى الجمعان بالقرب من حصن المدور[٢٤٢]. ودارت بين الطرفين معركة عنيفة فقد فيها المرابطون خيرة فرسانهم، ولكنهم تمكنوا في النهاية من انتزاع النصر[٢٤٣].

وصلت هذه الأنباء لأسماع ابن عباد في الوقت الذي أضرم فيه الخصوم نار الثورة داخل المدينة، كما عمل بعضهم على تخريب سور المدينة وأحدثوا ثغرة فيه عند باب الفرج بالقرب من النهر، مما سمح لثلة من المرابطين الدخول إلى المدينة. وعندما علم المعتمد بذلك، خرج لتوه مسرعاً لسد تلك الثغرة والقضاء على الجنود الذين تسللوا منها، وقد قاتل المعتمد مع مرافقيه الشجعان قتال الأبطال[٢٤٤]. وجرح في المعركة لأنه لم يكن يرتدي ما يدفع به عن جسمه واستطاع في النهاية القضاء على من تسلل من جند المرابطين. وقدر لابن عباد أن يشهد في نهاية ذلك اليوم مأساة مدمرة. فقد استطاع المرابطون الوصول إلى أسطول إشبيلية الراسي في الوادي الكبير وأضرموا فيه النار فاحترقت معظم سفن الأسطول، فاستولى الفزع على سكان المدينة وأخذوا يترامون من شرفات الأسوار على حد قول ابن بسام[٢٤٥]. وجاءت الضربة القاصمة الأخرى من ناحية الوادي الكبير[٢٤٦]. وهو أسهل الأماكن لاقتحام المدينة على حد قول الأمير عبد الله[٢٤٧]. فقد استطاع المرابطون الدخول إلى المدينة من تلك الجهة، ودارت في شوارع المدينة معارك ضارية بين المقتحمين وأنصار ابن عباد في الوقت الذي تصدى فيه ابن عباد لقوة مرابطية على أبواب قصره "مدافعاً عن ذاته، وذاباً عن

حرماته. وظهر يومئذٍ من بأسه ومن تراميه على الموت بنفسه مالايزيد لبشر عليه، ولايتناهى لخلق عليه" على حد قول ابن بسام[٢٤٨]. وقد ظل ابن عباد شاهراً حسامه حتى قتل ابنه مالكاً بين يديه فسلم سلاحه بعد أن أمن على نفسه وأهله وولده[٢٤٩]. شريطة أن يقنع ولديه الراضي والمعتمد بتسليم رندة الحصينة وميرتلة (مارتلة) التي امتنعت على المرابطين. وقد لعبت زوجة المعتمد (اعتماد الرميكية)[٢٥٠]. دوراً بارزاً في إقناع الأميرين على التسليم إبقاء على حياة والديهما المعتمد. وقد قبل الأميران بالأمر الواقع واستجابا لندائها.

وهكذا سقطت مدينة إشبيلية بعد عام كامل من سقوط مدينة غرناطة إلا أن المؤرخين اختلفوا حول كيفية سقوط المدينة وتاريخ السقوط.

ذكر ابن بسام وهو من المعاصرين في معرض حديثه عن ابن عباد: "دخل البلد على المعتمد يوم الأحد الموافق في عشرين من رجب"[٢٥١]. ووافقه في ذلك ابن الخطيب[٢٥٢]. بينما وضع الأمير عبد الله[٢٥٣]. (وكان منفي في المغرب في تلك الفترة) لذلك يوم الأحد ٢٢ رجب. أما عبد الواحد المراكشي[٢٥٤]. فقد اتفق مع المؤرخين السالفين الذكر في اليوم ولكنه ذكر أنه يوافق الواحد والعشرين من رجب وهذا ماذكره الشاعر ابن اللبانة (محمد بن عيسى الداني) وهو شاهد عيان لتلك الأحداث. فقد قال في كتابه (**نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العادية**): "إلا أن كان يوم الأحد الحادي والعشرين من رجب فعظم الخطب في الأمر الواقع واتسع الخرق على الراقع ودخل البلد من جهة واديه"[٢٥٥]. ولوعدنا إلى الروايات غير الإسلامية لوجدنا أنها تضع لذلك يوم (٧ سبتمبر عام ١٠٩١م) وهو الموافق ٢٢ رجب. في الوقت الذي أجمع فيه المؤرخون[٢٥٦]. على أن إشبيلية سقطت عنوة بيد المرابطين بعد قتال عنيف. وينفرد صاحب روض القرطاس[٢٥٧]. برواية تدل على أن المعتمد سلم المدينة دون قتال. وقد ذكر ابن الأثير هذه الرواية أيضاً وهذا ما ينفيه الشاعر ابن اللبانة بقوله:

"ودخل البلد ... بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه، وترامیه علی المـوت بنفسه، مالا مزيد عليه، ولا انتهى خلق إليه ...[٢٥٨]". وهذا ما أكده ابن بسام مبيناً حالة إشبيلية أثناء اقتحامها:

"ثم التوت بالمعتمد الحال أياماً يسيرة بحضرة إشبيلية قد استولى عليهم الفزع، وخامرهم الجزع يقطعون سبلها سياحة، ويخوضون نهرها سباحة، ويترامون من شرفات الأسوار ويتولجون مجابي الأقذار حرصاً على الحياة وحذراً من الوفاة، وكان يوم الأحد الموفى عشرين رجب المؤرخ، دخل البلد على المعتمد بعد أن جد الفريقان واجتهدت الفئتان في النزال"[٢٥٩]. كذلك وصف ابن خاقان دفاع إبن عباد عن عاصمته بقوله: "ولما انتشر الداخلون في البلد....خرج (أي المعتمد) والموت يستعر في ألحاظه ويتصور من ألفاظه وحسامه يعد بمضائه ويتوقد عند انقضائه، فلقيهم في رحبة القصر...فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقاً، وملاتهم فرقاً..."[٢٦٠].

كذلك أكد الأمير عبد الله أن إشبيلية أخذت بعد قتال عنيف، ويستشهد بما قاله فاتحها الأمير سير بن أبي بكر الذي أعجب بقتال المدافعين وبسالتهم: "فلما أخذت قرطبة، انقطع الرجاء، وضاقت إشبيلية، ونفذ ما كان بيده من أجل النفقات إلى أن دخلها الأمير سير عنوة بمداخلة من بعض أهلها، وهلك فيها عالم وانكشف الحرم إذ للجيش معرة لاتملك بعد صبرهم على ملكهم. وظهر لسير من اجتهادهم في القتال ما أعجبه، وقال: "لو أني أقصد مدينة الشرك، لم تمتنع هذا الامتناع[٢٦١]. كذلك ذكر ابن الأثير*. نقلاً عن مصادر أندلسية أن مدينة إشبيلية لم تستلم للمرابطين "ولم يزل الحصار دائماً، والقتال مستمراً إلى العشرين من رجب، فعظم الحرب ذلك اليوم، واشتد الأمر على أهل البلد، ودخله المرابطون من واديه، ونهب جميع ما فيه، ولم يبقوا على سبد أو لبد، وسلبوا الناس ثيابهم، فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم وسبيت المخدرات، وانتهكت الحرمات".

وهكذا سقطت عاصمة بني عباد بيد المرابطين ودخلت دولـــة إشـــبيلية فـــي دولـــة المرابطين ونفي أميرها ابن عباد(٢٦٢) إلى المغرب فنزل مدينة مكناسة ثم نقـــل إلـــى أغمات حيث كانت وفاته فيها(٢٦٣).

إن النهاية المأساوية لابن عباد وآل بيته لم تكن كذلك بالنسبة إلى مدينة شبيلية لأنـــها ستلعب دوراً هاماً في ظل المرابطين والموحدين من بعدهم وسيتمحور حولها تـــاريخ الأندلس والمنطقة في العديد من الأحداث الجسيمة التي وقعت فـــي شـــبه الجزيـــرة الإيبيرية.

الحواشي

١- انظر عن تلك القوى المتصارعة سقوط الخلافة: أحمد بدر، **تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري** (عصر الخلافة) دمشق ١٩٧٤، ص٢٢٤-٢٤٧.

٢- محمد المراكشي ابن عذارى، **البيان المغرب**، تحقيق كولان وبروفنسال وتعليق إحسان عباس في الجزء الرابع، باريس (١٩٢٩-١٩٤٨)، بيروت، ١٩٦٧/ ج٣، ص١٥٢ سأشير له باسم المؤلف. لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني ابن الخطيب، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، نشر بروفنسال بيروت ١٩٥٦، ج٢، ص١٣٩-١٤٧. عبد العزيز سالم، **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس**، بيروت، ١٩٦٢، ص٣٦٣ **وعصر الخلافة**، ص٢٢٣.

٣- انظر عن هذه الدول، **التاريخ الأندلسي**، عبد الرحمن الأندلسي، بيروت، ص٣٢١-٤١٦.

٤- لم يكن لأي واحد من الملوك ما يعتمد عليه من أساس شرعي لإبقاء ولاء الرعية وطاعتها، مما جعل الاعتماد على القوة لا مفر منه في حفظ السلطان. وهذه القوة لا يمكن جمعها من جنود مواطنين خوفاً من تمردهم وعصيانهم. لذلك لجأ ملوك الطوائف إلى استخدام الجنود المرتزقة وانظر عن ملوك الطوائف:

Anwar G. **Chejne Muslim Spain** (1874), P.50 watt, P 92-94

٥- بلغ عدد الدويلات التي ظهرت في الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية (٥٠) دويلة لكن أكثر هذه الدويلات لم تتجاوز مدينة أو عدة قرى، وانظر عن سياسة ملوك الطوائف :

Anwar G. **Chejne Muslim Spain** (1874), P.50 watt, P 90-94

٦- انظر عن دولة بني عباد في إشبيلية: علي بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨، القسم الثاني، المجلد الأول ص١٣ وما بعد فسأشير إله (بالذخيرة) و **Anwar G. Chejne Muslim Spain, its History**, and Culture P.50.. **Muslim Spain**, P 58-62

٧- انظر عن دولة بني هود في سرقسطة: **ابن عذارى**، ج٤، ص٥٣-٥٥ و**Muslim Spain**, P 61-63.

٨- انظر عنهم **Muslim Spain**, P 61-63 .

٩- ليفي بروفنسال، **الإسلام في المغرب والأندلس**، الترجمة العربية، مراجعة لطفي عبد البديع، القاهرة، ١٩٥٦، ص١٢٠-١٥٠ وكذلك مجلة **(Hesperis)** مجلد ١٢، سنة١٩٣١، ص٢٣-٢٩.

١٠- انظر: **R. Menedez Pidai la Espana del Cid** الطبعى الأولى، ج١، ص٢٨١ وحاشية رقن ٣.

11- Dozy: **Histoire des Muslumans d'Espagne**.

١٢- بروفنسال، **المرجع السابق**، ص١٤١ وما بعدها: **Muslim Spiain**, P63-64.

١٣- انظر عن الأحداث التي مهدت لقيام دولة بني زيري في غرناطة: عبد الله بن زيزي، **مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان**، نشر وتحقيق بروفنسال، دار المعارف بمصر، ص١٦ وما بعدها، **Muslim Spain**, P 65-66.

١٤- راجع عن نشاط مدينة المرية التجارية: محمد بن عبد الله بن ادريس، **صفة الأندلس (من نزهة المشتاق)** تحقيق دوزي خويه، أمستردام، طبعة مصورة ١٩٦٩، ص ١٩٧، سأشير إليه بـ (صفة الأندلس) الروض المعطار، ص١٨٤.

١٥- **مقدمة ابن خلدون**، ج٢، ص٧٥١-٧٥٢.

١٦- **ابن عذارى**، ج٣، ص٢٨١.

١٧- **المكتبة الصقلية (ليبزج)**، ١٨٨٧، ج١، ص٨٦٠، وانظر أحمد توفيق المدني، **المسلمون في أوربا في العصور الوسطى**. القاهرة، المجلد ٤، العدد ١، ١٩٥١م.

١٨- **التبيان**، ص٧٣.

١٩- عبد الملك بن الكردبوس التوزري، **الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد، ١٩٧١، ص٨٨.

٢٠- **التبيان**، ص٧٣.

٢١- انظر التفاصيل في **التبيان**، ص٦٩-٧٦ .

٢٢- **ابن عذارى**، ج٣، ص٢٣٨.

23- (**Abbadidarum** 2-16).

24- (**Abbadidarum** 2:19-20).

٢٥- أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق ولدي المؤلف، الدار البيضاء، ج٢، ص٣٢.

٢٦- **التبيان**، ص٧٣.

٢٧- انظر فيما يختص بالكونت ششند: Sismund, David R. M. Pidal Esp. وكذلك الفصل الذي عقده فين بيدال مع غرسيه بعنوان: Elconde delcid المنشور في **مجلة الأندلس** (Al-Andalis) مجلد ١٢ سنة ١٩٤٧، ص٢٧-٤١ وفي المقالة ترجمة لفقرات من الذخيرة، خاصة بالدور الذي لعبه الكونت المذكور.

٢٨- وكانت تدفع لألفونسو كضريبة سنوية مقدارها خاضع للمساومة وتأثر بحال الرضى والغضب تحصل من الرعية تواً في أغلب الأحيان. ففي بعض

السنوات فرض الفونسو على عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة مبلغ عشرة آلاف دينار، كما فرض على مفيد ابن ذي النون مائة وخمسين ألف مثقال طيبة وخمسمائة مدى طعام له ولجنوده كل ليلة يقيمها، انظر التفاصيل في (التبيان)، ص٧٦-٧٧.

٢٩- الضريبة المفروضة لدفع مرتبات الجند، هي في الأحوال العادية (جزية) على الرؤوس تسمى (القطيع) وتؤدي مشاهرة، وضريبة على الأموال من الغنم والبقر والدواب...قبالات كل ما يباع في الأسواق. أما نفقات الحروب الداخلية فيكفي أن نذكر أن المظفر بن باديس أنفق لأخذ وادي آش ستة بيوت من المال دراهم ثلثية في البيت الواحد منها مليون دينار ثلثية، انظر **التبيان**، ص٥٦.

٣٠- ذكر الأمير عبد الله أن هذيل بن رزين صاحب السهلة قد دفع في شراء قينة حاذقة ثلاثة آلاف دينار. ولما تنازل الأمير عبد الله ليوسف بن تاشفين عن أمواله كانت كما ذكر بنفسه مقادير جسيمة....انظر (**التبيان**) ص١٥٦-١٥٨، كذلك أورد ابن بسام في الذخيرة، تفاصيل عن الترف في قصر المأمون بن ذي النون، وساق وصفاً طويلاً لابن حيان نقلاً عن الأديب الذي شهد بنفسه أعذار (ختان) حفيد المأمون...انظر: **الذخيرة**: ج٤، القسم الرابع، المجلد ١، ص١٢٨-١٤١، والمقري في نفح الطيب، ج٢، ص٦٧٣.

٣١- **التبيان**، ص ٧٣.

٣٢- انظر رسالة **ابن حزم** (الرد على ابن النغريلة اليهودي)، ص١٧٣-١٧٧.

٣٣- انظر: **Asin Palacios** و**أعمال الأعلام**، ص٢١٨.

٣٤- **التبيان**، ص ٧٣.

٣٥- **التبيان**، ص ٧٣.

٣٦- مجهولة المؤلف، **الحلل الموشية في ذكرى الأخبار المراكشية**، تونس ١٣٢٩هـ، ص٢٥ أعمال الأعلام، ج٢، ص٢٣٠.

٣٧- شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمـــان**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٦، ج٢، ص١٨٦. سأشير بـ (وفيـــات الأعيان) ابن الأثير الجزري (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد)، الكامل في التاريخ، بيروت١٩٦٥، ج٢، ص٥٧. سأشير إليه بـ (الكامل). نفح الطيـب، ج٢، الذخيرة القسم الرابع، المجلد الأول، ص١٦٣٧.

٣٨- **ابن عذارى**، ج٣، ص٢٣٨، **التبيان**، ص ٧٣، **الاستقصاء**، ج٢، ص٣٣.

٣٩- **الذخيرة**، القسم الرابع، المجلد الأول، ص١٦٣٠-١٦٩.

٤٠- **وفيات الأعيان**، ج٢، ص١٨٦.

٤١- **الذخيرة**، القسم الرابع، المجلد الأول، ص١٢١، ابن أبي زرع (أبو الحسم علي بن عبد الله)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبـــار ملـوك المغـرب وتاريخ فاس**، الربـــاط، ١٩٧٢، ص١٤٣، الاستقصاء ج٢،ص٣٢، دوزي، **ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام**، القاهرة١٩٣٣، ص٢٦٨-٢٦٩.

٤٢- **الروض المعطار**، ص٨٦.

٤٣- **المصدر السابق**، ص٨٥.

٤٤- ابن حمديس الصقلي، تحقيق د. إحسان عبـــاس، بـيروت، ١٩٦٠، ص٣٣٧، **التبيان**، ص٧٢.

٤٥- **الاستقصاء**، ج٢، ص٣٧-٣٨.

٤٦- **وفيات الأعيان**، ج٥٦، ص١١١-١١٢.

٤٧- مجهول، **مفاخر البربر**، تحقيق بروفنســـال، ص٥٢، صبــح الأعشـى، ج٥، ص١٨٩، روض القرطاس، ص١٣٣، بينما ذكر فريق آخر من المؤرخيـن أن دخول أغمات كان سنة ٤٥٠هـ انظر **الحلل الموشية**، ص١٢، ابن خلـدون، ج٦، ص١٨٣.

٤٨- **صبح الأعشى**، ج٥، ص١٨٧، أحمد ابن القاضي المكناس، **جذوة الاقتباس في**

ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، ص٥٢، بينما ذكر صاحب جامع تواريخ فاس أن فتح المدينة قد تم عام ٤٦٠هـ وهذا خطأ لأن هذا التاريخ الذي ذكره هو تاريخ فتح المدينة في الحملة الثانية التي وجهها المرابطون ضد المدينة التي تمردت على سلطانهم إثر فتحها للمرة الأولى عام ٤٥٥هـ، **جامع تواريخ فاس**، طبع بالرم سنة١٨٧٨، ص٢٠.

٤٩- مفاخر البربر، ص ٤ **البيان المغربي، ابن عذارى**، ج٢، ص٢٤٠.

٥٠- راجع عن وضعها الاستراتيجي **كتاب الروض المعطار** للحميري.

٥١- طنجة، مدينة بالمغرب (من المدن القديمة) على ساحل البحر، فيها آثار كبيرة للأول، وقصور وأقباء..وبين طنجة وسبتة ثلاثون ميلاً في البر والبحر نصف مجرى، وتعرف طنجة بالبربرية (وليلي) افتتحها عقبة بن نافع...) انظر البكري، ١٠٨-١٠٩، **الروض المعطار**، ص٣٩٥ **الاستقصاء**، ص١٣٨، **ابن الوردي**،، ص١٤.

٥٢- غمارة، من شعب مصموده من البربر البرانس، سموا باسم والدهم: عمار بن مصمود وتزعم العامة أنهم عرب غمروا في الجبال فسموا غمارة، وهم في الواقع شعب متميز كانت مواطنه الأصلية على سيف البحر الأبيض المتوسط من حد بلاد الريف إلى المحيط الأطلسي، ثم تمتد على السهول الغربية حيث تصل تامنا حيث مواطن برغواطه في القديم، وقد انحسرت هذه المواطن فصارت لا تتعدى الجبل المعروف بغمارة الواقع شمال المغرب الأقصى شمال مدينة شفشاون من قبائل غمارة، بني زجل وبني زياب، وبني خالد، وبني سلمان،...، انظر **روض القرطاس**، ص٢١٣، **هامش رقم ١٣٤**.

٥٣- **روض القرطاس**، ص١٤١ ويذكر أنه (في سنة ستين وأربعمائة فتح يوسف جميع بلاد غمارة، وجبالها من الريف إلى طنجة) وفي (سنة خمس وستين غزا يوسف بن تاشفين مدينة (الدمنة) من بلاد طنجة فدخلها عنوة وفتح جبل

علودان)، **روض القرطاس**، ص١٤٢.

٥٤- راجع عن أخباره **الذخيرة**: قسم٢، مجلد٢، ص٦٥٧، **ابن عذارى**، ج١، ص٢٥٠، **أعمال الأعلام**، ص١٤١، **روض القرطاس**، ص١٤٢-١٤٣، **ابن خلدون**، ج٦، ص٢٢١-٢٢٢.

٥٥- سكوت: يرد هذا الاسم على صوز عديدة: سيقات، سكات، سقوط، سكوت، وهي الأشهر انظر: **مجلة تطوان**، العدد (١١)، سنة١٩٧١، مقالة بقلم المستشرق الأسباني الأستاذ خواكين فاليه برميخو (ترجمة عبد اللطيف الخطيب).

٥٦- ورد على المعتضد بن عباد ذات يوم كتاب من (سكوت) صاحب سبته يقول له فيه: إن طلائع المرابطين عسكرتِ في رحبة مراكش، فاهتم لهذا النبأ حتى قال له أحد وزرائه (كيف يزعجك يا مولاي هذا النبأ ويقلقك وبيننا وبينهم المهامة الغبر وأمواج البحر الخضر) فقال المعتضد بصوت مختنق حزين: "إني على يقين من أنهم سيصلون إلينا يوماً ما وربما تشهد بنفسك هول ذلك اليوم، فاكتب من فورك إلى حاكم الجزيرة، وأمره أن يزيد في تحصين جبل طارق، وأن يكون شديد اليقظة، وعلى تمام الأهبة والاستعداد وأن يراقب عن كثب كل حركة لأولئك المرابطين من وراء المجاز" ثم أخذ يصعد بنظره في بينة ويقول: "ليت شعري من منا ستحل النكبة به أنتم أم أنا" فقال المعتمد: "لا بل أنا جعلني الله فداك الذي أحمل عنك كل كائنة مهما عظمت"، انظر **الذخيرة**: القسم٢، مجلد١، ص٤٠-٤١.

٥٧- انظر ما أورده ابن بسام عن هذا الخلاف في **الذخيرة**، قسم٢، مجلد٢، ص٦٥٩، وانظر **الاستقصاء**، ج٢، ص٣٠، **وابن خلدون**، ج٦، ص٢٢١، ومابعدها.

٥٨- **الذخيرة**: قسم٢، مجلد٢، ص٦٦٠-٦٦١.

٥٩- **روض القرطاس**، ص١٤٢.

٦٠- **روض القرطاس**، ص١٤٢، **مفاخر البربر**، ص٥٤، **الذخيرة**، قسم٢، مجلد٢، ص٦٦١.

٦١- **روض القرطاس**، ص١٤٣، **ابن خلدون**، ج٦، ص٢٢٢.

٦٢- يذكر صاحب **روض القرطاس** أنه: "لما تواترت الكتب على يوسف بالاستصراخ لنصرة المسلمين ونفي العدة عن مختنق بلادهم بعث ولده المعز إلى سبته في جيش عظيم، فترلها وحاصرها حتى فتحها"، تبين هذه الرواية أن ابن تاشفين فتح مدينة سبته تلبية لدعوة المسلمين في الأندلس لكي يجوز لهم البحر إليهم بينما تدل مجريات الأمور أنه كان يعد العدة لفتح المدينة وقبل ذلك وحتى لو لم تصله الدعوة الضرورية لذلك، **روض القرطاس**، ص١٤٤.

٦٣- يذكر صاحب **روض القرطاس** إنه: "من الاتفاق العجيب أن أنشأ المعتمد سفينة ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين بعد العهد بمثلها...كأنما بناها على الماء صرحاً ممرداً...ووجها على مدينة طنجة لتختار، ولما رأى أمير المسلمين تلك السفينة، خاطب المعتمد في ذلك فشحنت على سبته موتاً ذريعاً وأقامت إزاء أسوارها حصناً منيعاً. فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين قدم أمير المسلمين لقتال سبته أسطولاً فخماً ولقيه العز بن سكوت ببقية جمة من أسطول طالما أوسع البلاد شراً وملأ أهلها ذعراً، فكان لأول ذلك اليوم ظهور على أسطول المرابطين..وغضب أمير المسلمين...، وتقدمت تلك السفينة (أي سفينة المعتمد) حتى أطلت على أسوارها ورفعت صوتها ببوارها، وأفضت بدولة صاحب سبته إلى سوء قرارها، ليلة الجمعة من صفر المؤرخ، **الذخيرة**، قسم٢، المجلد٢، ص٦٦٣. وانظر ما قاله السلاوي نقلاً عن ابن الأثير والحميري عن استعداد ابن تاشفين للعبور **الاستقصاء**، ج٢، ص٣٥.

٦٤- **روض القرطاس**، ص١٤٤.

٦٥- **نفح الطيب**، ج٦، ص١٨٤، **صبح الأعشى**، ج٥، ص١٨٩.

٦٦- **الروض المعطار**، ص٨٣.

٦٧- ابن **خلدون**، ج٦، ص١٨٤، **صبح الأعشى**، ج٥، ص١٨٩.

٦٨- **الروض المعطار**، ص٨٣.

٦٩- انظر فتح المرابطين لمدينة سجلماسة وغيرها في **روض القرطاس**، ص١٢٨، **ابن عذارى**، ج٤، ص١٣، **وأعمال الأعلام**، ص٢٢٩.

٧٠- **روض القرطاس**، ص١٤٤.

٧١- **الحلة السيراء**، ج٢، ص٩٨، **ابن عذارى**، ج٣، ص٢٥٠، **وفيات الأعيان**، ج٧، ص١١٣-١١٦.

٧٢- راجع ما ذكره ابن بسام في **الذخيرة**، قسم٢، المجلد٢، ص٦٥٧ وما بعدها.

٧٣- انظر **الأسطول المرابطي ومشاركته في أعمال الجهاد وحماية الطرق البحرية في الرحلة التيجانية** لمؤلفه التيجاني من أعيان القرن الثامن الهجري وانظر **المكتبة الصقلية**، ص٢٨٢-٢٨٣، **وابن عذارة**، ج٤، ص٦٧.

٧٤- **الروض المعطار**، ص١٨٤.

٧٥- راجع ما ذكره الحميري والسلاوي عن إنشاء السفن والمراكب للعبور إلى الأندلس (**الروض المعطار**، ص٨٣، الاستقصاء، ج٢، ص٥٣) ويبدو أن وسائل العبور لم تكن مهيأة.

٧٦- راجع ماذكره الأمير عبد الله في كتاب **التبيان** وما كتبه ابن بسام في الذخيرة.

٧٧- **التبيان**، ص١٠٢.

٧٨- **الكامل** (بيروت، ١٩٦٦)، ج١٠، ص١٥١، **أعمال الأعلام**، ج٢، ص٢٤٥.

٧٩- في **نفح الطيب** روى المقرى نقلاً عن ابن الأثير: "تخوف أكابر الأندلس من الاذفونش وأنه اجتمع منهم رؤساء وساروا إلى القاضي..."، ج٦، ص٩٣.

٨٠- **الكامل**، ج١٠، ص١٥١-١٥٢.

٨١- **المصدر السابق**، ص١٥٢.

٨٢- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

٨٣- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

٨٤- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها، الاستقصاء، ج٢، ص٤٠.

٨٥- **الحلة السيراء**، ج٢، ص٩٨-٩٩، **ابن عذارى**، ج٣، ص٢٥٠، **وفيات الأعيان**، ج١، ص١١٣-١١٦، **أعتاب الكتاب**، ص٢٢٣ **التبيان**، ص١٠٣.

٨٦- **الكامل**، ج١٠، ص١٥١.

٨٧- **التبيان**، ص١٠٣.

٨٨- **المصدر السابق**، ص١٠٢.

٨٩- **التبيان**، ص١٠٢.

٩٠- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

٩١- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

٩٢- محي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٩١.

٩٣- **الروض المعطار**، ص٨٧، **روض القرطاس**، ص٨٧.

٩٤- **الروض المعطار**، ص١٠٣.

٩٥- **التبيان**، ص١٠٣، **روض القرطاس**، ص٨٧.

٩٦- **التبيان**، ص١٠٤.

٩٧- **نفح الطيب**، ج٢، ص١٧٧٩.

٩٨- الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) **بغية الملمس في تاريخ أهل الأندلس مدريد** ٨٨٤، ص٣١.

٩٩- **التبيان**، ص٤٠.

١٠٠- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

١٠١- راجع عن مغادرة القوات المشتركة إشبيلية باتجاه بطليوس: **الحلل الموشية**،

ص٣٩، **التبيان**، ص١٠٤، **روض القرطاس**، ص١٤٦، **أعمال الأعلام**، ج٢، ص٢٤٦، وج٣، ص٢٤٢.

١٠٢- معركة الزلاقة خارجة عن موضوع البحث لأنها ترتبط بالعلاقات مع الأسبان كما أنها تتطلب مصادر خاصة، انظر **الروض المعطار** في خبر الأخطار.

١٠٣- يذكر بعض المؤرخين: كالنويري (**نهاية الأرب**، ج٢٢، ص١) أن معركة الزلاقة قد جرت في الأيام العشرة الأولى من شهر رمضان سنة ٤٧٧هـ، على حين نجد أن ابن خلدون (**العبر**) ج٦، ص١٨٦، يقول: إنها حدثت في سنة ٤٨١هـ، ويبدو أن ابن خلدون قد خلط بين الجواز الأول لابن تاشفين والجواز الثاني، أما بقية المؤرخين فيجمعون على أن معركة الزلاقة قد حدثت في سنة ٤٧٩هـ في شهر رجب...،انظر **بغية الملتمس**، ص٣١، **الحلل الموشية**، ص٤٦، **الحلة السيراء**، ج٢، ص٦٢٠، **الكامل**، ج١، ص٦٣، **جامع تواريخ فاس**، ص٣٠.

١٠٤- وفي ذلك يقول الشاعر ابن اللبانة:

يوم العروبة كان ذلك الموقف		وأن شهدت فأين من يستوصف؟

وقال أبو جهور:

لم تعلم إذا جاءت مصممة		يوم العروبة إن اليوم للعرب

روض القرطاس، ص١٥١.

١٠٥- روى صاحب روض القرطاس أن المعتمد بن عباد ثبت في المعركة وأبلى بلاء حسناً، وجرح ست جراحات، وفي ذلك يقول مخاطباً بعض ولده:

أبا هاشم هشمتني الشغار		فلله صبري لذا لك الأوار

ذكرت شخيصك ما بينها		فلم يثنيني ذكره للفرار

روض القرطاس، ص١٥١-١٥٢،و: ديوان المعتمد، ص٤٨، والذخيرة: قسم٢، المجلد١، ص٧٣.

١٠٦- روض القرطاس، ص٩٩.

١٠٧- انظر عن الكمبيادور وعلاقته بالمسلمين، الحلة، ج٢، ص١٢٥، ابن عذارى، ج٤، ص٣١، ليفي بروفنسال الإسلام في المغرب والأندلس، ص١٦٠، كذلك Pidal: the Cid and His. Spain London1954, P245.

١٠٨- نفح الطيب، ج٢.

١٠٩- الحلل الموشية، ص٥٤-٦٢.

١١٠- المصدر السابق، ص٦٠-٦١، وفي الحلة السيراء (١٨ ألف بين خيل ورجل)، ج٥، ص١٧٤-١٧٥.

١١١- روض القرطاس، ص٩٩.

١١٢- روض القرطاس، ص٩٨.

١١٣- أبو بكر محمد بن عمار، انظر ترجمته في الذخيرة، قسم٢، المجلد١، ص٤٠٥، الحلة السيراء، ج٢، ص١٣١، أعمال الأعلام، ص١٦٠، النفح، ج١، ص٩٥٢، رايات المبرزين، ص٢٥، الشذرات، ج٣، ص٣٥٦، الجزيرة، ج٢، ص٧١، بغية الملتمس، رقم ٢٤٧.

١١٤- التبيان، ص٨٠، وهو (عبد الرحمن بن رشيق، كما ذكر ابن الأبار)، الحلة، ج٢، ص١٣١.

١١٥- التبيان، ص ٧١-٦٩، و ٧٩-٨٢، الذخيرة: قسم٢، المجلد١، ص٤١٧.

١١٦- قال ابن بسام:كان القبض على ابن عمار بشقورة يوم الجمعة لست بقين لربيع الآخر سنة سبع وسبعين، الذخيرة، قسم٢، المجلد١، ص٤١٧، أعمال الأعلام، ص١٦٠.

١١٧- **الذخيرة**، قسم٢، المجلد١، ص٤٣١-٤٣٢.

١١٨- **التبيان**، ص٨١.

×- **الحلة السيراء**، ج٢،، الصفحة ١٧٤-١٧٥.

119- Gaspary Remiro: **Muslumana**. P. 134.

١٢٠- **الحلة السيراء**، ج٢،، الصفحة ١٧٤-١٧٥.

١٢١- **التبيان**، ص١٠٨.

١٢٢- **الحلل الموشية**، ص٤٧-٤٨.

١٢٣- **أعمال الأعلام**، ج٣، ص٢٤٩.

١٢٤- **الحلة السيراء**، ج٢،، الصفحة ١٧٤-١٧٥.

١٢٥- ذكر حسين مؤنس محقق كتاب **الحلة السيراء** أن عبور ابن تاشفين الثـاني في ربيع أول من عام٤٨١هـ/١٠٨٨م، انظر **الحلة**، ج٢، ص٨٦، هامش رقم (١).

١٢٦- **الحلل الموشية**، ص٥٥.

١٢٧- **التبيان**، ص١٠٨، **الحلل الموشية**، ص٥٥-٥٦.

١٢٨- **الحلل الموشية**، ص٥٥.

١٢٩- **أعمال الأعلام**، ص١٨٦، **الحلل الموشية**، ص٥٥، **التبيان**، ص١٠٨، ابـن الخطيب، **الإحالة في أخبار غرناطة**، تحقيق عنـان، دار المعـارف بمصـر، ص١٥٤.

١٣٠- **الحلل الموشية**، ص٥٥، قسم١، المجلد٢، ص٧٣٣، قال ابن بسـام: "ولمـا أهابوا بأمير المسلمين وناصر الدين...، دخل ابن صمادح في غمارهم، ومشى على آثارهم، فخرج عن المرية إلى لبيط يجر جيشاً، لا تتأبى الطير عدوتـه، ولا يتوقع العدو وطأنه".

١٣١- **الحلل الموشية**، ص٥٤-٦٢.

١٣٢- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

١٣٣- **روض القرطاس**، ص٩٩.

١٣٤- **أعمال الأعلام**، ص١٨٦.

١٣٥- **التبيان**، ص١٠٩.

١٣٦- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

١٣٧- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

١٣٨- **المصدر السابق**، ص١١٠.

١٣٩- **التبيان**، ص١١٠.

١٤٠- **المصدر السابق**، ص٨١.

١٤١- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

١٤٢- **المصدر السابق**، ص١٤٤.

١٤٣- **المصدر السابق**، ص١١٢، **الحلل الموشية**، ص٥٤-٦٢.

١٤٤- **المصدر السابق**، ص١١١.

١٤٥- **التبيان**، ص١١٢.

١٤٦- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

١٤٧- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها، **الحلل الموشية**، ص٥٤-٦٠.

١٤٨- **التبيان**، ص١١٠.

١٤٩- **التبيان**، ص١١٠.

١٥٠- **الحلل الموشية**، ص٥٦، **أعمال الأعلام**، ص٢٩٥. **التبيان**، ص١١١، وص١١٤.

١٥١- انظر ترجمة في **الإحاطة**، ج١، ص١٥٤-١٥٦.

١٥٢- **التبيان**، ص١٠٩.

١٥٣- **التبيان**، ص١١١.

١٥٤- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.

١٥٥- المصدر السابق، ص١١٠-١١٢.

١٥٦- المصدر السابق، ص١١٣.

١٥٧- التبيان، ص١١٣.

١٥٨- المصدر السابق، ١١٢-١١٣، الحلل الموشية، ص٦٢.

159- Dozy: **Abbadidarum,volm** 11, P,g..

١٦٠- الروض المعطار، ص٩٣.

١٦١- الحلل الموشية، ص٤٩.

١٦٢- البكري، المغرب، ص١٦٦.

١٦٣- روض القرطاس، ص٩٩، الحلل الموشية، ص٥٦.

١٦٤- التبيان، ص١١٢-١١٣، روض القرطاس، ص٩٩.

١٦٥- سبقت ترجمته.

١٦٦- ديوان ابن حمديس، ص١٦٤.

١٦٧- التبيان، ص١٢٢.

١٦٨- التبيان، ص١٢٣.

١٦٩- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.

١٧٠- المصدر السابق، ص١٢٢.

١٧١- المصدر السابق، ص١١٦.

١٧٢- المصدر السابق، ص١٤٤-١٤٥.

١٧٣- الذخيرة.

١٧٤- ابن خلدون، ج٦، ص١٨٧.

١٧٥- مدينة أليسانة (Lucenna) أو اللسانة تقع شمال غربي لوشه بولاية غرناطة،

انظر: الأدريسي: **المغرب وأرض السودان والأندلس**، (تحقيق دوزي)، ص٢٠٥.

١٧٦- **التبيان**، ص١٣٠-١٣٢.

١٧٧- انظر ترجمته ومحنته على يد الأمير عبد الله في **مخطوط الاسكوريال** رقم ١٦٧٣/ص ١٩١-١٩٩، وفيه نقل ابن الخطيب عن ابن الصوفي.

١٧٨- **المصدر السابق**، ص١٣٦-١٣٨.

١٧٩- **المصدر السابق**، ص١٣٩.

١٨٠- **الإحاطة**، ج١، ص١٥٤-١٥٦، **التبيان**، ص١٢٨.

١٨١- **أعمال الأعلام**، ج٣، ص٢٥٠، **الحلل الموشية**، ص٥٤-٦٠، **روض القرطاس**، ص٩٩.

١٨٢- **ابن عذارى**، ج٤، ص١٢١.

١٨٣- **الروض المعطار**، ص٣٠٣.

١٨٤- **ابن خلكان**، ج٣، ص٣١، **النويري**، ج٢٢، ص١٨٤.

× - وذكر ابن الأثير نقلاً عن مصادر أندلسية (ابن اللبانة) ما يلي: "فلما أراد أمير المسلمين ملك الأندلس سار من مراكش إلى سبته، فأقام بها، وسير العساكر مع سير ابن أبي بكر وغيره إلى الأندلس". **الكامل**، ج١٠، ص١٨٩.

١٨٥- **الحلل الموشية**، ص٥٤-٦٢.

١٨٦- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

١٨٧- **التبيان**، ص١٦٠.

١٨٨- **وفيات الأعيان**، ج٢، ص١٣١، **نهاية الأرب**، ج٢٢، ص١٨٢.

١٨٩- **المعجب**، ص٨٨.

١٩٠- **روض القرطاس**، ص٩٩، التبيان، ص١٤٦.

١٩١- **روض القرطاس**، ص٩٩.

١٩٢- **التبيان**، ص١٢٠.

١٩٣- **التبيان**، ص١٢٠.

١٩٤- **التبيان**، ص١٢٥.

١٩٥- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

١٩٦- قال ابن عذارى: "أول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين صاحب غرناطة عبد الله بن بلقين، فنظر في اختزان الأقوات، وألحق الرماة والرجال، وأعلى الأبراج، وبنى الأسوار، ووصل بعضها ببعض، وأقام عليها الديابانات، ونصب الرعادات، وملأ بيوت السلاح، وجد في ضرب السهام وبذل في ذلك جهده....، ونقل المال والذخيرة، وخرج المتاع والآنية إلى قصبة المنكب لكونها في غاية المنعة وعلى ضفة البحر، ... وهدم حصونا، توهم عليه القيام منها..."، انظر الملحق الأول في كتاب **التبيان**، ص٢٠٦-٢٠٧، (من **مخطوطة مكتبة جامع القرويين بفاس**) رقم (١٨٥٥).

١٩٧- **التبيان**، ص٢٠٧، وفي ذلك يقول السمساري:

صانع غرناطة سيفه	وأعلم الناس بالأمور
صانع أذفونش والنصارى	فانظر إلى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافاً	لطاعة الله الأمير
دعوه يبني فسوف يدري	إذا أنت قدره القدير

انظر **التبيان**، ص٢٠٧.

١٩٨- **التبيان**، ص١٢٧.

١٩٩- **التبيان**، ص١٢٧.

٢٠٠- **المصدر السابق**، ص١٢٨.

٢٠١- **المصدر السابق**، ص١٢٨-١٢٩.

٢٠٢- **المصدر السابق**، ص١٤٦.

٢٠٣- **المصدر السابق**، ص١٤٧.

٢٠٤- **التبيان**، ص١٤٧.

٢٠٥- **التبيان**، ص١٤٩.

٢٠٦- **بغية المتلمس**، ص٣٢.

٢٠٧- تختلف الروايات في كيفية استيلاء المرابطين على المدينة، فالبعض يقول باستيلاء المرابطين عليها بطرقة الغدر والحيلة، انظر: **الكامل**، ج١٠، ص٥٣، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٤٠، **نفح الطيب**، ج٢، ص٥٣٣، والبعض يقول أنهم استولوا عليها عنوة، راجع **ابن خلدون**، ج٦، ص١٨٧، وفي **روض القرطاس**، ص١٠٠، أنه استولى عليها الأمان، وفي **الحلل الموشية**، ص٥١، أن صاحبها قد سلمها من تلقاء نفسه وهذا مطابق لما جاء في مذكرات الأمير عبد الله نفسه في كتاب (**التبيان**)، ص١٥٤-١٦١، وانظر ذلك W.M. Watt: p.99.

٢٠٨- راجع أحوال المدينة...**التبيان**، ص١٥٠-١٥١.

٢٠٩- قال ابن الخطيب: "اجتمع إلى حفيد باديس (أي عبد الله) صنائعه، فخوفوه من عاقبة التربص وحملوه على الخروج إليه، وركب وركبت أنه، وخرجا، وتركا القصر على حاله ولقي أمير المسلمين على فرسخين من المدينة، فترجل وسأله العفو، فعفا عنه"، **مخطوط الاسكوريال** رقم (١٦٧٣)، ص٢١٤.

٢١٠- راجع عن استسلام الأمير عبد الله ونهب أمواله ونفيه، **التبيان**، ص ١٥٤-١٤٦، كذلك **أعمال الأعلام**، ص٢٣٥، ويبدو أن الأمير عبد الله نقل بعد ذلك إلى مراكش، كما ذكر ابن الخطيب، واستقر بها هو وأخوه تميم، وكان سنه يوم خلع خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر.

× – وذكر ابن الخطيب أن أهل غرناطة خرجوا للقاء المرابطين ولمبايعة ابن تاشفين،

"فقبلهم وأنسهم وسكن جانبهم ورفع أنواع القبالات والخراج التي لا يقرهـا الشـرع، انظر: **مخطوط الاسكوريال**، رقم ١٦٧٣، ص٢١٤.

٢١١- **التبيان**، ص١٦٢-١٦٣.

٢١٢- **التبيان**، ص١٦٥.

٢١٣- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

٢١٤- **المصدر السبق**، والصفحة ذاتها.

٢١٥- **المصدر السابق**، ص١٦٦.

٢١٦- عن أثر سقوط غرناطة على المعتمد وآل بيته ينقل إبن الأثير عن أبي بكـر عيسى بن اللبانة قوله: "كنت عند الرشيد بن المعتمد في مجلسه...فجرى ذكـر غرناطة، وملك أمير المسلمين لها، فلما ذكرناها تفجع، وتلهف، واسـترجع..."، **الكامل**، ج١٠، ص١٨٨.

٢١٧- **التبيان**، ص١٦٩.

٢١٨- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

٢١٩- هذه قضية خلافية جداً، كما أنها خلافية أكثر من ناحية زمن ونوع الـزواج، يقول بروفنسال: ليس هناك في الحقيقة نصيب كبير من الصحة للرأي القـائل بأن زوجة الفونسو السادس المسلمة كانت قد عقدت زواجها في أثنـاء حيـاة زوجها الأول (المأمون بن المعتمد بن عباد)، ثم إن الزواج لم يكن شـوعياً، إذ أن الفونسو كان متزوجاً في هذه الفترة منذ (١٠٨٠م) وللمرة الثانيـة بالملكـة (كونستانس) أرملة كونت ديسا CHALON –SUR- SAONE وابنـة روبـر ROBERT دون دوق برجوني BOURGONE وابنـة أخ روبـر الصـالح ROBERT PIEUX ملك فرنسة. ماتت كونستانس فـي بدايـة عـام١٠٩٣م ودفنت في ساهاجون وكانت قد أنجبت ابنته (أراكة) التي تزوجت ريمـون دي بورجني ثم الفونسو المحارب وفي نفس هذا العام تـزوج الفونسـو السـادس

(ALPHONSO LE BATALLEUR) بعد عهد قصير من الملكة بيرت (BERTHE) التي ماتت بدورها في سنة (١١٠٠م)، انظر رامون مندث بيدال، أسبانية في عهد السيد (ط١، ص٢٧٢،٤٤٨،٧٧٨)، كذلك أورد بيدال في كتابه (قشتالة التقاليد واللغة) مجموعة AUSTRA مدريد، بونس ايرس، ١٩٤٥م، ص٩٥-١٣٩، ما يلي: "...إن ذلك الحماس الديني الذي أوهم المعتمد الناس به قاصداً من ذلك ألا يدع هناك مجالاً لتدخل أمير المرابطين، كان موقفاً قد فات أوانه في اللحظة التي حدثت فيها قصة اتخاذ الفونسو السادس (زايدة) خليلة له...وليس من الطبيعي في هذا الموقف افتراض أن زايدة وقد تصرفت من هواها (وهو أمر في حد ذاته لا يقبله العقل خاصة إذا صدر من امرأة مسلمة) وأنما المعتمد نفسه هو الذي دبر هذا الأمر ولم يكن الإخلال بأحكام الإسلام الذي فشا في هذه الأسرة الملكية عملاً انفردت به الأميرة الأرملة، وإنما كان عملاً سياسياً قام به المعتمد....وكان وقت إذ قد امتلأ صدره غيظاً على مظهر المرابطين الزائف وعدوانهم له حرص على أن يحظى بتعاون فعلي من الفونس بأس ثمن رغبة في الدفاع عن إشبيلية) وانظر كذلك: مجلة HESPERIS سنة ١٩٣٤م، ص١-٨، ج١٨، وكذلك ص٢٠٠-٢٢٠، تحت عنوان (زايدة المسلمة كنة المعتمد) وانظر كتاب **أسبانيا في عهد السيد** ط١، ص٧٧٧.

٢٢٠- **التبيان**، ص١٦٩.

٢٢١- **ابن خلدون**، ج٦، ص١٨٧-١٨٨، **التبيان**، ص١٦٩.

٢٢٢- **المعجب**، ص٧٥.

٢٢٣- جرور احمشي: وذكر الأمير عبد الله أن جرور قد (ظفر بالراضي، وخدعه، وحصل على أمواله، ثم قتله، خوفاً من أن تفتضح تلك الأموال، وقيل أن ذلك لم يكن على رأي السلطان، وأمر بقتل من ظفر به في رندة المذكورة من

الأحرار والجند المقاتلين) انظر: **التبيان**، ص١٧١.

٢٢٤- انظر ترجمته في **الحلة السيراء**، ص٦٢، وكتاب **دوزي عن بني عباد**، ج٢، ص٥٧ت(٨٨)، وكان يزيد (أبو خالد الملقب بالراضي) قد ولى الجزيرة الخضراء لوالده وكان بها عندما عبرت جيوش ابن تاشفين البحر لملاقاة ملك الروم (الاذفونش) وقد قتله قرور اللمتوني غدراً برلاندة بعد أن سلمه البلد، قال ابن الأبار: كان شاعر بني عباد بعد أبيه..وكان من الأهل العلم والأدب، عالماً بأنساب العرب وأيامهم..".

٢٢٥- **التبيان**، ص١٧١، وانظر الملحق(٣) في **البيان المغرب**، ج٤، ص١٤٤، حيث نقل ابن عذارى عن صاحب الحلل الموشية.

٢٢٦- **روض القرطاس**، ص١٠٠.

٢٢٧- في رواية صاحب الحلل (أبو عبد الله بن الحاج) **الحلل الموشية**، ص٥٩-٦٢.

٢٢٨- أبناء المعتمد أربعة وهم: الرشيد، المأمون، والراضي، والمؤتمن (أو المعتمد بالله) انظر المراجع المذكورة في كتاب بروفنسال (**النقوش العربية في أسبانية**) (طبعة-ليون باريس)، ١٩٣١، ص٤١، (IINSCRITION, ARABES DE ESPAGNA).

٢٢٩- **روض القرطاس**، ص١٠٠.

٢٣٠- **DOZY: Histoire Des Musulmans D 'Espagne** (طبعة ليون، ١٩٣٢)، ج٣، ص١٤٨، (الطبعة الجديدة).

٢٣١- **الإسلام في المغرب والأندلس**، ص١٦٠.

٢٣٢- **التبيان**، ص١٧٠.

٢٣٣- **المصدر السابق**، والصفحة ذاتها.

٢٣٤- **HISTOIRE DES MUSULMANS, 148** و**الإسلام في المغرب**

والأندلس، ص١٦٠.

٢٣٥- **أعمال الأعلام**، ص١٦٢، بينما في ذكر في **الإحاطة**، ج٢، ص٧٣، أن سقوط المدينة كان في جمادى الآخرة، عام٤٨٤هـ.

٢٣٦- **روض القرطاس**، ط-، الرباط١٩٧٢، ص١٥٤-١٥٥.

٢٣٧- **التبيان**، ص١٧١.

٢٣٨- **وفيات الأعيان**، ج٣، ص٤٨٧.

٢٣٩- **أعمال الأعلام**، ص١٦٣، **روض القرطاس**، ص١٥٥.

٢٤٠- **التبيان**، ص١٧٠.

٢٤١- **روض القرطاس**، ص١٥٤-١٥٥، تحدث ابن الأثير أيضاً عن هذا العون القشتالي فقال: وكانت الفرنج قد سمعوا بقصد عساكر المرابطين بلاد الأندلس، فخافوا أن يملكوها ثم يقصدوا بلادهم، فجمعوا فأكثروا، وساروا ليساعدوا المعتمد، ويعينوه على المرابطين، فسمع سير بن أبي بكر، تقدم المرابطين بمسيرهم، ففارق إشبيلية وتوجه إلى لقاء الفرنج، فلقيهم، وهزمهم، وعاد إلى إشبيلية فحصرها..."، **الكامل**، ج١٠، ص١٨٩-١٩٠.

٢٤٢- في رواية أخرى في (بلمة) من احواز إشبيلية (**أعمال الأعلام**، ص١٦٣).

٢٤٣- **روض القرطاس**، ص١٥٥، **أعمال الأعلام**، ص١٣٦، **الكامل**، ج١٠، ص١٩٠.

٢٤٤- **الذخيرة**، قسم٢، المجلد١، ص٥٣، **الكامل**، ج١٠، ص١٨٩.

٢٤٥- **المصدر السابق**، ص٥٦.

٢٤٦- **الكامل**، ج١٠، ص١٩٠.

٢٤٧- **التبيان**، ص١٧٠.

٢٤٨- **الذخيرة**، قسم٢، المجلد١، ص٥٣.

٢٤٩- **التبيان**، ص١٧١، **الذخيرة**، ص٥٦-٧٥.

٢٥٠- هي: الرمكية: نسبة لمولاها رميك ابن الحاج، ومنه ابتاعها المعتمد في أيام أبيه المعتضد، وكان مفرط الميل إليها حتى تلقب بالمعتمد لينتظم اسمه حروف اسمها، وهي التي أغرت سيدها بقتل أبي بكر بن عمار لذكره إياها في هجائه المعتمد..." **الحلة السيراء**، ج٢، ص٦٢.

٢٥١- **الذخيرة**، قسم٢، المجلد١، ص٥٦.

٢٥٢- **أعمال الأعلام**، ص١٦٤.

٢٥٣- **التبيان**، ص٧٧.

٢٥٤- **المعجب**، ص٧٧.

٢٥٥- رواية ابن اللبانة في **نفح الطيب**، ج٢، ص٤٥٢.

٢٥٦- **ابن خلدون**، ج٦، ص١٩٠-٢٤٨، ابن الخطيب في **أعمال الأعلام**، ص١٦٣-١٦٤، والأمير عبد الله في **التبيان**، ص١٧٠، وابن خاقان في **القلائد**، ص٢١-٢٢.

٢٥٧- **روض القرطاس**، ص١٦٦، **الكامل**، ج١٠، ص١٩٠.

٢٥٨- **نفح الطيب**، ج٢، ص٤٥٣.

٢٥٩- **الذخيرة**، قسم٢، المجلد١، ص٥٦.

٢٦٠- **قلائد العقبان**، ص٢٢، (في ترجمة المعتمد)

وينقل ابن بسام ما قاله المعتمد أثناء ذلك:

لما تماسكت الدموع ... وتنبه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة ... فليبد منك لهم الخضوع
وألذ من طعم الخضوع ... على فمي السم النقيع
وأن تستلب عني الدنيا ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع
قد روت يوم نزالهم ... ألا تحصنني الدروع

وبـــرزت ليـــس ســـوى   القميـص علـى الحشاشـي دفـوع
وبذلـت نفســي كـي تسـيل   إذا يســيل بــها النجيـع
مـا سـرت قـط إلـى القتـال   وكـان مـن أملـي الرجـوع

الذخيرة، قسم٢، المجلد١، ص٥٦.

٢٦١- **التبيان**، ص١٧٠، **الكامل**، ج١٠، ص١٩٠.

٢٦٢- قال ابن خاقان: "وحمل في السفين، وأحل في العدوة محـل الدفيـن، تتبـذه منابره وأعواده، ولا يدنو منه زواره ولا عواده" **القلائـد**، ص٢٣-٢٤، وقـد صور المعتمد نفسه ما آل إليه وما آلت إليه بناته من جوع وفقر في ديوانـه، ص١٠٠-١٠١:

فيما مضى كنت بالأعيـاد مسـروراً   فجاءك العيد فـي أغمـات مأسـور
ترى بنـاتك فـي الأطمـار جائعـة   يغزلـن للنـاس لا يملكـن قطمـيراً

٢٦٣- قال ابن بسام: ووافاه حمامه بعد مرض شديد أصابه، وكانت وفاته في ربيـع الأول سنة٤٨٨هـ، وكان مولده في ربيع الأول سنة٤٣١هـ، "ومـن النـادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب، بعد عظيم سلطانه وجلالة شأنه"، **الذخيرة**: قسم٢، المجلد١، ص٥٧، وراجع **كتاب دوزي عن بني عبـاد: (HISTORIA ABBADIDORUM (LIDEN, 1840))** وفيه جمـع دوزي ما جاء عنهم في المصادر العربية.

الدولة والحضارة عند ابن خلدون

الدكتورة منيرة محمد
قسم: الدراسات الفلسفية والاجتماعية
جامعة دمشق

الدولة والحضارة عند ابن خلدون

كثرت الدراسات وتعددت الآراء التي تناولت بالبحث والدراسة فلسفة ابن خلدون (٧٣٢هـ -٨٠٨هـ، ١٣٢٢-١٤٠٦م) وآراءه بجوانبها المختلفة، ومع ذلك فإن تلك الفلسفة وهذه الآراء ما تزال موضع اهتمام الباحثين والدارسين، يجدون في ثناياها ما يستحق الوقوف عنده، وما يثير لديهم ملكة التفكير والبحث والتأمل.

وإن كنا نروم النظر هنا في جوانب معينة من فلسفته، فإننا لا نرمي أو الأخذ الكامل بمجمل ما تضمنه ذلك، بل النظر في مواضع بحث ومواطن تأمل فيها، كانت لها جدتها وأصالتها وخصوصيتها ضمن التكوين الفكري الشامل لتراثنا الفكري وحضارتنا العربية. وبالانطلاق من قضية كون العلاقة بين ماضينا والحاضر (هي علاقة تطور تاريخي تشكل محتواه من وحدة التقطع بين التغيرات الكمية والتغيرات على مجرى الكيفية على مجرى الحركة الدائبة للتاريخ)[1]. ومن رغبة لنا في معرفة كيفية استجابة ذلك وتوظيفه لما فيه النهوض وإعادة الحياة في نفوسنا والواقع. وذلك (من خلال رؤية الحاضر في حركة صيرورة تتفاعل داخلها منجزات الماضي وممكنات المستقبل تفاعلاً دينامياً تطورياً فاعلاً، رغم التقطع الحادث في مجرى حرمة الصيرورة هذه. سواء كان هذا التقطع داخلاً في طبيعة الوحدة الديالكتيكية لهذا المجرى، أم كان من نوع التقطع القسري الطارئ)[2].

ولعل من أبرز مواطن الجدة والأصالة التي تنبهت لها قريحة ابن خلدون، رؤيته الفلسفية-التاريخية الشاملة، لعلاقة الدولة والحضارة بمختلف جوانبها في مرحلة كانت فيها الدولة-والحضارة-العربية تعيش عصراً من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وتعاني من واقع حال ركود وتدهور طبع الحياة العربية بمختلف جوانبها تقريباً بطابع السكون واللافاعلية، بسبب غياب حركة الفعل الحضاري العربي الجامع

لثمار الوعي والطبيعة والمجتمع، وتشهد أيام انحسار إشعاعها الحضاري الذي رفدت به الفكر الإنساني الذي عبّر عن نفسه (بذلك التناغم الرائع بين الوجود الميتافيزيقي والكون المادي الطبيعي والجغرافي واللغة العربية والوعي الإنساني الذي حالت حالة الانهيار العام من استمراره)(٣).

فقد توقف ابن خلدون بوعي ووضوح كاملين عند طبيعة العلاقة بين الدولة والحضارة، في ماهيتها وطبيعة النشأة، ومراحل التقدم والنهوض وأسباب القوة والازدهار، ودواعي التراجع والانهيار. وبحث بتأمل وتبصر كبيرين في أحوالها، ومختلف شؤونها ومسائلها مستهدفاً الوقوف على طبائعها وعناصرها الداخلية-الذاتية والموضوعية-الخارجية، وما تؤدي إليه من وظائف في حياة الأفراد والجماعات، وما ينجم عن ذلك من ظواهر وأوضاع في مختلف جوانب حياة الدول والحضارات، متقصياً ذلك من خلال مسيرة الوطن العربي في دوله وحضاراته، من موقع عمله ورحلاته وأسفاره، ومن خلال ما قرأه عن كثب، في بطون الكتب والأسفار، عن أوضاع دول وحضارة ذلك العالم، وأوضاع دول الحضارات من (عاصرهم من الأمم والمشاهير كالنبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط والروم والترك والإفرنجة)(٤).

وهو رجل سياسة وفكر، نهل من كنوز الفكر العربي ومن كنوز غيره، وسبر أغوار دنيا السياسة والحياة الاجتماعية. ولم ينفصل عن الإطار العام الاجتماعي-التاريخي للعصر الذي عاش فيه(٥)، لا بل (لقد انطلق من ذلك الواقع ينفذ إلى غور الحركة الاجتماعية-التاريخية في كليتها)(٦)، يقرأ في أحواله وينظر في ماكانت عليه-وما آلت إليه أوضاع دوله وحضارته وحضارات الأمم الأخرى، التي أمكن له الوقوف عندها. يطرح مسائلها بوعي وحكمة وتبصر، محاولاً من خلال الوصول إلى قواعد وقوانين عامة، تحكم حسب رأيه طبيعة نشأتها ومراحل قيامها وأسباب انهيارها. قوانين يمكن الركون إليها وتعميمها أيضاً في قراءة كيفيات نشأة دول وحضارات الأمم الأخرى في

مختلف الأمكنة وعبر مختلف العصور والأزمنة، وبهذا أدخل البحث السياسي التاريخي الحضاري هنا-ولأول مرة في التاريخ- في رحاب الفلسفة وعمل على نحو لم يسبقه إليه أحد أبداً، "على قراءة هذا من خلال ذاك". والنظر في الآخر من خلال الأول. ممهداً السبيل بذلك لنشأة ما غدونا نعرفه اليوم باسم (فلسفة التاريخ). واضعاً نظريته في قراءة كيفيات قيام الدول والحضارات عبر التاريخ. قراءة فلسفة تاريخية (نظرية التعاقب الدوري للحضارات).

إن الوقوف عند آراء ابن خلدون وفي تبيان العلاقة بين الدولة والحضارة في مختلف جوانبها وأحوالها يقتضي البحث والنظر في جوانب ثلاثة رئيسية، انطوت تحتها تلك الآراء. يستوجب النظر في الجانب الأول منها الوقوف عند كيفية نشأة الدولة والحضارة وطبيعة العلاقة بينهما. ويتطلب النظر في الجانب الثاني منها تبيان مراحل قيام الدول والحضارات عبر التاريخ. ويقتضي في الجانب الثالث الوقوف عند أهم العوامل الكامنة، خلف سيرورة ذلك كله عبر التاريخ.

الجانب الأول: كيفية نشأة الدول والحضارة وطبيعة العلاقة بينهما:

لقد كان ابن خلدون على قناعة تامة بأن قيام الدول ونشأة الحضارات لا يتم إلا على سواعد القبائل وفي رحاب حماها، وفي ذلك قوله: (إن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وإن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها)[٧]. ولا ريب هنا بأن الدولة والحضارة العربيتين كما عايشهما ابن خلدون في محيطه قد ساهمت بقوة في تكوين تلك القناعة. والتي (كانت صادقة في عصره وفي الرقعة الجغرافية والمرحلة التاريخية التي كان يعيش فيها)[٨]، وتنسجم مع شرط قيام دولها وحضاراتها. دون أن يعني ذلك أن بالإمكان الأخذ بها كمبدأ عام يصلح دائماً لتفسير قيام الدول والحضارات، أياً كانت الشعوب والأمم التي أقامتها عبر مختلف الأمكنة والأزمنة.

وقد كان ابن خلدون على قناعة تامة أيضاً، بأن الحضارة لا تقوم إلاً مع الدولة، أو

بالأصح إن قيام الحضارة يقترن بالضرورة بقيام الدولة، ولا يوجد أي شكل من أشكال قيامها، أو أية دلالة من دلالات نهوضها وازدهارها إلا في أحضان الدولة. وعلى النحو الذي تتسجم فيه أحوالها في أي طور من أطوارها مع أوضاع الدولة التي قامت في أحضانها (طور الدولة في أولها بداوة. ثم حصل الملك تبعه الرفّه واتساع الأحوال والحضارة إنما هي تفنّن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه...باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعّم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد)(٩).

وبالانطلاق من قناعتيه السابقتين، عمل ابن خلدون على تبيان الكيفية التي على نحوها تقوم الحضارة الرفيعة وتزدهر بمختلف جوانبها في أمة من الأمم، وكيف يتأتى عليها أيضاً وقت الانحطاط والتدهور، ومن ثم التلاشي والزوال، بالتناسب طرداً مع أحوال الدولة، التي اصطنعتها الجماعة في قوتها وارتفاع نجمها، وسعة نفوذها، وفي ضعفها وتقلص حدود سيادتها وسلطانها. وذلك من مبادئ أولية، وأسس بسيطة تبدأ اللحظات الأولى لنشأتها وقيامها بين ظهراني البادية وعلى كواهل أبنائها. واستطاع مع جملة ذلك أن يظهر أوثق أنواع الروابط الاجتماعية وأهم أشكال التكاتف الاجتماعي- السياسي في مثل تلك البيئات التي عايشها، وتلك العهود التاريخية التي أمكن له الاطلاع على طبائع الدول والحضارات التي قامت عبرها.

ومن أجل ذلك تعقّب حياة الجماعة البشرية من تمهيد أمرها إلى بناء دولتها وقيام حضارتها، ومن ثم إلى اختلال أحوالها وتدهور شؤونها وبحث في كيفية بنائها كيانها السياسي والدوافع الكامنة خلفه، في آلية انتقالها من البداوة إلى الحضارة التي تنشأ في رحاب ذلك الكيان وتنشأ معها مختلف عوامل قوتها وانحلالها(١٠).

ففي رحاب القبلية وفي ربوع حماها تبدأ الخطوات الأولى لتدرّج خروج الجماعة من حال البداوة وما يتطلبه من ضرورات العيش ومستلزمات البقاء إلى حال المدنية. فحيث يستطع أبناء القبيل بناء كيانهم السياسي تدخل الجماعة بشكل طبيعي في مجال

الحضارة، وما ينشأ عنه ويلازمه من توابع الملك وعوائده، تتبدى خطوات السير هنا في إطارها العام الشامل تحت وجهين رئيسيين تمهد خطوات السير في الأول منها لقيام الأخرى وتأخذ حركة السير فيها (خطي تقدم، أبستمولوجي ينسجم تقدم السير في أي خط منهما مع تقدم السير في الخط الآخر. الأول تطوري تنبؤي وتصوري أيضاً، البداوة والدولة الآخر تلاحقي ترميبي.البداوة – العمران. من حيث العمران هو من شأن الدولة. والحضارة هي الغاية من العمران ونتيجة لذلك يتم التطور بشكل انتقالي أو تحويلي للتطور العام للعمران إلى شكله الدولة...التي بدورها تتيح ولادة الحضارة التي هي العمران الناجز الكامل)[١١].

في الخط الأول:

لقد تنبّه ابن خلدون جيداً إلى جانب في غاية الأهمية لا بل هو الأساسي هنا، ألا وهو التأكيد على أن إرادة الحضارة إنما هي أساس قيام الدول والحضارات ـ وهو ما غدت الدراسات الفلسفية التاريخية الحديثة تأخذ به بشكل كامل[١٢] ـ فمن دأب أبناء القبيلة حسب ما ذهبت إليه آراؤه، وسعيهم المتواصل أولاً لتحقيق التقدم والازدهار يعم أحوال وجودهم كافة. تبدأ الجماعة على التدرج بالتباعد عن حال البداوة والاتجاه (إلى حياة الإقامة والمدنية)[١٣].

ومع السعي الحثيث لأبناء القبيل لتحسين أوضاعهم ترسى الأسس الأولى لقيام دولتهم، وتظهر بالاقتران مع ذلك أيضاً مختلف متقضيات وأسباب نشأة حضارتهم وذلك بفضل:

١ ـ الصراع المتواصل لأبناء القبيل لتجاوز واقع حال البداوة، وما تنطوي عليه من أحكام ضرورة الوجود والبقاء والسير نحو وضع إنساني أفضل. تجمعهم في مثل تلك الأحوال إرادتهم الجمعية، ورغبتهم الحقيقية لتحقيق ذلك وحمية العصبية في نفوسهم بوصف هذه الأخيرة (تمثل قوة ضخمة ذات أثر توحيدي يوحد أفراد

الجماعة، وتساعد في الدفاع عنها والحفاظ على حقوقها، كما أنها تدفع للتغيير إلى حياة أكثر تقدماً)[١٤].

٢ ــ عن طريق الرقي المستمر لأحوالهم الناشئ شيئاً فشيئاً عما ينتحله أبناء القبيلة ذاتهم بأعمالهم ومساعيهم وتعاضدهم وتعاونهم بمختلف أوجه فعالياتهم وأنشطتهم البشرية، من الكسب والمعاش والصنائع والعلوم والأعمال والأفعال ومن غير ذلك من الدلالات التي تعبر بشكل ما أو بآخر عن تغيّر أحوال الجماعة وتبدل أوضاعها، وانتقالها من شظف وخشونة البداوة وقسوتها إلى رقة ودعة المدنية أو الحضارة وعوائدها، وما تقتضيه من ضرورات وما ينشأ عنها ويلازمها من أصناف الزائد على الضروري، لاستمرار الحياة وبقائها من مختلف أشكال الكماليات وأنواعها، وفي ذلك يقول: (أن البدو هم المتقصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه. وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم. ولاشك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه. لأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه، فالبدو أصل للمدن والحضر، سابق عليهما. لأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف، إلا إذا كان الضروري حاصلاً، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة، ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي، يجرى إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه فيها، ومتى حصل على الرياش الذي يحل له به أحوال الترف وعوائده، عاج إلى الدعة، وأمكن نفسه إلى قيادة المدينة وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم)[١٥].

فما يجري في طور البداوة إذاً، لا يعبر حسب ابن خلدون في أي شيء منه عن أي شكل من أشكال نهوض الحضارة، أو تقدم العمران البشري وارتقائه ــ حيث لا فرق في واقع الأمر بين المفهوم العام لتقدم العمران البشري عند ابن خلدون، وما نعنيه اليوم بالحضارة ــ [١٦]. وإن كان يهيئ التربة لنشأة ذلك ونموه وازدهاره.

أو بمعنى آخر إن حال البداوة إنما تماثل عند ابن خلدون حالة ما قبل التاريخ، إنها

حال الجماعة البشرية وهي تقف على عتبة أبواب التاريخ، وتتطلع إلى الأمام مستهدفة الدخول فعلاً في مجرابه، وهي تعمل ما أمكن لأبنائها ذلك، للتحرر من قوانين الضرورة الطبيعية ومن قيود ضرورات واقع حالها بمختلف أشكالها (إن الحالة الأولى للبداوة، ليست سوى الطور الأدنى من العمران، ليست سوى البداوة، وهي تميل بالطبع إلى تجاوز نفسها والانتقال إلى الحضارة)[١٧].

في الخط الآخر:

ومن تطلع أبناء القبيل -إذ يصطنعون كيانهم السياسي- ثانياً: لتحقيق الظفر والريادة . والتفوق والسيادة. تطلعهم لبناء آفاق مستقبلية جديدة في مختلف مجالات حياتهم وجوانبها. يزدهر -حسب ابن خلدون- الكيان السياسي الناشئ بمختلف جوانب وحياة أفراده. الاقتصادية، والاجتماعية والسياسية، والفكرية...الخ ويعلو شأنه، وتشتد شكيمته، ويزداد نفوذه وقوته، ويغدو موهوب الجانب، ويستمر على تلك الحال يطلب أبناؤه المجد والسؤدد، والعزة والمنعة، إلى أن يتحقق لعصبيتهم الغلب على العصبيات الأخرى جميعها، ويصير لها الملك أجمع وذلك (إن الغلب الذي يكون به الملك، إنما هو بالعصبية، وبما يتبعها من شدة البأس ونفوذ الافتراس)[١٨]. وأن (عامل القوة الذي يشمل عند ابن خلدون صوراً عدة قوة العصبية، قوة الجند القوة الاقتصادية...الخ، يلعب دوره الحاسم في حياة الدولة. فالدولة لا تنشأ إلا بفعل القوة، والقوة سر وجودها، وبهذه القوة تستمر وتستقر)[١٩].

ومع ازدياد قوة الدولة، واتساع نفوذها، وترامي أطرافها، تسري مظاهر الملك، وتتبدى أحواله -من كثرة الترف وزيادة الرخاء والرفاه. ووفرة الحال، وتعدد الصنائع وتنوع العلوم، وكثرة الجند والموالي والتكاثر والولد...- واضحة جلية في مختلف جوانب حياة الأفراد والدولة. إذ (على نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا)[٢٠]. ومع الأيام يأتي ذلك عوائده، تزدهر حضارة العمران البشري بشكل طبيعي بالتناسب مع واقع أحوال الدولة، في عظمتها، واتساع نطاقها، وطول أمدها، ونسبة القائمين بها في

القلة والكثرة. وذلك (إن الحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل)[٢١]. وكانت حياتها أكثر ازدهاراً، وأكثر تفتحاً ونضوجاً وبقاءً، من حيث (أن الحضارة في الأمصار من قبل الدولة، وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها، السبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، تتفاوت بتفاوت الرّفه وتفاوت الأمم في الغلبة والكثرة، تفاوتاً غير منحصر ويقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها)[٢٢].

وفي الواقع لقد أدرك ابن خلدون جيداً، أن قيام الدول والحضارات إنما هو في جوهره، وأسس قيامه وعوامله، فعل إنساني. وبعيداً عن أية تفسيرات ما ورائية غيبية، فسّر كيفية قيام ذلك تفسيراً عقلانياً، فبيّن أولاً أن أعمال أهل العمران إذا فضلت عن إيفاء الضروري من معاشهم، انصرفت بالضرورة إلى ما وراء ذلك من الأعمال ومواضع الاهتمام والتفكير، وسبل الكسب والمعاش، وضروب الكماليات والزائد على الحاجات. وفي هذا قوله: "إن الناس ما لم تستوف العمران الحضري، وتتمدن المدينة إنما هم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها، فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال، ووفت بالضرورة وزادت عليه صرف الزائد حينئذٍ إلى الكماليات من المعاش...)[٢٣].

ومن ثم ذهب إلى التأكيد ثانياً: بأن مع واقع الحال الجديد للعمران البشري تخلق حاجات وعوائد وأعراف وشرائع جديدة، وتظهر فعاليات وأوجه عمل وأنشطة بشرية فكرية ويدوية، اقتصادية، اجتماعية متعددة، متنوعة ومتجددة أيضاً بحسب ما يقتضي واقع الحال المتجدد للعمران البشري وجراء ذلك:

١-تزخر المدينة بشكل طبيعي مع الأيام بمختلف أصناف المعارف والعلوم، وذلك (إن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران، وتعظم الحضارة)[٢٤]. وتحفل أيضاً بمختلف الصنائع والمهن (الضروري منها العمران البشري من فلاحة وخياطة وتجارة وحياكة، وتوليد وكتابة وطب)[٢٥]. ومما تقتضيه من عوائد الملك وأحواله

المتجددة المتغيرة من حيث (أن الصنائع إنما تكمل بإكمال العمران الحضري وكثرته. وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكماليات كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها، فكملت بجميع متمماتها، وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز...)[٢٦].

٢-وتزدهي المدينة بالاقتران مع ذلك أيضاً، شيئاً فشيئاً بمختلف أشكال ومظاهر الإبداع والإنتاج الحضاري من بناء المساكن والبيوت والاهتمام بما هو ضروري لاستمرار العيش والبقاء، إلى تشييد المدن العظيمة والهياكل المرتفعة -إن بناء واختطاط المدن إنما هو منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة، وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها)[٢٧]، والانصراف إلى ما تقتضيه أحوال الملك من ضروب الضرورة المتجددة والأعمال والصنائع. ومن غير ذلك من مختلف مستلزمات أوجه استقرار الجماعة، وتفتح إمكانياتها الحضارية وارتقائها وتقدمها من مختلف الجوانب[٢٨].

٣-ويشتمل الازدهار الحضاري للمدينة بالضرورة جانبها الأخلاقي أيضاً، ويتجلى أهل المدينة بخصال وخلال جديدة، ويكسب الأهلون خلقاً وأدباً وقولاً وفعلاً من خلال ذلك الطور، إذ (إن من علامات الملك التنافس في الخصال الحميدة... بوصف هذه الأخيرة الفرع الذي يتم به المجد وجوده ويكمله -الأصل العصبية والعشيرة- ويكون التخلق من خلال الخير والعمل بمضامينها، إنما هو الشاهد الحق بوجود الملك لمن وجدت لهم العصبية، والذين يقرنون القول بالفعل، فهم يتنافسون في الخير وخلاله من الشجاعة والكرم والعفو عند الزلات...والقرى للضيوف، والصبر على المكارة والوفاء بالعهد، وبذل الأموال في صون الأعراض...والانقياد إلى الحق مع الداعي إليه...وإنصاف المستضعفين من أنفسهم...والتديّن بالشرائع والعبادات، والقيام عليها وعلى أسبابها...والتجافي عند الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد...)[٢٩].

٤-وتستمر المدينة على تلك الأحوال من الازدهار والتقدم، ويشمل ذلك مختلف جوانبها، ويبقى لها مجدها الحضاري المتألق الذي تتجه إليه الأنظار في كافة أنحاء العصبيات الأخرى وفروعها وفي كافة الأمصار. ويستمر نجم حضارتها، أو مدينتها بالإشعاع ما بقي الملك لها، إذ (على قدر عظم الدولة، يكون شأنها في الحضارة. إذ أمور الحضارة من توابع الترف، من توابع الثروة والنعمة من توابع الملك. ومقدار ما يستوي عليه أهل الدولة، فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله)[٣٠].

وما خلّفته الحضارات السابقة من آثار، إنما هو الدلالة الحقيقية حسب ابن خلدون على مدى تلازم وتواؤم قوة الدول وعظمة مجدها، وازدهار الحضارات التي نشأت في أحضانها. (إن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها.ومن ذلك بلاط الوليد بدمشق، وجامع بني أمية بقرطبة والقنطرة التي بواديها، وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء إلى قرطاجة في القناة الراكبة عليها، وآثار شرشال بالمغرب، والأهرام بمصر، وديوان كسرى، وكثير من الآثار الماثلة للعيان، تعلم منه اختلاف الدولة في القوة والضعف)[٣١].

فالحضاري يرتهن هكذا بالسياسي عند ابن خلدون وبه يقترن، ومع وجوده، وبنسبة قوته وعظمته بمختلف ما تشتمل عليه تلك القوة من عوامل وأسباب وأشكال مادية ومعنوية، يتزامن في النشأة وخطى السير والتقدم، ويتناغم وينسجم، وتتبدّى دلالات تقدمه وازدهاره واضحة جلية في مختلف جوانب ومناحي الفكر والواقع، ويتيد له الاستمرار والبقاء. وعلى نسبة ازدهار وقوة هذا وذاك (السياسي والحضاري) تتفاوت طبائع حياة الجماعة وتطلعاتها. والأخذ بالكرة الأخيرة -على وجه الخصوص- أمر ليس بالغريب على رجل كابن خلدون عاش في بيئة تعددت فيها الدول والدويلات، وانطوت على أناس نشأووا من أصل واحد، ونطقوا بلغة واحدة، ومع ذلك فهم يتفاوتون في الحضارة وأساليب الحياة تفاوتاً يختلف شكله وطبيعته باختلاف قوة الدولة التي هم من رعاياها.

ثانياً: مراحل قيام الدول وتعاقب الحضارات:

لقد استطاع ابن خلدون أن يرسم لوحة واضحة متكاملة لديناميكية وصيرورة التطور التدريجي لحركة تقدم الجماعة البشرية عبر التاريخ. ولقيام الدول والحضارات في مختلف مراحل تكوينها، من بدء أمرها إلى بلوغ أوج مجدها، وعظمة ازدهار حضارتها وقوتها. ومن ثم إلى بدء تسرب الفساد إلى أوصالها، ومنه إلى انهيارها في آخر أمرها.

فبيّن أنّ الجماعة البشرية في حركة تقدم سيرها الدائم تتدرّج في أوضاع وحالات متجددة متغيرة وأن الدول وحضارتها لا تبقى على حال واحدة لا تتجاوزها، بل أنها تتطور تطوراً مستمراً، وتنتقل في أوضاعها وأحوال حضارتها في أطوار مختلفة. يتميز كل طور منها عن الطور الآخر. وتختلف أحواله وأحوال عمرانه عن مجمل أحوال الطور الآخر. ويكتسب أهلوه والقائمون عليه في كل طور منها أخلاقاً وعوائد وطبائع من أحوال ذلك الطور، ولا يكون لهم مثله في الطور الآخر من حيث (أن التطور التدريجي قانون عام في الكون والمجتمع والعمران)[٣٢]. والحركة والصيرورة هنا مبدأ أساسي يشمل مختلف جوانب حياة الأفراد والجماعات والدول، ينبغي الأخذ به جيداً إذا:

(من الغلط الخفي في التاريخ، -كما يقول ابن خلدون- الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال، بتبدل الأعصار ومرور الأيام...وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول...)[٣٣].

تتدرج أطوار قيام الدول والحضارات، وتتدرج في مجملها تحت إطار عام شامل تنطوي تحته مراحل تقدم الدول والحضارات جميعها، وتمر به أدوار قيامها، وتتوالى خطوات سيرها، وبشكل مستقل تماماً عن أية إرادات أخرى (وفي اتجاه واحد، وعلى

وقع نظام ثابت ثلاثي الأدوار، بداوة، ازدهار وحضارة، انحطاط)[٣٤]. ويحكم حركة السير فيه ارتفاعاً وقوة وصعوداً، وانحطاطاً وضعفاً وتراجعاً عامل رئيسي واحد - العصبية- تساعده عوامل أخرى، لا يقل بعضها عنه أهمية. كالعامل الاقتصادي - الترف- في المنزلة الأولى، يليه العامل الديني. ويغدو معها من الصعوبة التمييز بين ما يخص السياسي، وما يتعلق بالحضاري وبين دلالات هذا مفاهيم ذاك. فالمفردات والمفاهيم والدلالات من أدوار قيام، وعوامل نشأة وأسباب تدهور، تذكر فيحين تحت اسم الدولة. وتأتي في آخر تحت اسم الحضارة والعمران، وما ينطوي عليه المضمون في كلا الحالين واحد.

وفي النص التالي يبين ابن خلدون أهم الخصائص التي يتسم بها كل دور من تلك الأدوار، وأبرز السمات الخاصة والعامة التي تتميز بها طبيعة حياة الأفراد والجماعة والدولة في كل طور مها: (إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال، الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس، والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة، فحدهم مرهف، وجانبهم موهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والرفه من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب أو من الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه. ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس فيهم المهانة والخضوع...وأما الجيل الثالث، فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن حلاوة العز والعصبية بما فيهم من ملكه القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تتفوه من النعيم وغضارة العيش. فيصيرون عيالاً على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة...فيحتاج صاحب الدولة حينئذٍ إلى الاستظهار بسواهم. ويستكثر الموالي...فتذهب الدولة بما حملت...)[٣٥].

فسيرورة حياة الدول إذن وفق قانون ابن خلدون الثلاثي الأدوار ذلك تخضع لتطـــور طبيعي محتوم، يجري على مراحل ثابتة بداوة، حضـــارة، انـــهيار. وحركــة قيــام الحضارات هي الأخرى -بالاقتران مع قيام تلك وبالقياس إلى ذلك القـــانون أيضـــاً- واقع يتجدد أياً كانت الشعوب والأمم وطبائع العمران الذي قامت فيه. وتتعاقب الواحدة منها إثر الأخرى حيث تتوفر الأسباب المؤدية إلى ذلك -المادية الاقتصادية والسياسـية والبشرية والمعنوية...وغير ذلك من العوامل التي تدل على درجــة تحضــر القبــائل وتطور مجتمعاتها. وقوة دولها وازدهارها-(٣٦) وعلى نحو يبدو معه خط سير التاريخ البشري عبارة عن سلسلة من الدول والحضارات المتعاقبة تتشابه جميعها في كيفيـــة قيامها وزوالها. وفي كيفية ازدهارها وامتلاكها لأسباب القوة. وفي دواعي الانهيار.

فقد كان ابن خلدون على قناعة بأن ذلك القانون الثلاثي الأدوار، التدريجي التطور في أحوال الدول والحضارات. إنما يعرب في جوهره عن ظاهرة طبيعية دورية مســتقلة، تمر بها حياة الأمم والشعوب، ومراحل قيام الدول والحضارات جميعــها. تقــوم دول ويسطع نجم حضارتها ويبقى لها الملك والمجد حقبة من الزمن -قد تطول وقد تقصر، فإن استقر لها الملك، دبّ الضعف لا محالة في بنيانها، تلاشت أواصر قوتها وتماسـك أطرافها، وآل نجم حضارتها شيئاً فشيئاً إلى الزوال وذلك (إن كل دولة لها حصة مـن الممالك لا تزيد عليها)(٣٧).

وفي التاريخ أمثلة كثيرة على ذلك -حسب ابن خلدون- يذكر منها: "...فقد كانت فــي العالم أمم الفرس الأولى، والسريانيون والنبط التابعة، وبنو إسرائيل والقبــط. وكــانوا على أحوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم، وصنائعهم ولغاتـــهم، وســائر مشاركتهم مع أبناء جنسهم وأحوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم، ثــم جــاء مــن بعدهم الفرس الثانية والعرب والروم. فتبدلت تلك الأحوال وانقلبت بها العوائد إلى مــا يجانسها أو يشابهها، وإلى تلك ما يباينها أو يباعدها. ثم جاء الإسلام بدولـــة مضــر، فانقلبت تلك الأحوال أجمع انقلابة أخـــرى.. ثــم درســت دولــة العــرب وأيامــهم

ذهبت..وصار الأمر في أيدي سواهم من العجم، مثل الترك بالمشرق، والبربر بالمغرب، والفرنجة بالشمال، فذهبت بذهابهم أمم، وانقلبت أحوال وعوائد نسي شأنها وأغفل أمرها)[٣٨]. دون أن يعني ذلك أن ابن خلدون قد استطاع أن يرقى بقانونه الثلاثي لقيام الدول والحضارات حقاً. إلى فكرة تعاون الأمم والأجيال في بناء صرح إنساني واحد تسهم فيه الأمم والشعوب كل بحسب قدرته وطبيعة إنتاج حضاراتها[٣٩]. فعمر الدول والحضارات لا بد أن يمر بالأدوار الثلاثة بداوة حضارة، انهيار، غير أن لدورة حياة عمرها وطبيعتها وخصوصيتها التي تميزها بشكل كامل عن دورة حياة غيرها، ولا يعرض ذلك القانون لقيام الدول الحضارات على النحو الذي يجب أن يعدّ فيه نمو الفكر الإنساني الذي يتقدم تقدماً بمثابة مراحل متعاقبة لنمو واحد بعينه- كما عند هيغل- نمو الفكر الإنساني الذي يتقدم تقدماً جدلياً خلال العصور. بحيث تشتمل الحضارة المتأخرة على جميع درجاته في مذهب أخير نهائي. يشتملها بوجه ما في تركيب أعلى، يهيئ الأسباب للمراحل اللاحقة)[٤٠].

ثالثاً: عوامل نشأة الدول والحضارات:

بقدرة كبيرة ومهارة عالية، استطاع ابن خلدون في قراءته الفلسفية لكيفيات قيام الدول وتعاقب الحضارات عبر التاريخ، أن يفلت من مغبة الوقوع في التفسير الواحدي لآ[illegible]ـة قيام ذلك. ومن جهة الأسر في حدود النظرة الواحدية لمجريات انشغالها [illegible] [illegible]حلة إلى مرحلة أخرى من مراحل قيامها. لا بل إن تحديده لعوامل النشأ[illegible] [illegible]لازدهار والانهيار (يتخذ عنده طابعاً جدلياً واضحاً. تبدو عوامل النشأة والتقدم هي ذاتها عوامل التدهور والزوال)[٤١].

فقد عمل ابن خلدون على تفسير أسباب تقدم حركة الجماعة البشرية وارتقائها بأكثر من سبب وقد أدرك جيداً أن عملية قيام الدول والحضارات، إنما هي في جوهرها كيفيات معقدة مختلفة الجوانب تتداخل في تحديد طبائعها، وتدرّج أحوالها وتعاقب

أدوارها عوامل كثيرة. تتفاوت فعالية دور كل منها وحجم آثاره. وإن كان قد ميز بين شكلين أساسيين من أشكال العمران البشري البدوي والحضري. فإن هذا التمييز يعتمد في أصله على وحدة من العوامل والمفاهيم تتفاعل جميعها لتعيين طبيعة كل شكل منها، وتحديد خصائصه وسماته، إنه (تحديد يجسّد نمطين مختلفين تماماً من أحوال الوجود الاجتماعي، هما العيش في الحاضرة، والعيش في البادية، ويدلان على مفاهيم اقتصادية- اجتماعية تعكس نمطي ذلك العيش)[٤٢].

فقد جعل للقوى الأدبية والمعنوية الروحية وعلى الأخص العصبية يليها الدين، دوراً فعالاً وهاماً في رسم ملامح الدول والحضارات وتعاقبها، ولا يقل عنه الدور الذي جعله للجانب المادي – على الأخص الترف – وإن كانت فعالية الجانب الأول تبدو أكثر بروزاً في مراحل التكوين الأولى – وجعل من هذين القطبين المتميزين بالتناقض الداخلي في الدور الذي يقوم به كل منهما هنا –[٤٣] العاملين الرئيسيين في عملية بناء الدول والحضارات.وانهيارها وتحريك مسار التاريخ. يعملان في اتجاه واحد وبالتعاون في المراحل الأولى لقيام الدول، ويسيران في اتجاهين متعاكسين حيث تبلغ تلك الدول أوج وعظمة مجدها. وفي ذلك قوله: "أعلم أن مبني الملك على أساسين لابد منهما، فالأول الشوكة والعصبية المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولئك أو إقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال، والخلل إذا طرق الدولة طرقها من هذين الأساسين"[٤٤].

وبيان ذلك حسب ما يذكر في قوله: "اعتبر هذا في دولة العرب في الإسلام انتهت إلى الأندلس والهند والصين، وكان أمر بني أمية نافذاً في جميع العرب بعصبية بني عبد مناف...ثم تلاشت عصبية بني أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا"[٤٥].

وذلك دون أن يغفل الوقوف عند دور فعالية عوامل أخرى، هي أقل أهمية وأضعف أثراً من الدور الذي تؤديه العصبية والدين والترف. كالتربية والتعليم. والعوامل الطبيعية والجغرافية كالمناخ والهواء، وخصائص الإقليم في موقعه وخصوبته. ولكن

لها أثرها الواضح في تكوين عقلية الشعوب وأخلاق الأمم، وفي توحيد ذهنيتهم، وتحديد طبائع الكثير من أحوالهم وشؤون حياتهم واجتماعهم، وحتى ألوان أجسامهم وعاداتهم.(٤٦).

أولاً ـ العامل المعنوي الروحي ـ العصبية الدين:

أ ـ العصبية:

تحتل العصبية المكانة الرئيسية عند ابن خلدون في عملية بناء الدول والحضارات وزوالها.

وفعالية عملها ترتبط وقوة حضورها في نفوس أبناء الجماعة، ويتبدى عمق أثرها بحسب الدور الذي يكون عليه الكيان السياسي الذي أقامته تلك الجماعة هي إيجابية العمل شديدة الفعل منذ بدء التكوين إلى أن تبلغ الدولة أوج قوتها، وعظمة مجد حضارتها. فإن هي بلغت ذلك، بدأت حمية العصبية وشدة اتقادها في نفوس الأبناء شيئا فشيئا بالانطفاء.

وفي الواقع، لا يكاد يخلو فصل من الأجزاء الثلاثة الأولى من مقدمته من ذكر لدور تلعبه العصبية في حياة الأفراد والجماعة والدولة. فهي:

١ ـ المحرك الأساسي الذي يدفع أبناء القبيل منذ اللحظات الأولى لتحقيق التقدم والازدهار الذي يشمل جوانب حياتها كلها. وينقلهم من حال إلى حال أخرى أفضل، أي (المبدأ الديالكتيكي الخفي الذي يريده ابن خلدون أن يكون الوسيط بين وجهي العمران البشري والحضري. وهي تتبدّى بأحلى مظاهرها في الأصل في طور البداوة. في حين أن تراجعها عند بلوغ أعلى أطوار التحضير يبشر بالانحطاط الذي لا مفر منه). (٤٧)

٢ ـ وهي القوة الفعالة التي تدفع أبناء القبيل إلى الألفة والمحبة، وتجعل الجماعة تستشعر في صفوف أبنائها والتعاضد والحمية والاندفاع المتبادل في نفوسهم

للتحلي بالخلال الحميدة (إن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية).[٤٨]

٣ ــ هي الشرط الضروري واللازم في كل أمر، وكل عمل، وكل جانب، أو عامل ربط وجذب اجتماعي ــ سياسي يؤدي إلى جعل الجماعة موحدة الكلمة، متلاحمة تنشد مجدها، وتعمل لبناء ملكها وازدهار أحواله، وتسعى للتمسك بكل ما يشد أزر أبنائها، ويزيد من قوتهم، ويجعلهم مرهوبي الجانب. وذلك (إن الملك والدولة العامة يحصلان بالقبيل والعصبية)[٤٩]. (وبالعصبية تكون المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة، ومن فقدها عجز عن جميع ذلك.)[٥٠]

٤ ــ هي أساس قيام الدولة وعامل الفوز بالرياسة والحفاظ عليهما مرهون بالضرورة ببقاء حميتها في نفوس الأبناء والحكام. هي(أساس الملك)[٥١].والملك غايتها وبها يتحقق.(إن الغاية التي تجرى إليها العصبية هي الملك).[٥٢]

٥ ــ وهي في الإطار العام الشامل، المبدأ الأساسي الذي تقام عليه حضارة الجماعة، ويعلو بالاعتماد عليه مجدها، وكل أمر له صلة بذلك (إن المجد له أصل ينبني عليه، وتتحقق به حقيقته، وهو العصبية والعشير، وفرع يُتم وجوده، ويكمله وهو الخلال. وإن كان الملك غاية العصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتها، لأن وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الأعضاء، أو ظهوره عرياناً بين الناس.)[٥٣].

٦ ــ وفعالية دور العصبية تأتي على العكس من ذلك كله عملها السلبي، فإذ تضعف حميتها في النفوس. آلت الدولة والحضارة شيئاً فشيئاً إلى الزوال(إذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة،والتهمتهم الأمم سواهم ..)[٥٤].

وبيان ذلك (ما وقع لبني العباس، فإن عصبية العرب كانت قد فسدت لعهد المعتصم وابنه الواثق، واستظهارهم بعد ذلك، إنما كان بالموالي من العجم والترك والديلم

والسلجوقية وغيرهم. ثم تقلب العجم الأولياء على النواحي، وتقلص ظل الدولة، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملوكها وصار الخلائق في حكمهم، ثم انقرض حكمهم، ثم انقرض أمرهم. وملك السلجوقية من بعدهم، فصاروا في حكمهم. وزحف آخر التتار، فقتلوا الخليفة ومحو رسم الدولة .) .[٥٥]

ب ــ العامل الديني:

بقدرة كبيرة على الإحاطة بالموضوع من جوانبه المختلفة ــ توقف ابن خلدون بتبصر وسعة معرفة وشمول لبيان حقيقة الدور الذي يمكن للدعوة الدينية أن تلعبه في تحقيق تماسك النسيج الاجتماعي ــ السياسي. وقد أدرك أهمية دور هذا الجانب في إعلاء شأن الدولة وتوطيد أركانها. وفي الوقوف عند آرائه في تبيان ذلك، تبرز حقيقة أن ثمة علاقة وثيقة متبادلة تقوم حسب آرائه بين العصبية كمعطي اجتماعي ــ سياسي وبين الدعوة الدينية. فعمل الدعوة الدينية يساعده العصبية ويعاضد دورها، الدعوة الدينية لا تتم إلا بالعصبية، (هي ضرورية لتحريك ديناميكية، وبدونه لا يمكنها أن تحقق ماهيتها، أي تؤمن الفوز بالملك).[٥٦] وذلك (أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية).[٥٧]

ومع أن ابن خلدون بيّن أن ثمة دول أو حضارات قامت دون أن يكون للعامل الديني ذلك الأثر أو أن يكون له فعالية الدور الذي لعبه في قيام الحضارة العربية الإسلامية مثلا. فإن ذلك لم يقف دون إقراره بأن العامل الديني ، إنما هو الشرط اللازم لقيام الممالك الكبرى. والسبب في ذلك (أن الممالك التي يتحقق في بنائها شرط العصبية يعاضده الدين تكون أقرب إلى الكمال، لأنها تجمع بين منافع الدنيا ومنافع الدين).[٥٨] تجمع قوة السياسي الاجتماعي وقوة العامل الديني وتحققهما في بناء مجدها. وبيان ذلك ما حدث مع العرب (بدولتهم في الملة لما شيّد لهم الدين السياسة بالشريعة وأحكامه المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم).[٥٩]

وقد عرض ابن خلدون لتوضيح كيفية عمل الدين بالاتفاق مع العصبية في تحقيق قوة الدولة. في مواضع متعددة من مقدمته يختصر جلّ آرائه في ذلك، وأهمها في عنواني الفصلين الرابع والخامس من الكتاب الثالث من الجزء الثاني من مقدمته (فصل في أن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين، إما من نبوّة أو دعوه حق). (فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها). ومن مجمل ما جاء فيها (أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية، وتذهب عنهم مذمومات الأخلاق، وتأخذهم بمحمودها وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار بما هم فيه في شؤونهم وأحوالهم .... اتحدت كلمتهم وقل الخلاف بينهم... وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة لذلك ولم يقف لهم شيء في أمرهم. وعظمت الدولة لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه.). (٦٠)

وبيان ذلك حسب ما يذكره ابن خلدون (ما وقع للعرب صدر الإسلام وفي الفتوحات، فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين ألفا في كل معسكر، وجموع فارس مائة وعشرون ألفا بالقادسية. وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربعمائة ألف. فلم يقف للعرب أحد من الجانبين وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم... ـ وذلك ما وقع أيضا مع ـ دولة لمتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من القبائل كثير من يقاومهم في العدد والعصبية. إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة. فلم يقف لهم شيء). (٦١)

ثانياً : العامل المادي ـ الترف:

لقد أدرك ابن خلدون حجم وفعل العامل المادي ـ الترف ـ في العملية الشاملة لقيام الدول والحضارات وانهيارها. وبالطبع لا نعوّل هنا على هذا الجانب بوصفه أسلوب إنتاج يحدد السمة الجوهرية لتطور المجتمع، على نحو ما قد يفهم من النص الخلدوني. (أعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم، إنما هو باختلاف نحلهم في

المعاش).[٦٢] بل كقوة محركة، هي أهم العوامل الفعالة عند ابن خلدون في مجمل الجهد المتواصل لأبناء القبيل للارتقاء بأحوالهم والانتقال بالجماعة من طور إلى طور، بداوة حضارة، انهيار. وفعالية عمل الترف كما فعالية العصبية تتسم هنا بالتناقض الداخلي، ويتأتى فعلها الإيجابي الأثر الذي يدفع عجلة قيام الدول والحضارات إلى الأمام في مرحلة، والسلبي العمل الذي يساهم بشكل ما أو بآخر في إعاقة ذلك التقدم، ودفع حركة سيره إلى الوراء في مرحلة أخرى.

١ ـ الوجه الإيجابي:

في مراحل التكوين الأولى لقيام الدول والحضارات يعمل الترف بشكل محايث لفعل العضبية وعلى وقع خطى واحدة، من أجل تحقيق الغاية والوصول إلى الهدف. الغلب والملك(إن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها).[٦٣]

وحيث تتوطد أركان الدولة وتتسع مساحات نفوذها، ويوجد لدى الأبناء كافة العوامل والأسباب التي تستوفي سد حاجاتهم الضرورية وتزيد، يتوفر الرخاء ورغد العيش، ويزدهر العمران وتزداد تلك الإمكانية شيئاً فشيئاً. وتترك بصماتها الواضحة في مختلف مناحي حياة الأفراد والجماعة ـ على نحو ما تبدى بوضوح في تبيان آلية قيام الدولة والحضارة والوقوف عند طبيعة العلاقة بينهما ـ مؤذنة مع مرور الأيام بتغير أحوال الجماعة وانتقالها من حال إلى حال آخر أفضل، ومن طور إلى طور آخر أكمل (إن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبيعته إلى مذاهب الحضارة، والتخلف بعوائدها والحضارات تتفاوت بتفاوت العمران فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل)[٦٤]

٢-الوجه السلبي:

لقد استطاع ابن خلدون أن يفسر على نحو منطقي عقلاني متماسك تماما الكيفية التي على نحوها يغلب التطبع بعوائد الملك والترف على ما هو طبيعي في النفوس ويأخذ بما هو أصيل في الطبائع، فيؤذن لأيام الدولة ومجد حضارتها وقوتها بالزوال. فقد بيّن

أن حال القوة والازدهار التي تشتمل مختلف جوانب حياة الأفراد والدولة والحضارة التي قامت بالاقتران معها تحمل في ثناياها بذور فسادها، وتنمو مع عوامل قوتها أسباب تراجعها. فإذ تبلغ الدولة أوج مجدها(ويذهب الجيل الأول والثاني من أبنائها، باني المجد والمشارك فيه الشاهد عليه).[٦٥] يعمل الترف باتجاه معاكس لفعل العصبية، وتأتي عوائد الملك والحضارة عوائدها، ويتسرب الفساد إلى جوهر كيان الدولة والظاهر معلنا بداية النهاية لزوال أيامها، وغياب نجم حضارتها(إن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره).[٦٦] وإذ(يبلغ العمران البشرى غايته ـ الحضارة والترف ـ انقلب إلى الفساد، وأخذ إلى الهرم).[٦٧]

وذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك، وترامت حدود دولتهم، وامتلك كافة أسباب القوة المادية منها والمعنوية، اتسعت أحوال المنتحلين منهم للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجي، وتعاونوا في تحصيل الزائد من ذلك على الضروري، واستكثروا في طلبه، وبالغوا في السعي لامتلاك أسبابه والتفنن بأشكاله وأنواعه وملاذه، ومع الأيام تجيء عوائد الملك والرخاء والترف البالغة مبالغها في الزيادة آثارها السلبية. مؤذنة وعلى التدرج بانهيار الدولة وخراب العمران وزوال الحضارة.

فحيث يحصل الترف وينعمس القبيل في النعيم وتتملك عوائد ذلك في نفوس الأبناء والحكام ـ يتغلغل الفساد وتتبدّى مظاهره واضحة شيئا فشيئا في مختلف جوانب حياة الأفراد والجماعة والدولة. و جراء ذلك:

١ ـ يقل تمسك الأبناء بدينهم الذي كان أحد عوامل قوتهم، يوحد صفوفهم ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق وقيامه، وإعلاء الشأن، وتتضاءل في نفوسهم حمية الاندفاع التي من هذا الجانب وذلك، (إن الأحكام السلطانية التعليمية مفسدة للبأس، لأن الوازع فيها أجنبي،وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتي).[٦٨] وما كان على الطبيعة، أو أقرب إليها كان دون أدنى شك أعمق أثراً، وأكثر قوة في توحيد أغراض الجماعة. والأخذ بيد أبنائها إلى تحقيق مآربهم والوصول إلى

غايتهم، ألا وهي الملك. والتراخي عن الأخذ بذلك والاتجاه إلى غيره يؤدي لا محالة إلى أحوال مغايرة للدولة والعمران أيضاً.

وبيان ذلك ما حدث مع العرب (بدولتهم في الملة، لما شيد لهم الدين السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم...ثم إنهم بعد ذلك، انقطعت منهم عن الدولة أجيال، نبذوا الدين فنسوا السياسة، وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة...ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء...ولما ذهب أمر الخلافة وانمحى رسمها، انقطع الأمر جملة من أيديهم، وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا في قفارهم، لا يعرفون الملك ولا سياسته ... وقد بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة ...).[٦٩]

٢ ــ وتذهب الأحوال الجديدة مع الأيام ــ بأخلاقهم، وتفسد الخصال الحسنة الجيدة التي تتسم بها أقوالهم وأفعالهم[٧٠] ــ ولا ريب هنا أن حكم ابن خلدون بمطلق الأمر ذلك لا يتسم بالعقلانية التي اتسمت بها معظم آرائه ــ وذلك(لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، وقد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك.حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم، فتجد الكثيرين منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم، وأهل محارمهم، لا يصدهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً...).[٧١]

٣ ــ وتغدو عوائد الملك كالطبائع الثابتة تحكم أحوال أبناء القبيل في أفعالهم وانطباعاتهم وميولهم وحتى مشاعرهم،وتصير خلقا لا تني سماته وآثاره تزداد رسوخا في نفوسهم، وفي مختلف جوانب حياتهم،فتخبو فيها ــ لا بل حتى تنطفئ ــ جذوة الأمل، وإرادة التغيير والسعي نحو الأفضل فيكتفون بما(يشتمل عليه

الملك من الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسية).[٧٢] وتضعف رغبتهم في امتلاك المزيد من أسباب القوة والملك، ويرضون بما هم فيه، ولا يتطلعون إلى شيء أبعد من ذلك.

وبحدس عقلي وبسعة معرفة توقف ابن خلدون لتبيان الأسباب والكيفية التي أودت بالأبناء إلى التخلق والتطبع بذلك والوصول إلى تلك الحال فبيّن، أن الأبناء جرّاء (...ما يحصل في النفوس من التكاسل، ...يقصر الآمال ويضعف التناسل والاعتمار، والاعتمار إنما من جدة الأمل، وما يحدث عنه من النشاط...فإذا ذهب الأمل بالتكاسل، وذهب ما يدعو إليه من الأحوال، وكانت العصبية ذاهبة...تناقص عمرانهم، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم).[٧٣] و(لم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولأسبابه، إنما همهم النعيم والكسب وخصب العيش، والسكون في ظل الدولة إلى الدّعة والراحة، والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس، والاستكثار من ذلك، والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع الملك...).[٧٤]

٤ ــ وتنطفئ شيئا فشيئا في نفوس الأبناء جذوة الشجاعة والحماسة والاندفاع للسير في مسالك المجد ومراميه وتتراخى هممهم، وتخور عزائمهم، ويعجزون عن الوفاء بما يقتضيه بقاء حال القوة والمنعة ورهبة الجانب لكيانهم السياسي، والازدهار والتقدم لعمرانهم، وعن الالتزام بما يلزم عن ذلك ويلازمه من ضرورات وواجبات وأعمال والتزامات، وتفسد عصبيتهم ويألفون التبعية والانقياد، ويسندون أمر القيام على شؤونهم الخاصة والعامة إلى غيرهم وقد (ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم، والحامية التي تولت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم، والحرز

الذي يحول دونهم، فلا تهيّجهم هيعة ولا ينفرد لهم حيد فهم غارون آمنون، قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أي مسواهم، حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة).(٧٥)

٥ ـ ومع مجمل تلك الأحوال يتراجع شأن الدولة ويتقلص نفوذها. وتبدأ خطوات زوال مظاهر ودلالات الازدهار التي تزدهي بها أحوال عمرانها، وغياب أشكال وأحوال التقدم التي تعبر عن عظمة حضارتها ومجدها. ومن ثم يأتي عليها في أخر الأمر الزوال وذلك لأن(من كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة).(٧٦) و(لأن من طبيعة الملك الدعة والسكون).(٧٧) و(من طبيعة الملك الترف).(٧٨) أيضاً و(منها الانفراد بالمجد).(٧٩) و(إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والطاعة، أقبلت الدولة على الهرم).(٨٠)

وهكذا تأخذ عوائد الترف والإسراف في الرقة وغيرها. بما هو قائم من أحوال الارتقاء والتقدم. التي كانت تشمل مختلف عوامل قوة الجماعة وأسباب تماسك كيانها. فتغدو الدولة مع ذلك محط أنظار الطامعين فيها من جيرانها والطامعين بالملك من أبنائها، وتكثر الحروب وتشتد الفتن والانتفاضات (٨١) و(يستظهر صاحب الدولة على قوته وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين).(٨٢) و(تضرب المكوس وتكثر الضرائب).(٨٣) ويقل الإقبال بحماس على الأعمال والسعي لكسب الرزق وتحسين الأحوال جراء ما يلقى الناس من ألوان الاستغلال لجهودهم وأموالهم، وتكثر الشكوى من واقع الحال. وتظهر أشكال الظلم ومظاهر الاستبداد والعدوان في مختلف المناحي والأعمال والأقوال ومع ذلك(يؤذن الظلم بخراب العمران).(٨٤)

٦ ـ وبوجه الإجمال يؤدي مجمل ما تقدم من أحوال أصبحت عليه أوضاع الدولة والعمران إلى انطفاء النجم وزوال الأيام، وتبدل أحوال الفكر والواقع للعمران

بكاملها، ولطبائع الأفراد وسبل تحصيلها لمعاشها.(...فتذهب خشونة البداوة. وتضعف البسالة، وينعمون فيما أتاهم الله من البسطة، وتنشأ بنوهم وأعقابهم في ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم، ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية، حتى يصير ذلك خلقاً لهم وسجية، فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم بتعاقبهم إلى أن تنقرض العصبية، فيأذنون بالانقراض، وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء، فضلاً عن الملك، فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسرة من سورة العصبية التي بها التغلب، وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة والتهمتهم الأمم سواهم).[85]

هكذا تقوم الدول وتتعاقب حضارات الأمم على اختلاف الأمكنة والأزمنة عند ابن خلدون، وعلى النحو ذاته يسطع نجم إحداها إذ تغرب شمس الأخرى، فإذا يأفل نجم الدولة ويخبو وهج حضارتها، تظهر من جديد ـ حسب ابن خلدون ـ قبيلة أخرى ذات عصبية، أو يتقدم شعب آخر لم يبلغ به الترف والتفنن بالملك ونوافل الحضارة ذلك المبلغ، فينقض على المدينة التي أنهكها الترف وضعفت عصبية أبنائها، وينشئ دولته مستحوذاً على المجد من جديد، وممتلكاً لمختلف أسباب القوة التي تجعل له السيادة والاستقرار لمدة من الزمن، تستغرق دورة حياة حضارته ثم يأفل نجمه هو الآخر، وذلك (أن العمران كله من بداوة، وحضارة، وملك، وسوقه، له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من المكونات عمر محسوس.)[86].

وهكذا نصل مع الرؤية الخلدونية في علاقة الدولة والحضارة بمختلف جوانبها إلى القول:

١ ـ إن الدولة والحضارة هما في حقيقة الأمر عند ابن خلدون وجهان متلازمان أبدا لعملية واحدة، عملية تقدم الجماعة البشرية عبر التاريخ، عملية هي في جوهرها تصور للمصير الإنساني يكررها بلا انتهاء الأفراد والجماعات والدول

والحضارات على مر العصور. من البادية إلى الحضارة يخرج الإنسان بفضل الصراع المتواصل الذي يعبر سبيله عبر تجدّدة نحو وضع إنساني أفضل يخوج من حال هو فيه في أبسط أحواله وأدناها خاضع لمختلف أشكال الضرورة الطبيعية ـ الفيزيقية منها والحياتية المعاشة إلى حال تتفتح فيها إمكانياته الحضارية، وتتحقق فعلا بمختلف جوانبها السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الفكرية، الأخلاقية...وفيها يغترب ـ إن جاز التعبير ـ على التدرج عما صنعته يداه وإرادته.

٢ ـ إن الرؤية الخلدونية لكيفية قيام الدول والحضارات، وإن كانت تنسجم وحدود المحيط الذي عايشه العرب والبربر ومن سواهم من الشعوب التي تشبهها في التكوين وطبيعة الحياة. فهي لا تصلح كما أراد لها صاحب المقدمة لتفسير كيفية قيام الدول والحضارات أيا كانت الشعوب والأمم التي تقيمها وعبر مختلف الأمكنة والعصور.

٣ ـ إن ابن خلدون في قراءته الفلسفية لآلية التطور الاجتماعي الحضاري للجماعة البشرية عبر التاريخ. هو أول من صاغ قانونا تنتظم فيه سيرورة ذلك التطور، تاركا فيه للإنسان نفسه وعلى مختلف المراحل مهمة صنع تاريخه وبناء صرح حضارته، مستبقا بذلك وبقرون فيكو (١٦٦٨ ـ ١٧٤٤) الذي كان أول من صاغ قانونا لتفسير آلية قيام الدول وتعاقب الحضارات في الفكر الغربي، ولم يستطع في تحديده لطبيعة الدور الأول منه ـ دور الآلهة ـ أن يتحرر من إرجاع شؤونه لأمر العناية الإلهية.

٤ ـ لم ترق محاولة ابن خلدون قراءة سيرورة قيام الدول والحضارات وآلية تعاقبها. عبر التاريخ قراءة فلسفية تاريخية إلى فكرة تعاون الأمم والأجيال والحضارات في بناء صرح حضاري إنساني واحد، تسهم فيه كل منها بحسب ظروفها. لكنها نبهت إلى إمكانية قيام دراسة متكاملة متماسكة للتاريخ الحضاري الشامل على

أساس تكاملي عام، لا تهمل فيه التواريخ الخاصة للأمم والشعوب والحضارات ولا تجمعها جمعا كميا وحسب، بل تقف عند نقاط تواصلها و تفاصلها وتكشف عن أوجه تقاربها وتباعدها، واختلافها وتشابهها أيضا.

٥ ـ لقد استطاع ابن خلدون في إرجاعه أمر قيام الدول والحضارات وبلوغها أوج مجدها، ومن ثم انهيارها إلى وحدة من العوامل يختلف حجم الدور الذي يلعبه كل منها في تحقيق ذلك، أن يفلت من أسر النظرة الوحيدة الجانب لتفسير ذلك ـ كالإرجاع إلى العناية الإلهية كما عند القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) أو إلى عامل التقدم العلمي كما عند كوندرسيه (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤م) أو إلى العامل المادي كما عند كارل ماكس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣م) ـ وأن يكشف النقاب عن بعد جديد في مجال الدراسة هذه ـ البعد المادي ـ فقد نظر إلى هذا الجانب بوصفه عاملا أساسيا في مجمل التكوين الشامل لعملية قيام الدول والحضارات، وكيفية انهيارها.

٦ ـ لقد أرسى ابن خلدون في تفسيره لآلية تقدم الجماعة البشرية عبر التاريخ أساسا لقيام صرح عميق للفكر الاجتماعي ـ الحضاري الذي يعتمد قانونية التطور التدريجي والسير الاجتماعي المتوصل للجماعة البشرية وينظر لمجمل ذلك نظرة حركية تطورية، تسمو بصاحبها إلى مقام رفيع جدا بين جميع المفكرين والفلاسفة لاعتباره أن قيام ذلك، وتحققه إنما يعود في جوهره إلى ضرورة داخلية موضوعية ـ وإن لم يأخذ ابن خلدون بالمعنى الآلي لما تحمله هذه الكلمة ـ تقتضيها وتؤدي إليها أحوال الجماعة البشرية ذاتها في كل مرحلة من مراحل حياتها، وفي كل وضع من الأوضاع التي تكون عليها.

٧ ـ لقد استطاع ابن خلدون أن يكشف ـ وإلى حد كبير ـ عن عوامل قوة الدول والحضارات ومواطن الضعف فيها. وأن يطرح مختلف مسائلها وشؤونها ـ وإلى حد كبير أيضا ـ مشكلات واقع حياة الأمم والشعوب التي استقى أمثلته

من تاريخ دولها وحضارتها ــ وعلى الأخص الدولة والحضارة العربيتين ــ طرحا جديدا محفوفا بالآفاق والتوقعات العلمية بالنسبة لعصره والعصور الأخرى، طرحا جديدا يمكننا معه القول كأن ما قدحت به عبقرية ابن خلدون من آراء في تبيان ذلك يقرأ ويخاطب أيضا واقع حالنا العربي الراهن، بما وصلت إليه أحوال واقع الحياة فيه والفكر من انكسارات وأزمات تكاد تشمل مختلف جوانبها.

٨ ــ لمجمل ما تقدم نقول : مهما حرصنا على مراعاة المساحة الزمنية التي تفصلنا عن الظرف الاجتماعي التاريخي للعمران الذي عاش به ابن خلدون، ومهما كانت الثغرات التي تشوب رؤيته لطبائع الدول والحضارات وآلية تعاقبها عبر التاريخ، فإن جلّ استقراءاته في ذلك ستبقى تثير دهشتنا وإعجابنا وتحرك تفكيرنا، الأمر الذي يدفعنا ونحن نبحث هنا في أحد كنوز ذاكرتنا ــ والتاريخ ذاكرة الشعوب ــ لأن نجعل من صورة الحضارة والثقافة فيها عاملا من عوامل نهضتنا وتقدمنا، لأن الماضي في ذاته لا يفيد إلا إذا كان انعكاسا على الحاضر، ولا قيمة لدراسة التاريخ الحاضر إلا إذا كان وسيلة لإنارة طريق الغد أمامنا.

الهوامش

١- مروة، د. حسين (**النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية**)، ج٢، دار الفارابي، بيروت ط٢، ١٩٧٩، ص٢٧.

٢- المرجع نفسه، ص٢٧.

٣- الجابري، د. علي حسين: (**عبد العزيز الدوري إسهام كبير في صياغة فلسفة التاريخ العربي المعاصر**) مجلة الجديد، دار الشروق للنشر، عمان، ١٩٩٧، ص١٣.

٤- ابن خلدون، عبد الرحمن: (**مقدمة ابن خلدون**)، تحقيق د. علي عبد الوافي، ج١، **لجنة البيان العربي**، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥، ص٣٠٦، عدد الأجزاء/٤/.

٥- الجابري، د. محمد عابد: (نحن والتراث)، دار المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٥، ١٩٨٦، ص٢٩٧، ٣١٢.

٦- تيزيني، د. طيب: (**مشروع رؤية جديدة**)، دار دمشق، دمشق، ط٥، ١٩٧١، ص٣٩٢.

٧- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٥٨٣.

٨- مرحبا، د. عبد الرحمن: (**من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة العربية**)، منشورات عويدات، بيروت، ط١، ١٩٧٠، ص٨٨٤.

٩- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٦٥٨.

١٠- البستاني، د. فؤاد: (**ابن خلدون**)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٧، ص ت.

١١- الخساسي، د. عبد الرحمن: (**ابن خلدون في البحوث المعاصرة، دراسة في الاستشراق**)، ل د. عبد العزيز العظمة ـ الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد٣٢، عام١٩٨٣، ص١٩٩.

١٢- شيخ الأرض، د. تيسير: **(إرادة الحضارة)**، دار الفـــاضل، دمشـــق، ١٩٩١، ص٢٩ ــ ٤٥، ص٩٩ ــ ١١٥.

١٣- دي بور، (ت،ج): **(تاريخ الفلسفة في الإسلام)**، تعريب د. محمد عبد الــهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة،ط٦،١٩٥٧، ص٤١٤.

١٤- رسلان، د. صلاح: **(النظرية السياسية عند ابن خلدون)**، الفكر العربي، معهد الاتحاد العربي، عدد٧١،عام١٩٩٣، ص٥٨.

١٥- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٥٨٣، انظر أيضا ٥٧٧ ــ ٥٧٨

١٦- سويد، د. نافذ: **(ابن خلدون الفيلسوف العربي الأول)**، ط١، ٩٧ ص١٤٩ بتصرف.

١٧- لابيكا، (جورج): **(السياسة والدين عند ابن خلدون)**، تعريب د. موسى و ـة و د. شوقي الدويهي، دار الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص٤٥.

١٨- ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٦٥٨.

١٩- محمد، د. حسن محمد الظاهر: **(بحث في الفكر السياسي الإســلامي)**، مجلـــة **الاجتهاد**، العدد٢٣، دار الاجتهاد، بيروت، ١٩٩٤، ص١٣٩ بتصرف.

٢٠- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٣، ١٠٠٩.

٢١- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٣، ١٠١٠، ٦٤٤.

٢٢- **المصدر نفسه**، ص١٠٠٥.

٢٣- **المصدر نفسه**، ص١٠٥٨.

٢٤- **المصدر نفسه**، ص١١٢٤.

٢٥- **المصدر نفسه**، ص١٠٦٥.

٢٦- **المصدر نفسه**، ص١٠٥٨ ــ ١٠٥٨.

٢٧- **المصدر نفسه**، ص٩٦٥ أيضا ص٩٦٨ ــ ٩٧١.

٢٨- **المصدر نفسه**، ص١٠٣٣ ــ ١٠٣٦، ١٠٥٩ ــ ١٠٦٥.

٢٩- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٦١٤ ــ ٦١٦ مقتطفات.

٣٠- **المصدر نفسه**، ص٦٦٢.

٣١- **المصدر نفسه**، ٦٦٦، أيضا ج٣، ص٩٦٩.

٣٢- الشمالي،د. عبده: (**دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية**)، دار صادر، بيروت، ط٤، ١٩٦٥، ص٧٠٣.

٣٣- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٣٩٩.

٣٤- الحصري، د. ساطع: (**دراسات عن مقدمة ابن خلدون**)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط موسعة، ١٩٦١، ص١٥٧.

٣٥- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٦٥٦ ــ ٦٥٧.

٣٦- الجر (خليل) والفاخوري(حنا): (**تاريخ الفلسفة العربية**)، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ط جديدة، عام١٩٦٦، ص٣٣٧ ــ ٧٤٩.

٣٧- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ٦٤٢.

٣٨- ابن خلدون، **المقدمة**،ج١، ص٤٠٠.

٣٩- العوا، د. عادل: (**المذاهب الفلسفية**)، جامعة دمشق، ١٩٩٢، ص٢٠٨ بتصرف.

٤٠- هيغل: (**العقل في التاريخ**)، ترجمة د. إمام عبد الفاتح إمام، دار التنوير، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، ص١٥٥ ــ ١٥٦.

٤١- صُبحي، د. أحمد محمود: (**في فلسفة التاريخ**)، منشورات جامعة ماريونس، بنغازي، ١٩٨٩، ص١٤٠ بتصرف.

٤٢- لابيكا، (**السياسة والدين عند ابن خلدون**)، ص٤٥.

٤٣- الشيخ، د. رأفت غنيمي: (**فلسفة التاريخ**)، دار الثقافة، القاهرة، ط١، ١٩٨٨، ص٤٦.

٤٤- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٨٦٣.

٤٥- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٨٥١.د

٤٦- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٤٢٤ ــ ٤٩٢، ١١٥٧ ــ ١١٦٨.

٤٧- لابيكا، : **(السياسة والدين عند ابن خلدون)**، ص٦١٥.

٤٨- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٦١٥.

٤٩- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٣١.

٥٠- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦١٣.

٥١- **المصدر نفسه**، ج٢،

٥٢- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٤٩.

٥٣- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٩٢.

٥٤- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٣٣.

٥٥- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٣٣.

٥٦- لابيكا: **(السياسة والدين عند ابن خلدون)**، ص١٣٨.

٥٧- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٦٣٢.

٥٨- جمعة، د. لطفي: **(تاريخ فلاسفة الإسلام في المغرب والمشرق)**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٢٧، ص٢٣٣.

٥٩- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٦٢٨.

٦٠- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٣٦ ــ ٦٣٧.

٦١- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٣٧.

٦٢- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٥٧٧.

٦٣- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦١٢.

٦٤- **المصدر نفسه**، ج٣، ص١٠١٤: انظر أيضا ص٦٦٢و٦٤٤و٦٤٦، ٦٧٧ ــ ٦٧٨.

٦٥- **المصدر نفسه**، ج٣، ض١٠٠١.

٦٦- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٦٣ ــ ٦٦٦.

٦٧- **المصدر نفسه**، ج٣، ص١٠١٤ انظر أيضا١٠١٠ ــ ١٠١٦.

٦٨- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٥١.

٦٩- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٢٧ ــ ٦٢٨.

٧٠- أبو زيد، د. منى: **(الفكر الكلامي عند ابن خلدون)**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص٢٠٦.

٧١- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٥٨٤.

٧٢- ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٦٣١.

٧٣- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٣١.

٧٤- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦١١.

٧٥- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٨٨.

٧٦- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦١٣.

٧٧- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٥١.

٧٨- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٥٠.

٧٩- **المصدر نفسه**، ج٢، ٦٥٩.

٨٠- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٥٢.

٨١- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٨٢٣ ــ ٨٣١.

٨٢- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦٧٧ ــ ٦٨٠.

٨٣- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٨٣٧ ــ ٨٤٠.

٨٤- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٨٤٩ ــ ٨٥٤.

٨٥- **المصدر نفسه**، ج٢، ص٦١١.

٨٦- **المصدر نفسه**، ج٣، ص١٠١٠.

الصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب

في العصر الإسلامي

أسسها، مظاهرها ونتائجها على البلدين

الدكتور ابراهيم القادري بوتشيش

جامعة السلطان قابوس ــ كلية الآداب ــ قسم التاريخ

الصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب في العصر الإسلامي

أسسها، مظاهرها ونتائجها على البلدين

ملخص

احتلت عملية المبادلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب في العصر الإسلامي الوسيط مكانة متميزة، لذلك سعينا في هذا البحث إلى تحليلها عبر ثلاث محاور:

في المحور الأول، تم تحليل الأسس التي ارتكزت عليها العلاقات التجارية بين الجانبين، فتبين أن الموقع الاستراتيجي لكل من عمان والمغرب، وتكاملها الجغرافي الذي ربط الخليج العربي بالبحر المتوسط، وتعدد الطرق التجارية، وتشجيع أرباب الدولة في البلدين، وما ساد فيهما من أمن واستقرار، واستناد المعاملات التجارية على مرجعية دينية سليمة، إلى جانب مهارة الإنسان العماني والمغربي وعلو كعبهما في مجال الملاحة والتجارة، فضلاً عن الروح الأخلاقية التي طبعت تجار البلدين ونجاح الحركة الأباضية في تأسيس دولة أباضية بالمغرب الأوسط، كل ذلك شكل اللبنات التي قامت عليها الصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب.

أما المحور الثاني، فقد تمت فيه دراسة المبادلات التجارية وفاعليتها، فتم -اعتماداً على نصوص متنوعة- إبراز توافد التجار العمانيين على المغرب والسلع التي كانوا يحملونها معهم إلى الأسواق المغربية، فتم عرض هذه السلع وكيف تمكنت الأسواق المغربية من امتصاص الحركة التجارية المكثفة. وأبرزت الدراسة كذلك أن عمان بمواردها الاقتصادية جلبت اهتمام التجار المغاربة الذين قصدوا مدنها خاصة صحار ودبا وحملوا إليها كل أنواع السلع المغربية.

بينما خصص المحور الثالث لتحليل أثر المبادلات التجارية في تطوير البلدين على جميع المستويات، فأبرزنا على مستوى الأثر الاقتصادي أن التبادل التجاري بين أباضية المغرب وعمان مكّن من تنمية اقتصاد البلدين وانتعاش الأسواق وتوفير رؤوس أموال ضخمة بفضل ذهب السودان. وقد تمكنت عمان على الخصوص من كسب قاعدة اقتصادية هامة في المغرب الإسلامي مكنتها من مدّ حركتها التجارية نحو السودان الغربي والشرق الأقصى على السواء، وأصبحت العملة تضرب بعيار الذهب في المدن المغربية. وانعكس أثر الصلات التجارية على المجال العمراني فكثر بناء الدور و المرافق الاقتصادية وتحضرت المدن، وتمخض عن ذلك نمو ديموغرافي بسبب إقبال التجار من مختلف الجنسيات على البلدين مصاحبين معهم عائلاتهم أحياناً.

أما على المستوى السياسي فإن عمان-بفضل أحكام صلتها ببلاد المغرب- حرّمت السلطة العباسية من موارد هذه المنطقة،فزادت من إضعافها وبالتالي دعّمت استقلالها. كما زاد المذهب الأباضي انتشاراً ووصل إلى بلاد السودان.

وتأثر المجال الثقافي كذلك بالحركة التجارية إذ كان معظم التجار من العلماء الأباضيين، مما ساهم في شيوع الحركة العلمية في البلدين معاً.

انصبّ اهتمام معظم الباحثين في حقل التاريخ العماني على معالجة القضايا السياسية والمذهبية للحركة الأباضية أكثر من اهتمامهم بجوانبه الاقتصادية، خاصة المجال التجاري[1]، رغم ما يكتسبه هذا المجال من أهمية بالغة في المشروع السياسي للدعاة الأباضيين، حيث كان هؤلاء يقومون بالدعوة لمذهبهم، متسترين وراء التجارة للتمويه على خصومهم السياسيين، والإفلات من بطش الأمويين والعباسيين، حتى أن معظم المناطق التي لجأوا إليها أصبحت فيما بعد نواة لمراكز تجارية قوية شكلت خانة هامة في خارطة الاقتصاد الإسلامي[2].

كما أن التجارة نفسها شكلت مورداً هاماً استندت عليه الدعوة الأباضية لتموين ذاتها وخلق قاعدة مادية تكفل لها فرص النجاح، خاصة أن الدعاة العمانيين المتواجدين في البصرة كانوا يحرصون كل الحرص على تثبيت أقدام حركتهم بالمال الحلال المشروع، فوجدوا في التجارة هذا المبتغى الذي ينسجم مع مبادئهم الدينية. لذلك يخيل إلينا أنه من الصعب الفصل بين الدعوة الأباضية والنشاط التجاري الذي اضطلع به رجالها، ولا غرو، فإن أحد المستشرقين المتخصصين في المذهب الأباضي عدّ الكتب المذهبية الأباضية ذاتها مصدراً لدراسة النشاط التجاري لأباضية المغرب ببلاد السودان.[3] وفي نفس المنحى، خلص أحد الباحثين[4] إلى القول بأنه «لا يسمح أبداً بوضع حدّ فاصل بين الدور الذي قام به التجار من جهة، وبين العلماء ودعاة الإسلام من جهة أخرى». وتتضح وجاهة هذا القول إذا علمنا أن التجار الأباضيين دأبوا على نهج قاعدة المزج بين ممارسة التجارة ونشر الإسلام في الأصقاع التي كانوا يرتادونها.

وإذا كان ارتباط النشاط التجاري بالدعوة الأباضية حقيقة لا يرقى إليها الشك، فإن الأبحاث المعاصرة تكاد تخلو من أي محاولة للنبش في العلاقات التجارية بين عمان وبلاد المغرب التي نشط فيها الدعاة الأباضيون[5]. كما أن المصادر التاريخية- بما في ذلك المصادر الأباضية – لم تفصح "للأسف بما فيه الكفاية" عن الدور التجاري

للدعاة العمانيين في مختلف المواطن التي حطوّا فيها الرحال، ومن بينها بلاد المغرب التي تهمنا في هذا المبحث، وهو أمر مألوف لمن عرك تاريخ البلدان الإسلامية النائية الواقعة في أطراف دار الإسلام، فالنصوص تتّسم بالعموميات والتشتت، وتقتصر على ذكر النتائج، ولا تسمح للباحث بتكوين فكرة شمولية عن السلع المتبادلة بين تجار عمان ونظرائهم في بلاد المغرب. كما أنها لا تميط اللثام إلا بكيفية شاحبة عن تواجد بعض التجار العمانيين في المغرب، مما يجعل مهمة الباحث شاقة وعسيرة، وما عليه إلا أن يعمل على لمّ شتات النصوص المبعثرة في أمهات المصادر من كتب وسير مشايخ ونصوص البلدانيين والرحّالة، ويسبر غورها بمنتهى الدقة والصبر حتى يكوّن لها صورة عن واقع الصلات التجارية بين البلدين.

في ضوء هذه الرؤية، سيتم التركيز في هذه الدراسة على الأسس التي قامت عليها هذه العلاقات التجارية، لنعالج بعد ذلك مظاهرها وما أفرزته من آثار اقتصادية وعمرانية وسياسية ومذهبية وثقافية على كل من عمان والمغرب، وذلك خلال المرحلة الممتدة من القرن الثاني الهجري حتى الثامن.

أولاً: أسس الصلات التجارية:

من نافلة القول أن عمان أقامت علاقات تجارية مع بعض القوى الاقتصادية العالمية خلال العصر الإسلامي، بيد أن بلاد المغرب حظيت بنصيب من اهتمام التجار الأباضيين العمانيين لأسباب تاريخية واستراتيجية لا تغرب عن كل من سبر غور الحركة الأباضية. فقد عولت هذه الحركة على خطة استراتيجية تقوم على نشر المذهب في الأصقاع النائية بعيداً عن عيون الخلافتين الأموية والعباسية اللتين كانتا تتربصان بها الدوائر، فوجدت في بلاد المغرب التربة الخصبة الملائمة[٦]، محققة بذلك هدفاً مزدوجاً يتمثل في تحقيق فرص نجاحها في هذه المنطقة النائية من جهة، وتموين الدعاة بعائدات التجارة من جهة أخرى، فضلاً عن كسب بلاد المغرب كقاعدة

أساسية للوصول إلى بلاد السودان الغربي موئل تجارة الذهب. لذلك يمكن اعتبار هذا الأساس السياسي الاقتصادي من بين أبرز الأسس التي ساهمت في وضع اللبنات الأولى للصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب.

ومما زاد في تعميق أواصر الترابط التجاري بين البلدين، موقعهما الجغرافيان اللذان يعدّان من أهم مواقع المراكز التجارية الدولية آنذاك، فعمان بإشرافها على الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي، وكونها بوابة الشرق، شكلت مركز استقطاب للتجارة العالمية. كما أن معظم شواطئها محاط بجبال تحميها من الرياح القوية، مما ساهم في نشوء الموانئ، وأهلّها لتكون المركز الرئيسي للساحل الغربي من الخليج[٧]، فأصبحت هذه الموانئ تشكل مناطق عبور للسفن التجارية الذاهبة أو العائدة من شرق آسية إلى البحر المتوسط، ولا غرو فإن المقدسي[٨] الذي لم تكن محاباته محل شبهة، عدّ مدينة صحار بمينائها البارز «قصبة عمان ليس على بحر الصين اليوم بلد عامر آهل حسن، طيب نزيه ذو يسار وتجار..وهي دهليز الصين وخزانة المشرق». كما أن مسقط كانت ميناء هاماً لانطلاق السفن نحو الصين والهند[٩]. أما البصرة التي تحولت إلى مدينة عُمانية بفضل هجرة العمانيين إليها[١٠] واستقرار بعض الأسر العمانية كبيت بني المهلب في ربوعها، وانتشار الأباضية فيها، فقد احتلت موقعاً تجارياً مهماً، وحسبنا وصف المصادر لها بأنها «مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها»، و«فرضة البحر ومطرح البر»[١١]، لذلك كانت هذه المدن تهيمن على تجارة البحار الثلاث: بحر الصين، والمحيط الهندي والبحر المتوسط فضلاً عن اتصالها بشرق أفريقية وبحر الزنج عن طريق جزيرة قنبلو (مدغشقر)[١٢]، وهو ما جعل عمان مؤهلة للقيام بدور الوسيط التجاري بين الشرق الأقصى وشبه الجزيرة العربية وأفريقية الشرقية، لذلك لم يحد عن الصواب أحد الباحثين[١٣] حين ذكر بأنها فتحت خط المواصلات البحرية بين الشرق والغرب. ولا أدل على أهمية موقعها الجغرافي من أنها لعبت دوراً دولياً ريادياً في تطوير "طريق البخور"[١٤]. ولا يخامرنا شك في أن موقعها على البحار

الثلاث جعل منها قوة بحرية متميزة[١٥]، ومن ثم لا نتفق البتة مع حكم "ولكنسون"[١٦] الذي ذهب إلى القول بأن ازدهار القوة البحرية العمانية «كان يقوم على أسس واهية لأن نظام الدولة العمانية ينطلق من أسس قبلية وليس من أسس دولية أو ملاحية». فعلى عكس هذا التصور، يظهر أن المواصفات الموقعية التي ذكرناها جعلت من عمان قوة تجارية وبلداً قابلاً للاعتماد على نفسه اقتصادياً[١٧]، خاصة بحكم وجوده على الخليج الذي يعدّ دون منازع أهم بحر داخلي في العالم[١٨]، ولا يخامرنا شك في أن هذا الموقع المتحكم في ناصية التجارة الدولية ما جعل عمان تتعرض لتحرشات الدولة العباسية التي فطنت إلى خطورة سيطرتها على المعابر المائية الهامة، فحاولت إحكام قبضتها عليها حتى لا يتخلخل الاقتصاد العباسي. ولم تكن الحملات العسكرية التي سيّرها هارون الرشيد نحو عمان سنة ١٨٩هـ والحملات التي تبعتها، خاصة الحملة البربرية التي قادها محمد بن نور[١٩]، إلا محاولات سعت للحيلولة دون احتكار عمان لموقعها التجاري، خاصة التجارة البحرية، كما يذهب إلى ذلك ولكنسون نفسه مناقضاً طرحه السالف الذكر[٢٠].

وعلى غرار عمان، احتل المغرب بدوره موقعاً استراتيجياً متفرداً في الخارطة التجارية،فإحاطته بالبحار من ثلاث جهات، ووجود موانئ صحراوية على تخومه الجنوبية، ما جعل ابن خلدون[٢١] يسميه بجزيرة المغرب.

ولا ريب أن إشرافه على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، وامتداده نحو أفريقية السوداء، كل ذلك جعله يتحكم في شرايين التجارة المتوسطية الغربية، فضلاً عن تجارة ذهب السودان التي كانت تشكل أهمية قصوى في التجارة العالمية، الأمر الذي جعله يلعب دور الوسيط التجاري مع أوروبة، وهو ما أفضى في نهاية الأمر إلى وجود تكامل جغرافي بين عمان والمغرب عبر خط يربط بين القارات الثلاث آسية وأفريقية وأوروبة.

إن استراتيجية الموقع الجغرافي للبلدين، فضلاً عن تكاملهما الذي جاء نتيجة بعد الواحد منها عن الآخر، واختلاف نوعية السلع والبضائع التجارية لكل منهما، شكل في نظرنا إحدى الأسس الهامة التي قامت عليها الصلات التجارية بين الطرفين.

بيد أنه لا يمكن إغفال أساس آخر يتمثل في الجانب البشري، ويتعلق الأمر في هذا المقام بمهارة الإنسان العماني في مجال الملاحة والتجارة. فالحفريات والتنقيبات الأثرية أثبتت بجلاء دور منطقة الخليج عامة وعمان بصفة خاصة في ميدان الملاحة والتجارة منذ عصور ما قبل الإسلام(٢٢). كما أن الكتابات السومرية التي تعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد أكدت علو كعب العمانيين في الملاحة البحرية، إذ ورد ذكر عمان باسم "ماجان"، وهو مصطلح سومري يعني القوم الذين يركبون البحر(٢٣).

وبعد الفتح الإسلامي، أصبح التاجر العماني أكثر حيوية، لأن الإسلام شجع التجارة والتجار، حتى أنه نسب إلى الرسول (ص) قوله: «من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان»(٢٤).

ونتيجة لذلك تطورت صناعة السفن تطوراً هائلاً (٢٥) وتعددت رحلات العمانيين وتكثفت أنشطتهم شرقاً وغرباً (٢٦)، وهو ما جعل التجارة العمانية تدخل منعطفاً حاسماً ذا بعد عالمي حضاري.

لقد بات بديهياً بعد هذه النقلة الإسلامية أن تزيد الموانئ العمانية ازدهاراً ويتعاظم نشاطها لتلعب دوراً موجّهاً في التجارة الدولية(٢٧)، ولا غرو فإن إمام عمان غسان بن عبد الله اليحمدي أنشأ أسطولاً لحماية السواحل العمانية وتجارتها البحرية(٢٨)، وقد بلغ هذا الأسطول في عهد الإمام المهنا بن جيفر ٣٠٠ سفينة (٢٩). والواقع أن انتشار الإسلام وامتداده من المحيط إلى أقصى تخوم الصين، أعطى للتجارة العمانية والمغربية معاً دفعة جديدة وشكّل منعطفاً هاماً في تطورها، وتلك حقيقة ينبغي وضع الأصبع عليها، ذلك أن مؤسسة الخلافة بعد أن بسطت نفوذها على أقاليم شبه الجزيرة

العربية وأغلب سواحل البحر المتوسط، أصبحت تهيمن على شرايين الطرق البحرية والبرية. كما أن توحيد المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط تحت السلطة العربية- الإسلامية أسفر عن وحدة البحز المتوسط مع بحر الخليج، وهو ما أدى بدوره إلى تقارب تجاري بين عمان وبلاد المغرب. كما أن هيمنة الدول العربية وبسط نفوذها على هذا المجال السياسي وفرض السلام والأمن وإزالة الحواجز والعقبات مكّن من تحويل التجارة نحو منطقة الخليج. وقد فطن أحد الباحثين [٣٠] إلى أهمية هذا التحول فذكر أن طريق الخليج لا يموّن أقاليم المشرق فقط، وإنما يموّن كذلك بلاد البحر المتوسط وأوروبة لأنه أقصر، ولا شك أن هذا التحول الذي ربط بين هذين المجالين البحريين زاد من تقريب الشقة بين عمان وبلاد المغرب.

وقد أشاد برزك بين شهريار المتوفي في منتصف القرن الرابع الهجري بمهارة العمانيين وعلو كعبهم في مجال الملاحة البحرية وبروز دور العديد من ربابنة البحر مثل يزيد العماني وغيره من النواخذة والملاحين [٣١]، لذلك بات طبيعياً أن تصبح عمان مركز جذب لتجّار الآفاق، وهو ما فطن إليه الجغرافيون، فذكر المقدسي [٣٢] أن «من أراد التجارة فعليه بعدن أو عمان أو مصر». وأشار الإدريسي [٣٣] إلى الدور المركزي الذي صارت تلعبه عمان بالنسبة للسفن الوافدة من البصرة، فذكر أنه «إذا وصلت المراكب الصاعدة من البصرة إلى عمان ووصلت إلى هذا الحد فرّغت في الساحل ما فيها من الأمتاع حتّى تخف السفينة وتجوز ذلك الطرف ثم توسق بعد ذلك وتسير إلى عمان». نفس الملاحظة وقف عندها ابن بطوطة[٣٤]، فعندما زار ظفار في القرن الثامن الهجري وتأمل في عادات أهلها وأحوالهم وأنماط معيشتهم خلص إلى القول بأنهم «أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها». ولم يفت الباحثين المعاصرين التنويه بمهارة العمانيين في مجال الملاحة البحرية والتجارة أبان مختلف حقب التاريخ الإسلامي، وهي ميزة ورثها هؤلاء عن أجدادهم السبئيين[٣٥]وساعدهم ذلك معرفتهم الدقيقة بمواعيد الرياح الموسمية الشمالية والجنوبية والإفادة منها في تحديد مواقيت

رحلاتهم التجارية. وبفضل هذه المهارة تمكّن العمانيون من إنشاء قوة بحرية في الأندلس، ساهمت بنصيب وافر في النشاط التجاري مع بلاد المغرب(٣٦).

إلى جانب ذلك كان للعمانيين كل المواصفات والمؤهلات التجارية الكافية من حب الرحلة والمغامرة لكسب الربح، وتكوين رؤوس الأموال الضخمة، فلم يتوانوا عن الذهاب إلى أقصى المناطق التجارية كالصين. وفي هذا الصدد، نستشف من بعض الأدبيات الصينية مثل كتاب «السجل المختصر لسهول التنين» الذي ألفه سوزاي من أسرة سون أن أحد العمانيين المتواجدين في مدينة كانتون الصينية كان له رأس مال ضخم قدّر بعدة ملايين "مين"، في الوقت الذي بلغت التجارة الخارجية لحكومة أسرة سون – وهي في قمة ازدهارها– دخلاً لم يتجاوز مليونين من هذه العملة. ويستشف من ذلك أن ثروة هذا التاجر العماني فاقت دخل التجارة الخارجية السنوية لحكومة أسرة سون(٣٧). وعندما تحدث الإدريسي (٣٨) عن أهل ظفار، وصفهم بأن لهم «فضول أموال وبضائع»، وهو نص كاف للدلالة على ما كان يملكه أهل هذه المدينة من رؤوس أموال هامة تزيد عن الحاجة. ولا يساورنا شك أن نفس الوضعية كانت لدى التجار العمانيين في بلاد المغرب، خاصة أولئك الذين مارسوا تجارة الذهب في الواحات المغربية، فأصبحوا أثرياء كما سنبين في محلّه. لذلك لم يكن غريباً أن يمتلك بعض التجار الأغنياء مراكب خاصة كانوا يجوبون بها البحار أو يؤجرونها لوكلائهم، وهو ما تؤكده النصوص(٣٩).

ومن الأسس الهامة التي ساهمت في تدعيم الصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب كذلك، تعدد الطرق التجارية الرابطة بين البلدين، وكانت مصر تشكل حلقة وصل بينهما، حيث كان التجار العمانيون يرتادون الطرق المؤدية إليها، ومنها يواصلون السير نحو الديار المغربية.

ويسهب الجغرافيون في ذكر الطرق المنطلقة من عمان نحو مصر ومنها نحو المغرب. فابن خرداذبة(٤٠) يتحدث عن طريق بري يربط البصرة بعمان عن طريق

قطر وساحل هجر ثم يصل إلى عمان، ومن هناك يتجه عن طريق الساحل إلى عدن ثم إلى مكة ومنها إلى مصر ثم المغرب.

وثمة طريق بحري يربط بين البصرة -قاعدة الأباضيين- وميناء جدة الذي يعبر إليه التجار بطريق آخر، ويشكل هذا الميناء بدوره منطقة عبور نحو مصر ثم بلاد المغرب(٤١).

كما وُجد طريق بحري هام يبدأ من البصرة عبر الخليج العربي إلى عمان حتى يصل إلى مراكز البحر الأحمر ومنها إلى شرق أفريقية ثم يصعد إلى القيروان ومنها إلى تاهرت وسجلماسة.

وهناك إشارات وردت عند ابن حوقل(٤٢) حول سلوك تجار المشرق عموماً هذا الطريق البحري، ناهيك عن طريق بري آخر يربط عمان بعدن، ومن هناك يتفرع طريقان بريان أحدهما ساحلي والآخر داخلي نحو ميناء جدة والجار، الذي يعدّ همزة وَصل بين عمان ومصر والمغرب(٤٣)، مصداق ذلك وصف المقدسي(٤٤) لجدة بأنها خزانة مصر، حيث كان ميناء السويس محطة استقبال السلع المغربية نحو عمان(٤٥). وفي نفس المنحى يشير القلقشندي(٤٦) إلى طريق يربط عمان بمصر حيث يمكن الوصول بسهولة إلى المغرب عبر طريق آخر يربط الإسكندرية بتاهرت.

فضلاً عن ذلك وجد طريقان آخران يربطان بين مصر وعمان والبصرة مقر الدعوة الأباضية، أولهما الطريق البحري الرابط بين ميناء القلزم (السويس) وزبيد وعون مباشرة عبر البحر الأحمر، وثانيها الطريق المار عبر النيل أو على شاطئه حتى مدينة قوص في أعالي مصر ومنها إلى عيذاب وجدة(٤٧). ووجود مصر على ساحل البحر الأحمر سهل مأمورية اتصالها البحري بكافة بلاد المغرب، بواسطة ميناء الإسكندرية الذي يربط باقي موانئ المغرب. وأيضاً كان ثمة إمكانية للاتصال البري بواسطة الطريق الذي يخرج من الفسطاط والقاهرة والإسكندرية ومنها إلى برقة وإفريقية ثم

بقية بلاد المغرب، ناهيك عن طريق آخر كان ينطلق من الفسطاط والقاهرة إلى المغرب مباشرة دون الإسكندرية [٤٨].

وبالمثل كانت مصر على اتصال وثيق ببلاد المغرب عبر الصحراء الليبية التي تشكل معبراً لتجار عمان الراجعين من فزان، زويلة والسودان أو أباضية المغرب من هوارة الرابضة في شرق طرابلس، والتي كانت تجوب الصحراء ذهاباً وإياباً بين المدن الرستمية في المغرب الأدنى والأوسط ومصر محملة بالبضائع الرستمية والمصرية[٤٩].

يضاف إلى ذلك أن مدينة تاهرت مركز الأباضية في بلاد المغرب كانت توجد على طريقين من أشهر الطرق التجارية في ذلك الوقت، وهما طريق الشرق-غرب وطريق الجنوب – شمال، مما هيأها لكي تكون مركزاً أساسياً للتبادل التجاري بين السودان والمغرب والمشرق[٥٠].

من خلال كل هذه القرائن، يتأكد أن الطرق التجارية بين عمان والمغرب تكثفت وتنوعت ما بين طرق برية وبحرية وصحراوية، وأن مينائي جدة والقلزم كانا همزة وصل ساعدت على تنقل التجار بين البلدين.

وإذا كانت الطرق التجارية تعدّ من الأسس الهامة التي ساهمت في بناء صرح الصلات التجارية بين المغرب وعمان، فإن الأسس السياسية ساهمت بدورها في هذا المجال. وحسبنا أن الأباضية نجحوا في تأسيس دولة أباضية في المغرب الأوسط وهي الإمارة الرستمية التي أصبحت لها نفس التوجهات السياسية والمذهبية، فأصبح كل طرف منها "وطناً" ثانياً للطرف الآخر، ولا غرو فقد توحدت الرؤى السياسية، وأصبح أعداء وأنصار هذه الدولة نفس أعداء وأنصار الدولة الأخرى. وقد عبّر الإمام الأباضي محبوب بن الرحيل عن هذه الوحدة السياسية أصدق تعبير بقوله: «وكانت المحكمة واحد لوحكم رجل في المغرب تولاه من كان منهم بالمشرق ولو حكم

بالمشرق تولاه من كان بالمغرب»[٥١]. ومثل هذه الوحدة السياسية التي نسج خيوطها المذهب الأباضي، شجعت تنقّل التجار بين عمان والمغرب بنوع من الحرية والطمأنينة. فصارت تاهرت عاصمة الرستميين قبلة للتجار العمانيين الذين انتقلوا إليها من البصرة. وفي هذا المعنى يشير ابن الصغير[٥٢] إلى المسجد الذي شيدوه بها والمعروف «بمسجد البصريين».

كما أن توسع هذه الدولة الأباضية الفتية ساعد على تمتين صلاتها التجارية بعمان، فقد كانت حدودها تمتد في الشمال الشرقي إلى طرابلس وسرت وبرقة، ومنها يمكن ولوج الإسكندرية فالانطلاق نحو عمان. ومن ناحية الجنوب الشرقي امتدت حدود الدولة الرستمية إلى مدينة زويلة السودانية التي اعتنق أهلها المذهب الأباضي، ومن هذه المدينة كان بالإمكان الوصول شرقاً إلى واحات مصر الغربية وجنوباً إلى الكانم والبرنو في حوض بحيرة تشاد، ومنها إلى بلاد السودان الشرقي فالحبشة والصومال فساحل شرقي أفريقية، التي كانت على اتصال دائم بعمان[٥٣].

إن تعدد شبكة الطرق التجارية التي تربط تاهرت الأباضية بمناطق التجارة العالمية حقيقة وقف عليها المؤرخ ابن الصغير[٥٤] فترجمها بقوله: «ومنها (تاهرت) استعملت السبل إلى بلاد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة، فأقاموا على ذلك سنتين أو أقل من ذلك أو أكثر والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون».

إلى جانب هذه الأسس الهامة، ساهم تشجيع الدولة الرستمية على كثافة العلاقات التجارية بين أباضية المغرب والمشرق. فأمراء هذه الدولة لم يألوا جهداً في الاهتمام بالطرق التجارية وحفر الآبار تسهيلاً لمأمورية القوافل التجارية المارة بالمناطق الداخلية في الصحراء[٥٥]. بل إن الأمراء الرستميين أنفسهم كانوا يحترفون التجارة قبل توليهم الإمارة. وعندما تولوا المسؤولية أدركوا أن قوة بلادهم لا تتحقق إلا

بها؛وفي هذا الصدد تذكر المصادر أن الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كان من كبار التجار، وأن تجارته بلغت الحجاز واليمن والبصرة، التي كان ينتشر فيها العمانيون[٥٦]، لذلك أصبح من كبار أثرياء بلده حتى أثر عنه: «لو لم أكن إلاّ أنا وابن جرني وابن زلغين لأغنينا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية» [٥٧]. ومن ذلك تتضح جلياً مساهمة الطبقة الحاكمة وعلية القوم من الأثرياء وتشجيعهم للمشروعات التجارية الاستثمارية التجارية. كما أن أفلح ابن الأمير السالف الذكر كان يعمل بنفسه في التجارة أثناء حياة أبيه، وكانت له علاقة تجارية مع البصرة، الموطن الأم للتنظيم الأباضي، وكان التبادل التجاري قائماً على قدم وساق بين البلدين سواء في عهده أو خلال عهد أبيه.

نفس القول ينسحب على الإماميين أبي اليقظان محمد بن أفلح وأبي حاتم يوسف بن محمد اللذين شغفا بالاشتغال في التجارة. وفي هذا الصدد يخبرنا ابن الصغير[٥٨] أن الإمام أفلح أوفد سفارة من قبله إلى أحد ملوك السودان وبعث إليه مجموعة هدايا حفاظاً على مصالحه التجارية.

ومن الجانب العماني، لانعدم نصوصاً تشير إلى تشجيع أباضية عمان والبصرة للتبادل التجاري مع بلاد المغرب، فقد حرص هؤلاء على إمداد الدولة الرستمية بكل الحاجيات الاقتصادية، فصارت بضائعهم ترد إلى تاهرت تباعاً. وفي نفس المنحة يخبرنا الشماخي،[٥٩] أن الربيع بن حبيب الفراهيدي، خليفة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في زعامة الأباضية، بعث صحبة أخيه كل ما يحتاجه الإمام من أصناف البضائع والسلع، فجمع الأمير الرستمي تجار البلد ليشتروا ما ورد من سلع البصرة، وعاد الأخ مزوداً بالبضائع المغربية إلى موطنه. وثمة شهادة وردت على لسان رحالة مغربي،[٦٠] شاهد بعينه تشجيع أرباب الدولة العمانية للتجارة. فوصف حرص أمير ظفار وتشجيعه للتجار على القدوم إلى بلده، فذكر أنه كلما وصل مركب من أي جهة أو منطقة بعث الأمير المذكور وفداً لاستقباله مصحوباً بهدايا «وتضرب أمامهم

الطبول وتنفخ الأبواق وتبعث الضيافة»، ثم يعلق ذلك بقوله: «وهم يفعلون ذلك استجلاباً لأصحاب المراكب». والملاحظة ذاتها أثارت انتباهه عن أهالي قلهات حيث قال عنهم: والملاحظة ذاتها أثارت انتباهه عن أهالي قلهات حيث قال عنهم: «وإذا وصل إليهم مركب فرحوا به أشد الفرح»[٦١]. وفي نفس المنحى يؤكد البكري وغيره[٦٢] تشجيع الدولة العمانية للتجار الوافدين إلى عمان عن طريق بناء الخانات، خدمة لهم وتوفيراً لراحتهم.

ومن الأسس الأخرى التي زادت من تدعيم الصلات التجارية بين البلدين، استناد المعاملات التجارية بينهما على مرجعية دينية سليمة. فقد حرص أئمة المغرب الأوسط كل الحرص على تطبيق القواعد الشرعية الإسلامية في عمليات البيع والشراء. وفي هذا السياق تجمع المصادر أن الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم منع ابنه من القيام برحلة تجارية إلى بلاد كوكو،[٦٢] لعدم تمكنه من الإجابة على سؤال من الأسئلة العديدة التي سأله إياها في مجال المعاملات التجارية كالربا والغش والبيع والشراء. فبعد أن تبيّن للإمام عدم تفقه ابنه تفقهاً كاملاً في أحكام التجارة حال دون رحلته التجارية خشية أن يدخل في قسط من الحرام إلى ماله[٦٣]. ولعل هذه المرجعية المتمسكة بحرفية الدين ومخافة الله ما جعل المتعاملين يثقون في التجار الأباضيين، فيقبلون على التعامل معهم، وهو ما ساهم في رواج الحركة التجارية بين أباضية عمان والمغرب.

يأتي بعد ذلك أساس آخر نعتقد أنه هيأ المناخ الملائم لرواج التجارة بين البلدين، وهو العدالة والأمن اللذان شعّا في كل من عمان والمغرب. فالتجارة لا تنمو وتزدهر إلا في ظل الأمن حيث يأمن التاجر على بضائعه وودائعه وعملياته الاستثمارية, والأمن لا يتوفر إلا بسيادة العدالة وابتعاد الحكام عن الطغيان والاستبداد. ولحسن الطالع، فإن عمان والمغرب حظيا بنعمة العدالة والأمن أكثر من المناطق الأخرى، وهو ما عبّر عنه مؤرخ عمان والمغرب السيابي،[٦٤] حيث ذكر أنه باستثناء أهل عمان«لا يوجد إلا

عبيد الملوك وعبيد الشهوات ورواد الظلم» ثم يضيف ما يؤكد اشتراك المغرب في هذه الميزة: «نعم يشارك أهل عمان في هذا الحال إخوانهم أهل المغرب». ويخيل إلينا أن هذا الحكم صائب إلى حد كبير كما تثبت النصوص. ففي بلاد المغرب وبعد هدوء عواصف ثورات الخوارج، خيّم جو من الاستقرار عندما تأسست إمارات مستقلة نجحت في كسر شوكة طغيان الأرستقراطية العربية، وطبقت مبادئ العدالة الإسلامية في كل من سجلماسة والقيروان وتاهرت، التي نعمت بعدل الأئمة الأباضيين، و هي حقيقة وقفت عليها المصادر. فالأمير عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم مضى «على الرضى من المسلمين والاستقامة على الدين»[٦٥] كما أن ابنه أفلح «عمل بالسنة وقسم بالسوية وعدل في الرعية»[٦٦] ولعل هذا ما حدا بأحد الدارسين[٦٧] إلى نعت هذا النمط من العدالة بـ"الاشتراكية الإسلامية". وعلى النهج ذاته سار المدراريون في سجلماسة فطبقوا مبادئ العدل والشورى حتى أنهم بايعوا رجلاً أسوداً أميراً عليهم، هو عيسى بن الأسود[٦٨]، عربوناً على عدالة العقيدة الإسلامية السمحاء، لذلك شاع الأمن والاستقرار في ربوع المغرب، رغم التوتر الذي كدّر أحياناً صفو العلاقات بين عواصم الإمارات المغربية بسبب الخلافات المذهبية؛ غير أن المصالح التجارية خلقت جواً من التسامح، فأقبل الناس على الإنتاج والبيع والشراء. وبالمثل فإن أمراء المغرب الأوسط لم يدخروا وسعاً لتوظيف الإمكانيات لإقرار الأمن. فالأمير أفلح بن عبد الوهاب اعتاد على إرسال ابنه يوسف بن أبي حاتم في جيش مع وجوه زناتة لحراسة القوافل التجارية القادمة من المشرق محملة بالبضائع والسلع مما لا يحصى كثرة وضخامة[٦٩].

وفي ذات الفترة، عرفت عمان بدورها استقراراً سياسياً وعدالة اجتماعية بعد أن أفلحت في تأسيس الإمامة، معبّرة بذلك عن سيادتها واستقلالية قرارها، ابتداءً من عهد الإمام الجلندي بن مسعود. فالمصادر تجمع على أن هذا الأخير «كان عادلاً مرضياً»[٧٠]. ورغم انهيار الإمامة الأولى وعودة تحكم الجبابرة في رقاب العمانيين،

فإن هذه الكبوة كانت قصيرة العمر، إذ سرعان ما تمكن هؤلاء من الإطاحة بهم، فتألفت القلوب وعقدت الإمامة لمحمد بن عفان، الذي كان حسن السيرة(٧١). كما أن خلفه الوارث بن كعب الخروصي «وطئ أثر السلف الصالح من المسلمين وسار بالحق»(٧٢) ونفس القول ينطبق على الإمامين غسان بن عبد الله الفجحي الذي «عز الحق وأهله»(٧٣)، ثم عبد الملك بن حميد الذي «سارسيرة الحق والعدل واتبع السلف الصالح وصارت عمان يومئذ خير دار»(٧٤) والقائمة تطول.

ومن البديهي أن ينعكس اتجاه العدالة التي طبقها الأئمة -كما تثبت النصوص- على الأمن والاستقرار والازدهار التجاري، حتى أن أحد الباحثين(٧٥) عدّ الفترة الممتدة من عهد الإمام غسان بن عبد الله الفجحي وعزان بن تميم الخروصي قمة الازدهار والاستقرار، رغم بعض الاضطرابات والنزاعات القبلية التي حدثت في عهد راشد بن النظر(٧٦).

إن الأمن والعدالة والاستقرار الذي ساد ربوع كل من عمان وبلاد المغرب،ساهم _دون شك- في خلق جو ملائم للتبادل التجاري بين البلدين وإرساء أسس وقواعد الصلات التجارية بينهما. ويمكن أن نسوق إضافة إلى ما سلف عرضه من الأسس التي هيأت التربة الخصبة للصلات التجارية بين المغرب وعمان، الأساس الأخلاقي. فإلى جانب ما ذكرنا سابقاً عن أخلاق الأئمة الأباضيين في المغرب والتي كانت انعكاساً لأخلاق الأباضيين عامة، يمكن الجزم أن التجار العمانيين حذوا نفس المنهج الأخلاقي حذو النعل بالنعل. وتنهض شهادة ابن بطوطة(٧٧) خير دليل على ذلك. فقد وصف أهل ظفار بالتواضع وحسن الخلق والفضيلة ومحبة الغرباء، وكلها صفات تحبب إلى التاجر التردد على عمان. وعند حديثه عن أهل صور وقلهات يذكر نفس الرحالة أنهم «إذا وصل إليهم مركب فرحوا به أشد الفرح» تعبيراً عن هذه الروح الأخلاقية السامية(٧٨). ومن المسلم به أن التجارة ميدان عملي تمتحن فيه الأخلاق والعقيدة والسلوك اليومي. فالمرء في صراعه مع الإغراءات المادية لا ينتصر على

هوى النفس ونوازعها نحو الربح الوفير في أيسر الطرق وأدناها إلا إذا كان يملك طاقة إيمانية ثابتة، تعصمه من الوقوع في مهاوي الرذيلة والزلل، والتجارة هي المحك الحقيقي الذي تختبر فيه القيم. ولاشك أن المغاربة كانوا يلاحظون ما تميز به تجار عمان عن غيرهم من البلدان الأخرى، مما أدى إلى الإقبال عليهم، ومن ثم كان ذلك عاملاً شجع على نمو حركة التبادل التجاري بين البلدين.

من حصاد ما تقدم، يتبين أن الموقع الاستراتيجي لكل من عمان والمغرب واقتران الدعوة الأباضية بالتجارة، ووفرة الطرق التجارية، وتشجيع الحاكمين في البلدين لحركة التجارة وانتشار العدالة والأمن، واستناد المعاملات التجارية إلى مرجعية دينية، إلى جانب القاعدة الأخلاقية التي كانت متأصلة في نفسية الأباضيين، كلها أسس قوية شكلت تربة خصبة ثبتت عليها الصلات التجارية بين البلدين، وأدت إلى نموها وفاعليتها، وهو ما سنتناوله في الشق الثاني من هذا المبحث.

المبادلات التجارية: مظاهرها وفاعليتها

نتيجة للأسس الثابتة التي أتينا على ذكرها، بات من البديهي أن ينمو ويزدهر النشاط التجاري بين عمان وبلاد المغرب. فالتجار الأباضيون من العمانيين وغيرهم فطنوا إلى أهمية العمل التجاري بهذا الجناح الغربي من دار الإسلام، إذ يشكل نقطة انطلاق نحو بلاد السودان الغربي، موطن السلع النادرة وفي مقدمتها الذهب الذي وقفوا على أهميته وبعده في التجارة بعيدة المدى[٧٩].

ومن حسن الحظ أن البيوتات التجارية في جبل نفوسة كانت ترتبط بعلاقات قوية مع مراكز السودان التجارية، لذلك وجه العمانيون وجههم شطر بلاد المغرب. نفس القول ينطبق على المغاربة الذين كانوا مولعين بالبضائع المشرقية النفيسة. وفي هذا السياق تخبرنا المصادر أن الربيع بن حبيب الفراهيدي العماني قام بعملية تجارية قيمتها اثنى عشر ألف دينار، لحساب الإمام الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، على

شكل سلع وبضائع اشتراها له من البصرة وبعث بهذه السلع مع أخ له،فلما وصل المبعوث التجاري للمغرب الأوسط، سلّم ما حمله من جهاز وسلع للإمام المذكور الذي جمع بدوره تجار تاهرت وعرض عليهم كل البضائع المرسلة لاقتناء ما شاؤوا منها(٨٠). وكان حاجب الطائي قد قام بدوره بصفقة تجارية بلغت كلفتها ثمانين ألف دينار مقارضة(٨١)، مما يدل على أن المعاملات التجارية اتخذت كل الأشكال والصيغ التي تكفل الأرباح والاستثمار كالمقارضة وغيرها كما سنبين فيما بعد.

وثمة رواية أخرى أوردها ابن سلام الأباضي(٨٢) ونقلها عنه المتأخرون، تفيد أن القوافل التجارية الآتية من المشرق، خاصة البصرة وعمان، كانت تصل تباعاً إلى بلاد المغرب. وفي هذا الصدد ذكر في ترجمة أحد أعلام الأباضية بالمغرب أنه حفظ القرآن عن طريق الالتقاء بالتجار الوافدين ضمن القوافل، حيث كان يكتب عن فوج منهم لوحة فيحفظها، ثم ينتظر فوج القافلة التي تليها إلى أن تمكن من حفظ القرآن بهذه الطريقة. ولعل هذا النص يؤكد توافد التجار العمانيين بكثافة على منطقة عدّوها وطنهم الثاني.

ويذكر الدرجيني(٨٣) أن الفقيه أبا الربيع درس بسجلماسة على يد ابن الجمع من أباضية عمان. بيد أن المهم في الرواية ما يذكره عن ابن الجمع الذي جاء إلى سجلماسة ليس كعالم فحسب، بل كتاجر أيضاً، وهو ما يعكس كذلك إقبال التجار العمانيين على بلاد المغرب. ما يهمنا من تحليل الروايتين معاً أنهما تؤكدان تدفق التجار المشارقة -وضمنهم العمانيون- على بلاد المغرب دون انقطاع. ومنها ما يستنتج كذلك أن الأسواق المغربية كانت تغص بالسلع المشرقية حيث يتم البيع والشراء في تاهرت. وبعد انتهاء العمليات التجارية، كانت القوافل تواصل رحلتها متجهة إلى المغرب الأقصى ثم الأندلس وبلاد السودان(٨٤)، وتعود من هذه البلدان محملة بالبضائع المغربية المتنوعة لتنقلها إلى مصر والشام والحجاز وبغداد وعمان وغيرها من بلدان المشرق. وكانت الجهات الرسمية تحرص على حمايتها ذهاباً وإياباً (٨٥).

ومن القرائن على شيوع التبادل التجاري بين عمان وبلاد المغرب ما أورده ابن الفقيه الهمذاني[٨٦] عن توافد تجار البصرة على السوس الأقصى الواقعة جنوب المغرب الأقصى. ومعلوم أن البصرة كانت تغص بالتجار العمانيين الذين يمموا وجههم نحو بلاد المغرب بهدف التجارة ونشر الدعوة الأباضية في الوقت نفسه.

وبالرجوع إلى المصادر الجغرافية يمكن الوقوف على أهم السلع العمانية التي كانت تصدّر إلى مختلف أصقاع العالم، وضمنها بلاد المغرب. فقد اشتهرت عمان بتصدير اللبان الذي كان يستخدم في تحضير الأدوية[٨٧]، وقد أشاد ياقوت الحموي بجودته[٨٨]. واشتهرت به على الخصوص منطقة مهرة من أعمال عمان[٨٩] ومدينة مرباط الواقعة على ساحل خليج ظفار[٩٠]. وفي الوقت نفسه تم تصدير القنى والتمور[٩١] والثياب الحريرية والقطنية[٩٢] والمسك والزعفران واللؤلؤ والديباج والبلور. والفلفل وغيرها من المواد التي أسهب في ذكرها المقدسي[٩٣]. ومن ذلك يتضح أن تجارة عمان كانت تقوم على بضائع محلية أهمها اللبان واللؤلؤ، ومنتجات أخرى تقوم فيها بدور الوسيط؛ وحسبنا أن الوسطاء التجاريين العمانيين المقيمين في البصرة استغلوا ما يرد إلى هذه المنطقة من بضائع الشرق الأقصى فينقلوها إلى بلاد المغرب، نذكر منها الخز والسبز والحلل النجرانية والمناديل الحريرية الكوفية والجواهر والياقوت الأزرق والأحمر والماس والستور والمكاييل[٩٤]. كما استغلوا بضائع المشرق الإسلامي ليحملوها إلى المغرب كالثياب المختلفة الألوان[٩٥] والديباج والخزف العراقي المتقن الصنع[٩٦] وماء الورد والبنفسج والأحجار الكريمة والعود والحرير الوارد من الصين والزمرد وغير ذلك من مواد الترف.

ولا يعزى رواج البضائع العمانية ببلاد المغرب إلى جودتها فحسب، بل إن المقتنين لها كانوا بدورهم من معتنقي المذهب الأباضي، ولا غرو فقد كانت قبائل هوارة وزناتة وتاهرت وما حواليها، فضلاً عن سكان الواحات كلهم أباضيون، لذلك فإن هذه الرابطة المذهبية زادت من الإقبال على سلع تجار عمان وأباضية المشرق بصفة عامة.

وقد كانت تاهرت على الخصوص من بين المدن المغربية التي تمكنت من امتصاص الحركة التجارية والسيطرة على شرايينها بفضل المكانة المتميزة التي صارت تحتلها في خارطة المدن التجارية. ولا غرو فقد ذكر أحد الرحالة[٩٧] أن لأهلها «تجارات وبضائع وأسواق عامرة». نجد مصداقاً لهذا الوصف ما أجمعت عليه المصادر من تقاطر التجار عليها من كل صوب وحدب ومن جنسيات مختلفة، حتى أصبحت تعرف «بعراق المغرب»[٩٨]. ويجمل ابن الصغير المالكي[٩٩]، حركة الرواج التجاري بهذه المدينة في عهد الأمير الرستمي أفلح بقوله: «وكثرت الأموال والمستغلات، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات». كما انتعشت الأسواق واتسعت حتى أن أحد كبار تجار الفرس ويدعى ابن وردة بنى سوقاً سميت باسمه[١٠٠]. ونظرا للرواج الذي عرفته هذه الأسواق، فقد صار لكل سوق محتسب يقوم بالإشراف على تنظيمها[١٠١].

ولم يقتصر الأمر على تاهرت فحسب، بل امتد النشاط التجاري إلى مختلف المناطق الأباضية الأخرى في بلاد المغرب، مصداق ذلك ما ذكره الإدريسي[١٠٢] عن أهل مدينة ورجلان الذين كانوا يعتنقون المذهب الأباضي، فوصفهم بأنهم مياسير وتجار أغنياء، وأنهم يجوبون بلاد السودان ويدخلون بلاد غانة ونقاوة ويأتون منها بالتبر، ويضربونه دنانير يتعاملون بها في تجارتهم.

وثمة إشارة وردت عند الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي[١٠٣] حول النشاط التجاري الذي عرفته هذه المنطقة فيذكر أن سكانها بلغوا ذروة الثراء بفضل ما كانت تدره التجارة عليهم من أرباح. ويلمّح إلى وجود عدد هائل من التجار الأجانب الغرباء عن البلد.

وقد برع أهل ورجلان في معاملتهم للتجار الوافدين حيث كانوا يحرصون أشد الحرص على حسن استقبالهم، لأن معيشتهم كانت تقوم أساساً على البضائع التي يحملها لهم هؤلاء.

وبما أن صاحب النص عاش في فترة متأخرة (القرن ١٠هـ)، فإن باحثاً[١٠٤] استنتج من ذلك أن التجار الأباضية عادت إلى حيويتها ونشاطها بعد الدمار الذي تعرضت له العاصمة الأباضية على أيدي الفاطميين والزيريين ومن حكم من بعدهم.

وانتقل الإشعاع التجاري إلى كافة المناطق الأباضية الأخرى، إذ كانت جزيرة جربة إحدى المناطق الأباضية التي شهدت رواجاً تجارياً كبيراً حيث كان يؤمها إلى جانب التجار العمانيين تجار من مصر وبلاد الترك[١٠٥]. ومما ساعد على هذا الازدهار تمكن أباضية المغرب من لغات بعض شعوب السودان حيث كان حاكم جبل نفوسة الأباضي أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني يتقن اللغة الكانورية[١٠٦].

والقول نفسه ينطبق على مدينة غدامس التي انتشر فيها المذهب الأباضي في مستهل القرن الثاني الهجري حيث صارت هذه المدينة من أهم المحطات التجارية؛ ولا غرو فإن أكثر سكانها برعوا في الحركة التجارية مع طرابلس والسودان ومصر. وكانوا يتحدثون العربية والبربرية، بل إن بعضهم كان يتكلم بالسودانية بفضل كثرة رحلاتهم نحو بلاد السودان[١٠٧].

وبالمثل، برزت مدينة زويلة[١٠٨] على الساحة التجارية، وحسبنا أنها كانت تربط بلاد المغرب ببلاد الكانم والبرنو في حوض بحيرة تشاد. وكانت هذه المدينة موئلاً لسائر التجار من جميع الآفاق، وضمنهم تجار البصرة العمانيين على الأرجح[١٠٩].

كما نشطت الحركة التجارية لدى قبائل هوارة التي شكلت نموذجاً للتجار الأثرياء الذين كانوا يملكون رؤوس أموال ضخمة لتنشيط التجارة، فضلاً عن العبيد والخدم الذين كلفوا بخفر القوافل التجارية. ولا أدل على وضعيتهم المتميزة من قول الإدريسي[١١٠] أنهم كانوا يضعون على أبواب سكناهم علامات تعكس مقدار رؤوس أموالهم.

أما بجاية فقد بلغت في القرن الخامس الهجري ذروة مبادلاتها التجارية مع بلاد السودان والشرق. وقد صوّر أحد الجغرافيين[١١١] هذا الازدهار بقوله: «وبها القوافل

منحطة والأمتعة إليها براً وبحراً مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة»، مما ينهض دليلاً على أن الجمال شكلت – إلى جانب ا لسفن– وسائل النقل الرئيسية في التبادل التجاري.

ومن الملفت للانتباه أن العلاقات العدائية بسبب الخلافات المذهبية لم تقف عائقاً في وجه المبادلات التجارية ورواج السلع. فعلى الرغم من الغيوم التي كدرت صفو العلاقات السياسية بين تاهرت وسجلماسة وبغداد والقيروان وفاس، فإن التجارة القافلية المشرقية حطّمت هذه الحدود النفسية العدائية، فغصت سجلماسة بالتجار العمانيين الوافدين من البصرة، وكذا تجار بغداد والكوفة. وكانت هذه القوافل تحمل سلع المشرق إلى بلاد المغرب وتعود محملة بالبضائع السودانية في رفقة أهل سجلماسة[١١٢].

ورغم عداء الرستميين لبني مدرار بسجلماسة، واختلاف المذهب الأباضي عن نظيره الصفري، فإن التجارة قاربت بين ا لمذهبين إلى درجة أن ابن خلدون[١١٣]، لم يفلح في التمييز بين معتنقي المذهبين، فذكر أن سمكو بن واسول أمير سجلماسة كان «أباضياً صفرياً».

ثم ازدادت العلاقة متانة بعدما زوج عبد الرحمن بن رستم ابنته إلى المدرار بن اليسع حاكم سجلماسة[١١٤]. كما أن السلع السودانية وصلت إلى دولة الأغالبة –عدوة الأباضيين الرستميين– عن طريق تاهرت وسجلماسة[١١٥]، بل إن الدولتين شكلتا – خدمة لمصالحهما التجارية– حلفاً تصدى لهجوم العباس أحمد بن طولون عام ٢٦٧هـ/٨٨٠م، حيث شاركت قبائل نفوسة في رد الهجوم[١١٦]. إن هذا التسامح الذي فرضته المعاملات التجارية ينهض دليلاً على ازدهار الحركة التجارية بين المشرق والمغرب، وأن المصالح التجارية كانت فوق كل اعتبار.

ولا ريب أن عمان بمواردها الاقتصادية التي سلف ذكرها، جلبت كذلك اهتمام التجار

المغاربة الذين وصلوا بسلعهم إلى جميع الآفاق. إذ كانوا يرحلون نحو مصر والحبشة والجزيرة العربية وبلاد فارس والهند، ويمرون في هذه الرحلة الطويلة عبر عمان والبصرة، فيحطون بصحار التي كان بها « من التجار والتجارة ما لا يحصى كثرة»(١١٧). وبالمثل كانت مدينة دبا في شمال عمان تستقطب بدورها العديد من التجار المغاربة، وهو ما لاحظه ابن حبيب صاحب كتاب المحبر(١١٨)، فذكر أنها «فرضتي العرب، يأتيها تجار السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب». وكانوا يستقبلون أينما حلّوا بالترحاب والحفاوة لما جبلوا عليه من حميد السجايا والقيم الإنسانية، حتى ليقال أن أحد التجار الأباضيين المغاربة كان يطوف بالمساجد لينظر في حوائج الغرباء وأبناء السبيل(١١٩).

وتنوعت السلع المغربية التي كانوا يجلبونها إلى عمان ما بين الذهب والفضة واللبود والقنب والكرويا والعصفر والعسل والسمن والحبوب والزيت(١٢٠)، والحناء(١٢١) فضلاً عن السجاد الذي اشتهرت به القيروان، والمنسوجات والثياب السوسية الرفيعة ذات البياض الناصع(١٢٢) والعمائم(١٢٣)، ناهيك عن الصوف والتربة البرقية المنسوبة إلى برقة، وكانت تصلح لعلاج داء الجرب(١٢٤)، إلى جانب السكر الشهير المجلوب من سوس جنوب المغرب الأقصى(١٢٥).

وقد ترجم ازدهار المبادلات التجارية بين عمان والمغرب بصك عملة نقدية ذهبية ببلاد المغرب، وإن كنا نفتقر إلى وجود عملات رسمية على غرار العملات التي خلفها بنو مدرار بسجلماسة(١٢٦). كما ترد إشارة الدرجيني(١٢٧) حول تعامل أهل جربة بقراريط الحندوس، في حين شاع التعامل في مناطق أخرى بعملة ذهبية. أما بالنسبة لعملة عمان فتعوزنا النصوص، باستثناء شهادة ابن بطوطة(١٢٨) حول عملة ضربت في ظفار، وهي من النحاس والقصدير. بينما يبقى نص المقدسي يشوبه بعض الغموض إذ يكتفي بذكر اسم العملة المتداولة في عمان وهي "الطسوة"، دون أن يذكر معدنها وعيارها بدقة(١٢٩).

لكن الحفريات أثبتت وجود العديد من العملات الذهبية خلال فترات مختلفة من العصور الإسلامية الوسطى. وإذا كنا لا نعرف شيئاً عن نقود الأئمة الأباضيين بسبب عبث أيادي الدهر بها، أو بسبب صهرها وإعادة سكها[١٣٠]، فمعلوماتنا عن العملات العمانية تحت النفوذ العباسي أوفر حظاً؛ ففي سنة ٣٣٣هـ ظهر دينار ذهبي باسم محمد بن وجيه[١٣١]. ويعلق أحد الباحثين[١٣٢]على ظهور العملة الذهبية بعمان في عهد بني وجيه، بأن ذلك يمثل مؤشراً على أن القوة الشرائية للنقود العمانية في هذه الفترة كانت قوية جداً، وإن ذلك يعكس الازدهار التجاري.

وأبان السيطرة البويهية على عمان تم سك عملات عثر منها على ست وعشرين قطعة، تسعة منها ذهبية والباقي فضية[١٣٣]، مما يعكس قوة التجارة العمانية، وليس من المستبعد كما ذهب إلى ذلك أحد الباحثين[١٣٤] أن تكون العملات في التجارة الخارجية تتم بمقتضى أوراق مكتوبة تشبه الحوالات أو السفاتيج. وقد شاهد ابن حوقل[١٣٥] في سجلماسة صكا مبلغه ٤٢ ألف دينار،بينما نقل القلقشندي[١٣٦] عن ابن سعيد أنه رأى كذلك صكاً بمبلغ ٤٥ ألف دينار، الأمر الذي يعبّر على كل حال عن أقصى أشكال تطور التعامل التجاري.

والملاحظ أن النشاط التجاري لأباضية المغرب مع أباضية عمان لم ينقطع البتة، واستمر حياً نابضاً إلى نهاية العصور الوسطى. وقد فطن إلى هذه الحقيقة باحث معاصر[١٣٧]، فذكر أن عزوف التنظيم الأم بالبصرة عن الاتصال بأباضية المغرب – لظروف سياسية– لم يسفر عن انقطاع الاتصال التجاري، إذ استمر أباضية المغرب في الاستفادة من بضائع السودان ونقلها نحو المشرق الإسلامي وعمان عبر الطريقين الشمالي الساحلي والصحراوي الداخلي، في الوقت الذي طوّر أباضية عمان تجارتهم مع بلاد الهند وشرقي إفريقية. وأحياناً كان الاتصال التجاري بين البلدين يتم عبر مكة والمدينة، وهو أمر أشار إليه الشماخي[١٣٨].

لذلك لم يكن غريباً أن تعرف المدن العمانية رواجاً تجارياً هاماً، ولعل شهادة ابن حوقل[١٣٩] عن مدينة صحار كفيلة بترسيخ ما نذهب إليه؛ فقد وصفها بقوله: «وبها من التجار والتجارة ما لا يحصى كثرة»، بينما أعجب المقدسي[١٤٠] بأسواقها فوصفها بأن بها «أسواق عجيبة».

وقد ساهم التجار اليهود في حركة المبادلات التجارية بين عمان والمغرب والأندلس، فكانوا ينقلون البضائع المشرقية من المغرب إلى الشام ويصلون بها إلى عمان، ومن هناك نحو الهند والصين[١٤١]، ومن خلال كتاب "عجائب الهند" تتأكد بعض معالم هذه الرحلة[١٤٢]. وكان يهود سجلماسة بجنوب المغرب يحتكرون على الخصوص استغلال مناجم الفضة والذهب، في حين كانت الجالية اليهودية بصحار تمارس التجارة عن طريق القروض المالية[١٤٤] .

من كل ما تقدم، يتضح أن الحركة التجارية بين المغرب وعمان وصلت إلى أرقى درجات النشاط والحيوية، فما هي الآثار التي تمخضت عنها بالنسبة للبلدين.

أثر الصلات التجارية على عمان والمغرب

من الطبيعي أن تسفر حركة التبادل التجاري النشيطة بين عمان والمغرب عن نتائج بعيدة الغور ساهمت في تنمية مواردها الاقتصادية والبشرية والعمرانية، بل إن الازدهار التجاري انعكس إيجاباً حتى على المجالات السياسية والدينية والمذهبية والثقافية.

فعلى المستوى الاقتصادي، عرف البلدان معاً انتعاشاً اقتصادياً واضح المعالم، فعمان بتعاملها التجاري مع بلاد المغرب، كسبت قاعدة تجارية هامة أمدتها بكافة احتياجاتها، خاصة ذهب السودان ، ولاغرو فقد أصبح التجار الأباضيون على صلة وثيقة بهذه المنطقة بواسطة المغرب.

كما مكّن التعاون بين أباضية عمان والمغرب من تذليل الصعوبات التجارية وتنمية إمكانيات التطور والاستثمارات، حتى وجد كل طرف في الآخر "شريكاً اقتصادياً" إذا جاز التعبير، مما أسهم في رفع مستوى المعاملات التجارية. وبالمثل تمكن العمانيون من توفير رؤوس أموال ضخمة ساعدتهم على مدّ حركتهم التجارية نحو الشرق الأقصى(١٤٥)، حتى تشكلت في البصرة – دار هجرة العمانيين – طبقة من كبار التجار الأثرياء الذين استثمروا أموالهم وأعدّوا الصفقات التجارية الكبرى، وامتلكوا السفن والمراكب(١٤٦).

كما شكلوا في سجلماسة المغربية نواة لفئة اجتماعية ثرية حققت الأرباح الضخمة(١٤٧). وانعكس ذلك على أحوال الدولة التي اغتنت حتى أن مبلغ أتاوتها لبغداد بلغ سنة ٢٣٧هـ ثلاثمائة ألف دينار ذهباً(١٤٨).

وبفضل أحكام تعاملها مع بلاد المغرب، حرّمت أمامة عمان العباسيين من الاستفادة من موارد هذه المنطقة، مما ساهم في زعزعة اقتصادهم وإضعافهم سياسياً كما سنذكر.

وعلى غرار عمان، استفادت بلاد المغرب من رواج الحركة التجارية بينهما فأصبحت المدن المغربية تعج بضروب شتى من أصناف السلع المشرقية والسودانية، وتكونت فيها رؤوس أموال ضخمة أثارت انتباه الجغرافيين(١٤٩)، حتى أن أحد أكبر التجار ويدعى يبين بن زلغين المزاتي كان يملك في تاهرت رأس مال كبير عدّ بمئات الآلاف من الإبل والغنم، فضلاً عن ١٢ألف رأس من الحمير(١٥٠). ووصلت بعض المناطق الاقتصادية إلى ذروة قوتها التجارية، مما حدا بأحد الباحثين(١٥١) إلى وصف أهل تاهرت بأنهم «أمة تاجرة».

وازدهرت المدن المغربية بشكل واسع النطاق، حتى أن تاهرت على سبيل المثال أصبحت أنموذجاً للمدينة "الميتروبولية"، بل غدت تضاهي بغداد حتى نعتتها

المصادر «ببغداد المغرب»[١٥٢] و« بلخ المغرب»[١٥٣]. ولهذه التشبيهات مغزى عميق، إذا علمنا أن بغداد كانت عاصمة تجارية عالمية وأن بلخ كانت أهم مدن خراسان وأوفرها تجارة وأموالاً. ومن القرائن التي تؤكد ما وصلت إليه تاهرت من ازدهار واسع بفضل صلاتها التجارية مع عمان، ما ذكره ابن الصغير[١٥٤] عن سكان هذه المدينة أنه قد «علت وجوههم سيماء الحضارة والرفاهية، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى». ومن مظاهر هذا الثراء أن أحدهم - ويدعى ابن وردة كان يملك سوقاً خاصاً به[١٥٥]. أما سجلماسة فقد صار أهلها في غاية الثراء بفضل حركتهم التجارية نحو السودان لتنشيط عملية تبادل السلع مع العمانيين[١٥٦]، في الوقت الذي أصبح سكان مدينة فاس يكونون مجتمعاً من الأثرياء كما تدل على ذلك شهادات الرحالة[١٥٧]

وانعكس هذا الازدهار التجاري كذلك في العملة التي كانت تضرب بمعدن الذهب[١٥٨] إذ يذكر المقدسي[١٥٩] أن التعامل بهذه الدنانير قد شاع في بلاد المغرب. كما توفرت لدى العمانيين في بعض المدن رؤوس أموال ضخمة حتى أن صحار وصفت بكونها أكثر المدن أموالاً [١٦٠]

وبالمثل انتعشت أسواق البلدين وعرفت صحوة اقتصادية قلّ نظيرهـا، وأوصاف الجغرافيين في هذا الصدد غنية عن كل بيان. فأسواق صحار ترد في نصوص الجغرافيين بأنها «أسواق عجيبة»[١٦١] بل غدت مجتمعاً للتجار حسب تعبير الحميري[١٦٢]، والقول نفسه ينطبق على أسواق مدينة نزوى[١٦٣]. أما مدينة قلهات فقد وقف عليها ابن بطوطة وشاهدها بالعيان فأكد أنها «حسنة الأسواق»[١٦٤]. بينما صارت دبا أهم أسواق العرب بعمان و«أحد فرضتي العرب»[١٦٥] يأتيها التجار من كل فج عميق. والقول ذاته ينطبق على أسواق المدن المغربية، فواحة درعة الواقعة على الطريق المار إلى السودان أصبح بها «أسواق جامعة ومتاجر رابحة»[١٦٦]. ووجدت بمدينة نفيس «سوق نافقة»[١٦٧]. أما سجلماسة فأسواقها غنية عن كل بيان،

ولا غرو فقد بلغت فيها الحركة التجارية ذروتها؛ وقد علّق ابن حوقل[١٦٨] على كل من كان بها من تجار البصرة – وضمنهم العمانيون دون شك- بقوله: «فهم وأولادهم وتجارتهم دائرة... وقوافلهم غير منقطعة«فهم وأولادهم وتجارتهم دائرة... وقوافلهم غير منقطعة»، ووصل التعامل التجاري في أسواقها إلى حد استعمال الصك[١٦٩]. وفي نفس السياق تذكر المصادر أن جزائر بني مزغنا صارت «تجارتها مربحة وأسواقها قائمة»[١٧٠]. ومن البديهي أن ينعكس الأمر كذلك على تاهرت – موطن الأباضيين- وهو ما أكده الحميري الذي أشاد بأسواقها ونشاطها التجاري الكثيف[١٧١].

وبانتعاش الأسواق، رخصت الأسعار، وأصبحت الحياة المعيشية في متناول عامة الناس حتى أن الفواكه واللحوم في بعض مدن المغرب الأوسط أصبحت في القرن السادس الهجري «تباع بالثمن اليسير»[١٧٢].

وانعكس أثر الصلات التجارية كذلك على المجال العمراني، فكثر البناء، وازدهرت حركة العمران، واتسع المجال الأخضر، وتعددت المرافق الاقتصادية والاجتماعية. وفي هذا السياق، وصف أحد المؤرخين[١٧٣] مدينة تاهرت عندما زارها وفد من أباضية عمان في عهد عبد الرحمن بن رستم بقوله: «فوجدوا –وفد الأباضيين العمانيين- الأمور قد تبدلت.. وذلك أنهم قد نظروا إلى قصور قد بنيت وإلى بساتين قد غرست، وإلى أرحاء قد نصبت».

ويذكر نفس المؤرخ أن عمران المدينة في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب قد استبحر حتى «ابتنى الناس قصوراً والضياع خارج المدينة، وأجروا الأنهرَ فابتنى أبان وحمويه القصرين المعروفين لهما، وابتنى عبد الواحد قصره الذي يعرف به اليوم»[١٧٤]، لذلك لا غرابة أن تشبهها المصادر ببغداد المغرب كما سلف القول. وبالمثل عرفت سجلماسة حركة مضطردة حتى أصبحت حسب وصف الإدريسي[١٧٥] «قصور وديارات وعمارات متصلة». وأسهمت الحركة الاستثمارية للتجار في

استبحار العمران، حسبنا دليلاً على ذلك ما ذكرناه عن بناء ابن وردة سوقاً خاصة. وعلى غرار المدن المغربية شهدت المدن العمانية توسعاً في المجال العمراني، فأقام أهلها في بيوتات شاهقة نفيسة مبنية بالآجر والساج، مزودة بالرياش الجميلة(١٧٦). كما أن انتعاش الأسواق وكثرتها بالمدن العمانية كما سلف الذكر، ساهم بدوره في انعاش الحركة العمرانية.

من جهة أخرى، تمخض عن الحركة التجارية نمو ديموغرافي بسبب إقبال التجار من مختلف الجنسيات على البلدين والاستيطان فيهما. فقد تقاطرت وفود كبيرة من التجار العمانيين على مختلف المدن المغربية كتاهرت وسجلماسة وورجلان وغيرها. وصحب هؤلاء التجار معهم عائلاتهم التي وجدت الطمأنينة والأمان، فاختارت هذه المدن مستقراً لها. وفي هذا المعنى يشير أحد المؤرخين(١٧٧) إلى البنايات التي أقامها تجار المشرق وقبائل نفوسة في مدينة تاهرت. وكانت عائلات التجار العمانيين أكثر حضوراً في هذه المدينة لغلبة المذهب الأباضي عليها، ومنذ استقرت عائلات عمانية كثيرة (١٧٨). وبذلك تغيرت الخريطة السكانية، ووقع الامتزاج والانصهار بين العمانيين والمغاربة.

ولم يقتصر الأمر على تاهرت وحدها، بل شمل هذا الانصهار كافة المدن الأخرى التي استقر فيها التجار الوافدون؛ فابن خوقل(١٧٩) في وصفه مدينة سجلماسة، يذكر توافد تجار البصرة عليها، ويؤكد على تواجدهم في هذه المدينة كعنصر بشري ساهم في فعالية التجارة. كما أن اعتناق المذهب الأباضي من طرف سكان الواحات المغربية الجنوبية دليل واضح على تواجد أباضية عمان فيها، في حين فضل بعضهم الاستيطان في بلاد السودان تسهيلاً للمعاملات التجارية، فاستقروا في غانة ومدينة جارو(١٨٠) ومملكة مالي(١٨١) وغيرها من الديار السودانية. وبالمثل، شهدت المدن العمانية ازدهاراً عمرانياً، خاصة مدينة صحار التي يصفها ابن حوقل(١٨٢) بأنها «أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً، ولا يكاد يعرف على شط بحر فارس بجميع

الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار». ورغم أن قلهات وصور جاءتا في وصف الإدريسي[١٨٣] في صورة مدينتين صغيرتين، فإنه مع ذلك وصفها بالمدينتين العامرتين.

أما على المستوى السياسي، فقد سبق أن ذكرنا أن الأباضية العمانيين بفضل أحكام صلتهم التجارية ببلاد المغرب، نجحوا في الحيلولة دون استفادة أعدائهم العباسيين من موارد هذه المنطقة، الأمر الذي ساهم في إضعاف هؤلاء، فحقق أباضية عمان هدفين مزدوجين إذ: كسبوا قاعدة تجارية بالمغرب من جهة، وأفلحوا في إقامة الإمامة الثانية سنة ١٧٧هـ من جهة أخرى. وقد فشل العباسيون في مناجزتهم حتى أن حملة الخليفة هارون الرشيد إلى عمان سنة ١٨٩هـ عادت تجر أذيال الخيبة والفشل، ومن ثم حافظت عمان على استقلالها[١٨٤].

وفي نفس المنحى، تمكن أباضية المغرب من تدعيم مركزهم السياسي، فترسخت أقدام الأباضيين بالمغرب الأقصى والأوسط والأدنى؛ وحسبنا دليلاً على ذلك أن الإمارة الرستمية لم تسقط تحت ضربات الفاطميين إلا بصعوبة كبيرة. ومع ذلك ظل المذهب الأباضي فارضاً نفسه في تاهرت[١٨٥].

ومن البديهي كذلك أن تسفر الصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب عن تدعيم المذهب الأباضي وانتشاره في مختلف الأصقاع. فالدعوات المذهبية في أمس الحاجة إلى قاعدة مادية تمونها، وقد فطن إلى ذلك دعاة المذهب الأباضي، فوجدوا في التجارة أداة من الأدوات التي تتوج جهودهم. لذلك ما إن استحكمت العلاقات التجارية بين البلدين حتى شبّ عود المذهب الأباضي وازداد رسوخاً وانتشاراً، وحسبنا أنه اكتسح كل بلاد المغربين الأدنى والأوسط، فضلاً عن جزر أباضية قدر لها الانتشار في المغرب الأقصى وواحاته الجنوبية[١٨٦]، بل امتدت لتشمل بلاد السودان وتستمر فيها إلى عهد ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري[١٨٧]. ويرجع الفضل في ذلك إلى جهود التجار الأباضيين الذين كانوا يقومون بأعمالهم التجارية، وينشرون مذهبهم في ذات

الوقت، لذلك لم يكن غريباً أن يتحول العديد من الصفرية إلى الأباضية(١٨٨) حتى أن سجلماسة موئل الصفرية أصبحت «عامرة بالأباضية» على حد قول الباروني(١٨٩). كما أن مجموعات كبيرة من قبائل هوارة وزناته اعتنقت المذهب الأباضي بفضل دعاية التجار العمانيين(١٩٠). كذا الحال بالنسبة لمعظم القبائل الضاربة في الصحراء الليبية، خاصة لواتة، نفوسة ونفزاوة(١٩١)، بل إن النفزاويين تحولوا عن المذهب الصفري إلى المذهب الأباضي(١٩٢).

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى ما ارتبط بالصلات التجارية بين عمان والمغرب من نتائج دينية تمثلت في نشر الإسلام كثمرة من ثمار الدعوة الأباضية. ولا غرو فإن معظم التجار كانوا من فطاحلة علماء الأباضية، فتمكنوا بفضل غزارة علمهم، وبما جبلوا عليه من سجايا حميدة أن يفقهوا بربر المغرب في شرائع دينهم. كما نجحوا في لفت أنظار سكان السودان فأقبلوا على اعتناق الإسلام. ويقدم إسلام السلطان مالي أنموذجاً رائعاً في هذا الصدد(١٩٣).

وفيما يخص أثر الصلات التجارية بين عمان والمغرب على المستوى الثقافي، يمكن القول أن التجار الأباضيين تركوا بصمات واضحة المعالم في هذا الميدان. ومن القرائن التي تثبت ما ذكره الدرجيني(١٩٤) من أن ابن الجمع أحد علماء الأباضيين العمانيين قدم تاجراً إلى سجلماسة، وعنه تلقى أقطاب الأباضية المغاربة العلم مثل أبو الربيع وأبو مخلد بن كيداد وغيرهم. وقد ربط الباروني(١٩٥) في أزهاره ربطاً محكماً ما بين التجارة والثقافة في نص فريد عن رحلة أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي إلى سجلماسة فقال: «رحل إليها مع العالم النحرير أستاذه ابن الجمع مع علماء أباضية الشرق وتجارها العظام». ومن كثرة إقبال التجار على هذه المدينة المغربية وتعليم أهلها ما جعله يخلص إلى القول بأنها «كانت عامرة بالأباضية،حافلة بعلمائهم»(١٩٦)، وفي ذلك دليل على تأثير التجارة على الميدان الثقافي، لأن العلم ظل ملازماً للتجارة في المشروع الأباضي.

ومن القرائن الأخرى التي يمكن أن نسوقها كذلك عن أثر التجارة في المجال الثقافي ما أورده ابن سلام[١٩٧] عن أحد علماء نفوسة الذي حفظ القرآن عن طريق لقائه بتجار المشارقة والعمانيين الوافدين إلى المغرب.

وعلى العموم أسفرت جهود التجار العمانيين في الثقافة والتعليم على نتائج محمودة سبق أن خصصنا لها دراسة مستقلة[١٩٨]، لذلك نكتفي بإعطاء أهم الخلاصات في هذا المقام.

فبفضل الجهود المضنية التي قام بها التجار الأباضيون، ترسخ المذهب الأباضي في بلاد المغرب كما سلف الذكر، مما زاد في تمتين عرى الوحدة الفكرية بين أباضية عمان وأباضية المغرب، وسمح بظهور "**مدرسة عمانية – مغربية**" أصبح لها موقف موحد من القضايا الفكرية.

كما نجم عن تدفق التجار الأباضيين على بلاد المغرب نشوء مراكز ثقافية كبرى مثل **سجلماسة وتاهرت**، التي غدت قبلة للعلماء ومركز إشعاع ثقافي. بينما نشأ في البوادي ما يعرف بالمدارس المتنقلة، حيث كان التجار الأباضيون يخرجون على ظهور جمالهم مزودين بالحصر، ويمرون على الناس، ويبسطون الحصر لمن يريد أن يتعلم من أبناء البادية[١٩٩].

وتمخض عن جهود تجار الأباضيين إقرار نظام تعليمي له أسسه وأهدافه التربوية، وهو النظام الذي عرف لدى **عزابة الجريد**[٢٠٠].

وبالمثل فإن ارتباط حركة التجار بالعلم والثقافة، مكن المرأة المغربية من الارتشاف من مناهل العلوم والمعارف إذ يذكر أبو زكريا[٢٠١] أن أخت عمروس بن فتح قاضي الإمام يوسف بن أفلح «كانت عالمة فقيهة»، بل إن إمرأةً عجوزاً في إحدى قرى جبل نفوسة كانت عالمة بدقائق المذهب الأباضي، وكان الناس يستفتونها فيما أشكل عليهم من مسائل فقهية[٢٠٢]، فضلاً عن نماذج أخرى يطول بنا المقام لو عرضناها أولاً بأول[٢٠٣].

قصارى القول أن الصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب في العصر الإسلامي الوسيط شكلت ظاهرة اقتصادية فريدة بصمت تاريخ البلدين ببصمات واضحة، وتميزت بالاستمرارية، واستطاعت خلق تكامل اقتصادي بين البلدين، وأدت إلى انتعاش شمل كافة المجالات، كما أنها جسدت أنموذجاً للشراكة التجارية بين بلدان العالم العربي ونمطاً من أنماط سيولة الاقتصاد الإسلامي في العصر الإسلامي الوسيط.

هوامش البحث

* المقصود ببلاد المغرب هنا المنطقة الممتدة من المغرب الأقصى حتى ليبية، والعصر الإسلامي هو ما يطابق الناحية الزمنية العصر الوسيط في أوروبة.

(١) تستثنى بعض الدراسات التي عالجت التجارة العمانية بصفة عامة أو جوانب اقتصادية أخرى، وهي حسب حدود اطلاعنا:

- رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام**، مسقط ١٩٨٩.
- عبد الرحمن عبد الكريم العاني: **دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري**. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨١، سلسلة تراثنا، عدد ٢٦.
- ولنفس المؤلف: **عمان في العصور الإسلامية الأولى ودور أهلها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي في الملاحة والتجارة الإسلامية**. أطروحة جامعية نوقشت في كلية الآداب ببغداد سنة ١٩٧٥.
- محمد أبو الفرج العش: **النقود العمانية من خلال التاريخ الإسلامي**. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨٤، سلسلة تراثنا، عدد ٥٤.

- وبخصوص الجوانب النقدية في الاقتصاد العماني خلال العصر الإسلامي، ثمة أبحاث أجنبية مثل:

- Bivar, A.D.H and Sterm, S.M: **The coinage of Oman under Abu-kalijar the Buwayhid**
- N.chr.Scries 6, vol XVIII (1958), PP141-148.
- Bates, M.L: **unpblished wajihid and Buyid coins from Oman. In:** Arabian Studies, vol I, 1974
- (Notes and communications).

كما أن هناك بعض الأبحاث التي قدمت في ندوة "عمان في التاريخ" وسيجري توظيفها في هذا البحث.

(٢) يذكر أن مجموعة من العمانيين الأباضيين لجأوا إلى شرق افريقية هرباً من تعسفات الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٥٧٥، فاستقروا بها وأخذوا يمارسون التجارة، فكان ذلك نواة لنشاط العمانيين التجاري في هذه المنطقة. انظر سعيد عبد الفتاح عاشور وعوض محمد خليفات: **عمان والحضارة الإسلامية** ، منشورات جامعة السلطان قابوس، مسقط ١٩٩٤. (ط٩)، ص:٢٦٢. وانظر كذلك رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة التجارية...** ص٢٠٦.

(٣) انظر: محمد ناصر: **دور الأباضية في نشر الإسلام بغرب افريقية**. مسقط (دون تاريخ) مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، ص٢.

(٤) المصدر نفسه ص٥.

(٥) يستثنى من ذلك المبحث الذي ضمنه د. رجب محمد عبد الحليم كتابه: **الأباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة**. مسقط ١٩٩٠، مكتبة العلوم. ص- ص: ١٧٩-١٩٥.

(٦) محمود إسماعيل: **الخوارج في بلاد المغرب**. طبعة بيروت ١٩٧٦، بيروت، دار العودة -القاهرة مكتبة مدبولي، ص٢٨ وما بعدها.

(٧) رجب عبد الحليم : **العمانيون والملاحة والتجارة...** ص ٤٣ -العاني: **دور العمانيين في الملاحة...** ص٦.

(٨) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. نشر De Gojie، طبعة بريل ليدن ١٩٦٧. (ط٢) ص:٩٢،٩٣.

(٩) ابن الفقيه: **مختصر كتاب البلدان**، ليدن ١٩٦٧، ص١١،١٢.

(١٠) أندرو ويليامسون: **صحار عبر التاريخ**، ترجمة محمد أمين عبد الله، مسقط ١٩٨٢ (ط٢)، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، العدد الثاني، ص١٧.

(١١) المقدسي: م.س، ص ١٢٨.

(١٢) العاني :م.س . ص٢٣.

(١٣) تشانغ زون يان: **الاتصالات الودية المتبادلة بين الصين وعمان عبر التاريخ**. مسقط (دون تاريخ)، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة عدد ٢١، ص٥.

(١٤) نفسه، ص١٤.

(١٥) القلقشندي: **صبح الأعشى**. شرحه وعلق عليه نبيل خالد الخطيب، بيروت ١٩٨٧، دار الكتب العلمية، ج٥، ص٥٣.

(١٦) **عمان تاريخاً وعلماء**. ترجمة محمد أمين عبد الله –مسقط ١٩٨٠(ط٢). منشورات وزارة التراث القومي والثقافة. العدد ١٠ ص١٤.

(١٧) العقيلي: **الأباضية في عمان وعلاقتها مع الدولة العباسية في عصرها الأول**. مسقط ١٩٧٤ منشورات وزارة التراث القومي والثقافة. ص١٤.

(١٨) رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة**... ص٤٤.

(١٩) عن حملة هارون الرشيد ومحمد بن نور على عمان انظر: مؤلف مجهول: **كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة**. تحقيق ودراسة وتعليق أحمد عبيد لي، نيقوسيا ١٩٨٥، دلممون للنشر: ص: ٢٥٥، ٢٧٢-٢٧٣. انظر أيضاً :وندل فيليبس: **تاريخ عمان**. ترجمة محمد أمين عبد الله، مسقط ١٩٩٤ (ط٤) منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، ص٢٠-٢١.

(٢٠) ولكنسون: م.س. ص٢٨.

(٢١) **كتاب العبر**. تحقيق خليل شحاذة، بيروت ١٩٨١، دار الفكر، ج٦، ص١٠١.

(٢٢) الجنحاني: **دور عمان في نشاط التجارة العالمية خلال العصر الإسلامي الأول**. مجلة المؤرخ العربي، عدد ٣٣ سنة ١٩٨٣، ص٩.

(٢٣) سعيد عبد الفتاح عاشور وعوض خليفات: م.س. ص٦.

(٢٤) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**. بيروت (دون تاريخ)، دار الكتاب العربي، ج٣، ص١٥٠. ويذكر نفس الرواية الحميري، ولكنه لا ينسب القول المذكور إلى الرسول (ص). انظر: **الروض المعطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٨٤، (ط٤)، مكتبة لبنان، ص٤١٣.

(٢٥) رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة**.... ص٤٨.

(٢٦) الحميري: م.س، ص٢١٠، ويذكر في هذا النص أن سفناً عمانية كانت تصل إلى مدينة خانفو الصينية.

(٢٧) الجنحاني: م.س، ص١٠.

(٢٨) رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة**.. ص٤٩.

(٢٩) السيابي: **عمان عبر التاريخ**. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨٦(ط٢)، ج٢، ص٩٨ –رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة**... ص٤٩.

(٣٠) العاني: **دور العمانيين في الملاحة**... ص٥.

(٣١) يوسف غوانمة: "**عمان في كتب الجغرافيين العرب**". بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون) –رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة**... ص٥٤.

(٣٢) **أحسن التقاسيم**، ص٣٥.

(٣٣) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. نشر بعناية E.Ceruli وآخرون، طبعة نابولي روما ١٩٨٤، منشورات المعهد الجامعي الشرقي لنابولي. ج٢، ص١٦٢.

(٣٤) **تحفة النظار**. بيروت ١٩٨٦، دار التراث، ص٢٥١.

(٣٥) السيد عبد العزيز سالم: "**الملاحون العمانيون سادة البحار الجنوبية في العصر الإسلامي**". بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون)، ص٧.

(٣٦) **نفسه**، ص٨،٩.

(٣٧) تشانغ زون يان: م.س. ص١٤.

(٣٨) **نزهة المشتاق**، ج٢، ص١٥٢.

(٣٩) أورد د.العاني نصاً لبرزك يتضمن أسماء بعض التجار العمانيين الذين كانوا يملكون مراكب خاصة. انظر: م.س، ص١٧. عن برزك: **كتاب عجائب الهند** ص١٣٢-١٣٤.

(٤٠) **المسالك والممالك**. مكتبة المثنى، بغداد (دون تاريخ)، ص٦٠، ١٤٧-١٤٨.

(٤١) الاصطنخري: **مسالك الممالك**. ليدن١٩٧٦. ص٢٦-٢٨. وانظر كذلك: ابن حوقل: **صورة الأرض**، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت١٩٧٩؟ ص٤٥-٤٧.

(٤٢) **صورة الأرض**، ص٨٠.

(٤٣) رجب محمد عبد الحليم: م.س، ص١٨١.

(٤٤) **أحسن التقاسيم**، ص٩٧.

(٤٥) الاصطخري: م.س، ص٣٣.

(٤٦) **صبح الأعشى**، ج٥، ص٥٤، ١٤٧.

(٤٧) **نفسه**، ص١٦.

(٤٨) رجب محمد عبد الحليم: م.س، ص١٨٣.

(٤٩) دبوز: **تاريخ المغرب الكبير**. القاهرة ١٩٦٣، ج٣، ص٣٥١.

(٥٠) محمد عيسى الجريري: **مقدمات البناء السياسي للمغرب الإسلامي: الدولة الرستمية**. الكويت ١٩٨٣، دار القلم، ص٢٣٣.

(٥١) مجموعة من علماء عمان: **السير والجوابات**. تحقيق سيدة اسماعيل كاشف، القاهرة ١٩٨٦،ج١،ص٣٠٠.

(٥٢) **أخبار الأئمة الرستميين**. تحقيق وتعليق د. محمد ناصر والأستاذ إبراهيم بحاز، بيروت ١٩٨٦، دار الغرب الإسلامي، ص٣٦.

(٥٣) رجب محمد عبد الحليم: م.س، ص٨٥.

(٥٤) **أخبار الأئمة الرستميين**، ص٣٦-٣٧.

(٥٥) أحمد إلياس حسين: **الأباضية في المغرب العربي. مسقط ١٩٩٢، مكتبة** الضامري للنشر والتوزيع، (ط١)، ص٢٠-٢١.

(٥٦) سليمان الباروني: **الأزهار الرياضية**. ج٢، ص١٣٧.

(٥٧) دبوز: م.س، ج٣، ص٣٥٤.

(٥٨) **أخبار الأئمة الرستميين**. ص٦١، ١٠٤، ٧١-٧٢.

(٥٩) **كتاب السير**. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨٧، ج١، ص١٤٢.

(٦٠) ابن بطوطة: م.س، ص٢٥١.

(٦١) **نفس المصدر والصفحة**.

(٦٢) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. نشره دي سيلان، الجزائر ١٩١١، ص٣٧ –الحميري: م.س، ص٣٥٤.

(٦٣) تقع كوكو في منحنى نهر النيجر بالسودان الغربي.

(٦٤) الدرجيني: **طبقات مشايخ الأباضية**. تحقيق إبراهيم طلاي، قسطنطينية – الجزائر، ج٢، ص٣٢٠.

(٦٥) **عمان عبر التاريخ**، ج١، ص٢٢٠.

(٦٦) ابن سلام الأباضي: **الإسلام وتاريخه من وجهة نظر أباضية**. تحقيق: ر.ف. شفارتز وسالم يعقوب، بيروت ١٩٨٥، دار إقرأ، ص١٦٣.

(٦٧) **نفسه**، ص١٦٦.

(٦٨) دبوز: م.س،ج٣، ص٣٢٠، ٣٣٨-٣٣٩.

(٦٩) ابن عذارى: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**. تحقيق بروفنسال وكولان، بيروت ١٩٨٠، دار الثقافة (ط٢)،ج١، ص١٥٦. انظر أيضاً: ابن

خلدون: **كتاب العبر**. بيروت ١٩٧٩، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، ج٦، ص١٣٠.

(٧٠) ابن الصغير: م.س، ص٧١ -أحمد إلياس: م.س، ص٦٣.

(٧١) مؤلف مجهول: **كشف الغمة**، ص١٤٨.

(٧٢) **نفسه**، ص٢٥٣.

(٧٣) **نفسه**، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٧٤) **نفسه**، ص ٢٥٧.

(٧٥) **نفسه**، ص ٢٥٩.

(٧٦) العقيلي: م.س، ص٣٤.

(٧٧) انظر: **كشف الغمة**، ص٢٤٨. وراجع ما يذكره الإمام ابن المؤثر حول عدم انصاف الإمام راشد بن النظر للمظلومين وذلك في كتاب السير والجوابات، ج١، ص٥٤-٥٦، ٤٢٢-٤٢٣.

(٧٨) **تحفة النظار**، ص٢٥١.

(٧٩) **نفسه**، ص ٢٦٢.

(٨٠) أحمد إلياس حسين: م.س، ص٦١.

(٨١) ابن سلام الأباضي: م.س،ص١٣١.

(٨٢) **نفسه**، ص١٣٥.

(٨٣) **نفسه**، ص١٤٩.

(٨٤) طبقات مشايخ الأباضية، ج١، ص١٠٩.

(٨٥) ابن الصغير: م.س،ص٧١.

(٨٦) **نفسه**، ص١٠٤.

(٨٧) **مختصر كتاب البلدان**، ص٥١. انظر: سوادي عبد محمد: "**صلات تجارية بين البصرة والمغرب الإسلامي من القرن الثامن الهجري حتى أواخر القرن**

الرابع". مجلة المؤرخ العربي، عدد ٤٣، سنة ١٩٩٠، ص ١٥٦.

(٨٨) ابن الفقيه: م.س، ص١٧.

(٨٩) **معجم البلدان**، ج٤، ص٦٠.

(٩٠) ابن حوقل: م.س، ص٤٤.

(٩١) أبو الفدا: **تقويم البلدان**، باريس ١٨٤٠، دار الطباعة السلطانية، ص٢٢.

(٩٢) ابن الفقيه: م.س، ص ١٦،٣٠.

(٩٣) ابن بطوطة: م.س،ص ٢٥٢.

(٩٤) **أحسن التقاسيم** ، ص٩٧.

(٩٥) سوادي عبد محمد: م.س، ص١٥٧.

(٩٦) البكري: م.س، ص١٥٩.

(٩٧) ابن حوقل: م.س، ص٧٥.

(٩٨) الإدريسي: م.س ،ج٣، ص٢٥٦.

(٩٩) اليعقوبي: **كتاب البلدان**، ليدن ١٨٩١، ص٣٥٣.

(١٠٠) **أخبار الأئمة الرستميين**، ص٦١.

(١٠١) **نفسه**، ٦٢.

(١٠٢) **نفسه**، ٦٣.

(١٠٣) **نزهة المشتاق**، ج٣، ص٢٣٢.

(١٠٤) **وصف إفريقية**، ج٢، ص١٣٦.

(١٠٥) رجب محمد عبد الحليم: م.س،ص١٩١.

(١٠٦) الوزان: م.س،ج٢، ص٩٤-٩٥.

(١٠٧) هي لغة مجموعة الكاتوري التي كانت تقطن في حوض بحيرة تشاد. انظـر: أحمد إلياس حسين: م.س،ص٦٤.

(١٠٨) رجب محمد عبد الحليم: م.س، ص١٩٢.

(١٠٩) توجد على بعد ٧٧٠ كم جنوب شرقي مدينة طرابلس.

(١١٠) البكري: م. س، ص١٠.

(١١١) **نزهة المشتاق**، ج٣، ص٢٣٢.

(١١٢) **نفسه**، ص٢٦٠.

(١١٣) محمود إسماعيل: م. س، ص٢٠٨.

(١١٤) **العبر**، ج٦، ص١٣٠.

(١١٥) **نفسه**، ص١٣١.

(١١٦) محمود إسماعيل: م. س، ص٢٠٨.

(١١٧) أحمد إلياس حسين: م. س،ص ٤٠.

(١١٨) ابن حوقل: م. س، ص٤٤.

(١١٩) **كتاب المحبر**، ص٢٦٥-٢٦٦/ عن: العاني: م. س. ص٣١.

(١٢٠) الدرجيني: م. س. ج٢، ص٤٠٤.

(١٢١) ابن حوقل: م.س، ص٧٥, ٧٦، ٧٧.

(١٢٢) الحميري: م.س،ص٣٠٥.

(١٢٣) البكري: م.س. ص٦٤/ الحميري: م. س،ص٣٠٥.

(١٢٤) الإدريسي: م. س، ج٣، ص٣٠٣.

(١٢٥) **نفسه**، ص٣١١.

(١٢٦) الحميري: م. س،ص٣٢٩.

(١٢٧) محمود إسماعيل: م. س ،ص ٢٠٦-٢٠٧.

(١٢٨) **طبقات مشايخ الأباضية**، ج٢، ص٣٥٥.

(١٢٩) **تحفة النظار**، ص٢٥١.

(١٣٠) **أحسن التقاسيم**، ص٩٩.

(١٣١) محمد أبو الفرج العش: **النقود العمانية...** ص٢٧.

(١٣٢) محمد باقر الحسيني: "**الدور الإعلامي والسياسي للنقود العمانية في العصر الإسلامي حتى نهاية القرن ا لرابع الهجري**". بحث قدّم لندوة "عمان في التاريخ: (مرقون)، ص١٢.

(١٣٣) **نفسه**، ص١١.

(١٣٤) **نفسه**، ص١٧. وأخر نقود عمان تحت النفوذ البويهي وصلتنا لحد الآن دينار ذهب سنة ٣٩٥هـ باسم بهاء الدولة، وهو محفوظ في متحف جمعية النميات بنيويورك.

(١٣٥) حامد زيان: **الحياة في الخليج العربي في العصور الوسطى في ضوء مشاهدات الرحالة ابن بطوطة**. دبي ١٩٨٥، دار القلم، الإمارات العربية للنشر والتوزيع، ص٣٤.

(١٣٦) **صورة الأرض**، ص٦٥.

(١٣٧) **صبح الأعشى**، ج٥، ص١٥٩.

(١٣٨) محمود إسماعيل: **دراسات في التاريخ والفكر الإسلامي**. القاهرة ١٩٩٤(ط١) دار ابن سينا للنشر، ص١٣٤.

(١٣٩) **السير**، ج١،ص١٤٢.

(١٤٠) **صورة الأرض**، ص٤٤.

(١٤١) **أحسن التقاسيم**، ص٩٢-٩٣.

(١٤٢) ابن خرداذبة: م. س،ص١٥٤. راجع أيضاً: رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة..** ص٥٨.

(١٤٣) ورد في هذا الكتاب أن إسحق بن اليهودي وقع بينه وبين أحد اليهود نزاع، فغادر عمان نحو الصين وهو لا يملك سوى مائتي دينار، ثم رجع بعد ثلاثين سنة ومعه رأس مال كبير بلغ تعشيره ألف درهم. انظر: برزك، **كتاب**

عجائب الهند، ص٨٠، عن محقق كتاب كشف الغمة الوارد في هذه الهوامش، ص١٠٤.

(١٤٤) اندرو ويليامسون: م. س، ص٢٢.

(١٤٥) للمزيد من التفاصيل حول تجارة عمان مع الشرق الأقصى، راجع: الحبيب الجنحاني: م. س، ص١٧ وما بعدها. وكذلك: سحر السيد عبد العزيز: "عمان وتجارتها مع الشرق الأقصى وشرق إفريقية". بحث قدّم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون)، ص١١ وما بعدها.

(١٤٦) سوادي عبد محمد: م. س،ص١٥٧.

(١٤٧) ابن حوقل: م. س،ص٦٥.

(١٤٨) انظر وصف الإدريسي لمدينتي فاس وأغمات حيث يصفهم بأنهم أكثر الناس أموالاً. انظر: م. س، ج٣، ص٢٤٨.

(١٤٩) الباروني: الأزهار الرياضية، ج٢، ص١٣٧/ دبوز: م. س، ج٣، ص٣٥٥.

(١٥٠) دبوز: م. س، ج٣، ص٣٥٢.

(١٥١) القلقشندي: م. س، ج٥، ص١٠٦.

(١٥٢) المقدسي: م. س،ص٢٢٨.

(١٥٣) أخبار الأئمة الرستميين، ص٣٦،٦١.

(١٥٤) نفسه، ص ٦٢،٦٣.

(١٥٥) القلقشندي: م. س،ج٥، ص١٥٩.

(١٥٦) الحميري: م. س، ص٣٣٤.

(١٥٧) محمد عيسى الحريري: م. س،ص٢٣٥.

(١٥٨) أحسن التقاسيم، ص٢٤٠.

(١٥٩) ابن حوقل: م. س،ص٤٤/ الحميري: م. س،ص٣٥٤.

(١٦٠) المقدسي: م. س، ص٩٢-٩٣.

(١٦١) **الروض المعطار**، ص٣٥٤.

(١٦٢) ابن بطوطة: م. س، ص٢٦٢.

(١٦٣) **نفسه**، ص٢٦٠.

(١٦٤) ياقوت الحموي: م. س، ج٢، ص٤٣٥/ **الحموي**: م. س، ص٢٣٢.

(١٦٥) البكري: م. س، ص١٣٥.

(١٦٦) للإدريسي: م. س،ج٣، ص٢٢٩.

(١٦٧) **صورة الأرض**، ص٦٥.

(١٦٨) الإدريسي: م. س،ج٣، ص٢٥٨.

(١٦٩) **الروض المعطار**، ص١٢٦.

(١٧٠) الإدريسي: م.س ،ج٣، ص٢٥٨.

(١٧١) ابن الصغير: م. س،ص٣٨.

(١٧٢) **نفسه**، ص٦١.

(١٧٣) **نزهة المشتاق**، ج٣، ص٢٢٥.

(١٧٤) يوسف غوانمة: "**عمان في كتب الجغرافيين العرب**". بحث قدم لندوة عمان في التاريخ" (مرقون)، ص٢٦.

(١٧٥) ابن الصغير: م. س، ص٦١-٦٣.

(١٧٦) رجب محمد عبد الحليم: م. س، ص٢١٦.

(١٧٧) **صورة الأرض**، ص٦٥.

(١٧٨) محمد ناصر: م. س، ص١٤، ص١٦.

(١٧٩) الدرجيني: م. س، ج٢، ص٥١٧.

(١٨٠) **صورة الأرض**، ص٤٥.

(١٨١) **نزهة المشتاق**، ج٣، ص١٥٥.

(١٨٢) العقيلي: م.س، ص٣٢-٣٣.

(١٨٣) يذكر الاصطخري أن "الأباضية هم الغالبون على تاهرت". ومن المعروف أنه توفي بعد سقوط الدولة الرستمية (توفي بعد عام ٣٥٠هـ). انظر: **مسالك الممالك**، ص٣٩.

(١٨٤) الباروني: م. س، ج٢، ص٧٨-٧٩.

(١٨٥) **تحفة النظار**، تحقيق علي المنتصر الكتاني، بيروت (دون تاريخ) ج٢، ص٧٧٩.

(١٨٦) أحمد إلياس حسين: م.س، ص٣٩.

(١٨٧) **الأزهار الرياضية**، ج٢، ص٧٨-٧٩.

(١٨٨) محمد ناصر: م. س، ص٦.

(١٨٩) محمد عيسى الحريري: م. س، ص١٩٣.

(١٩٠) الحارثي: **العقود الفضية**، ص ٢٣٨.

(١٩١) انظر: الدرجيني: م. س، ج٢، ص٥١٧.

(١٩٢) **طبقات مشايخ الأباضية**، ج١، ص١٠٩.

(١٩٣) **الأزهار الرياضية**، ج١، ص٨٢.

(١٩٤) **نفسه**، ص٧٨-٧٩.

(١٩٥) **الإسلام وتاريخه من وجهة نظر أباضية**، ص١٤٩.

(١٩٦) انظر لكاتب هذه السطور: "**التواصل الثقافي بين عمان وبلاد المغرب في العصر الإسلامي**: قراءة في المظاهر والنتائج". بحث قدم للندوة العلمية للتراث العماني المنظمة من طرف جامعة السلطان قابوس بتاريخ ٣-٥ دسمبر ١٩٩٤.

(١٩٧) انظر مقدمة محقق كتاب الدرجيني الوارد في الهوامش السالفة، ج١، ص: د.

(١٩٨) الجعبيري: **نظام العزابة عند الأباضية الوهبية في جربة**. تونس ١٩٧٥، ص٢٣٩ وما بعدها.

(١٩٩) كتاب السير وأخبار الأئمة، تحقيق: إسماعيل العربي، بيروت ١٩٨٢(ط٢)، ج١، ص١٥٣.

(٢٠٠) نفسه، ج١، ص٢٦٣.

(٢٠١) قدمنا نماذج متعددة من النساء الأباضيات العالمات بالمغرب، وذلك في دراستنا الواردة في هامش رقم (١٨٤). ويتم الإعداد حالياً لبحث حول المرأة الأباضية وثقافتها.

بيبلوغرافية البحث

أولاً: المصادر:

١- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي (عاش في القرن الثامن هـ): **تحفة النظار المسماة برحلة ابن بطوطة**، بيروت، دار التراث.
طبعة ثانية: تحقيق علي المنتصر الكتاني، بيروت (دون تاريخ) الجزء الثاني.

٢- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل الموصلي(ت٣٦٧هـ): **صورة الأرض**، نشر مكتبة دار الحياة، بيروت ١٩٧٩.

٣- ابن خرداذبه: **المسالك والممالك**، مكتبة المثنى، بغداد (دون تاريخ).

٤- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد(ت ٨٠٨ هـ): **كتاب العبر**، تحقيق خليل شحاذة، بيروت ١٩٨١. دار الفكر.

٥- ابن سلام الأباضي: **الإسلام وتاريخه من وجهة نظر أباضية**. تحقيق: ر.ف شفارتز وسالم يعقوب، دار أقرأ، بيروت ١٩٨٥.

٦- ابن الصغير (القرن الثالث الهجري): **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق وتعليق د. محمد ناصر والأستاذ إبراهيم بحاز، بيروت ١٩٨٦، دار الغرب الإسلامي.

٧- ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي (عاش بعد عام ٧١٢هـ): **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**. تحقيق بروفنسال وكولان، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٠(ط١).

٨- ابن الفقيه: **مختصر كتاب البلدان**، طبعة بريل ليدن ١٩٦٧.

٩- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت ٥٦٠هـ): **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، منشورات المعهد الجامعي الشرقي

بنابولي. تحقيق: مجموعة من الباحثين، طبعة نابولي -روما(دون تاريخ)
(ط٢) Prostat aqud E.J Brill, Lugduni batavorum

١٠- الاصطخري، ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) **مسالك الممالك**، ليدن ١٩٧٦.

١١- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر(ت ٧٣٢هـ): **تقويم البلدان**، باريش ١٨٤٠ دار الطباعة السلطانية.

١٢- البكري، عبيد الله بن عبدالعزيز بن محمد بن أيوب(ت ٤٨٧هـ): **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** نشره دي سيلان، الجزائر ١٩١١.

١٣- الحسن الوزان (القرن العاشرالهجري): **وصف إفريقية**. الترجمة العربية، الرباط ١٩٨٣، الشركة المغربية لنور النشر المتحدة، ج١.

١٤- الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت ٧١٠ هـ): **الروض المعطار في خبر الأقطار**. تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٤ (ط٢)، مكتبة لبنان.

١٥- الدرجيني (القرن ٧هـ): **طبقات مشايخ الأباضية**، تحقيق إبراهيم طلاي ، قسنطينة_الجزائر (دون تاريخ)، جزءان.

١٦- الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت ١٥٢٢هـ): **كتاب السير**.جزءان، مسقط ١٩٨٧.

١٧- مجموعة من علماء عمان : كتاب السير والجوابات لعلماء أئمة عمان، تحقيق سيدة إسماعيل كاشف، طبعة ١٩٨٦، مطبعة دار إحياء.

١٨- المقدسي: **أحسن التقاسيم**. طبعة ليدن ١٩٦٧.

١٩- مؤلف مجهول (سرحان بن سعيد الأزكوي): **كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة**. تحقيق ودراسة وتعليق أحمد عبيدلي، نيقوسيا١٩٨٥، دلمون للنشر.

٢٠- ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله الرومي: **معجم البلدان**، بيروت (دون

تاريخ) دار الكتاب العربي، ج٣.

٢١- اليعقوبي، أحمد بن واضح بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ): **كتاب البلدان**، ليدن ١٨٩١.

ثانياً: المراجع:

٢٢- أحمد إلياس حسين: **الأباضية في المغرب العربي**، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع (ط١)، مسقط ١٩٩٢.

٢٣- الباروني: **الأزهار الرياضية في أخبار الأباضية**. طبعة تونس ١٩٨٦، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٤- تشانغ زون بيان: **الاتصالات الودية المتبادلة بين الصين وعمان عبر التاريخ**. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، عدد٢١.

٢٥- حامد زيان غانم زيان: **الحياة في الخليج في العصور الوسطى في ضوء مشاهدات الرحالة ابن بطوطة**. دبي ١٩٨٥ دار العلم، الإمارات العربية المتحدة للنشر والتوزيع.

٢٦- دبوز: **تاريخ المغرب الكبير**، القاهرة ١٩٦٣، ج٣.

٢٧- رجب محمد عبد الحليم: **الأباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بأباضية عمان والبصرة**، مسقط ١٩٩٠.

٢٨- رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام منذ ظهوره إلى قدوم البرتغاليين**، مسقط ١٩٨٩ (ط٩).

٢٩- سعيد عبد الفتاح عاشور وعوض محمد خليفات: **عمان والحضارة الإسلامية**. منشورات جامعة السلطان قابوس، مسقط ١٩٩٤ (ط٩).

٣٠- السيابي ، سالم بن حمود: **عمان عبر التاريخ**، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ١٩٨٦ (ط٢).

٣١- عبد الرحمن عبد الكريم العاني: **دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية**

حتى القرن الرابع الهجري، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨١، سلسلة تراثنا، عدد ٢٦....

٣٢- العقيلي محمد رشيد: **الأباضية في عمان وعلاقتها مع الدولة العباسية في عصرها الأول**. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٧٤.

٣٣- فرحات الجعبيري: **نظام العزابة عند الأباضية الوهبية في جربة**. تونس ١٩٧٥.

٣٤- محمد أبو الفرج العش: **النقود العمانية من خلال التاريخ الإسلامي**. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، سلسلة تراثنا، مسقط ١٩٨٤، عدد ٥٤.

٣٥- محمد عيسى الحريري: **مقدمات البناء السياسي للمغرب الإسلامي**، دار القلم، الكويت ١٩٨٣.

٣٦- محمد ناصر: **دور الأباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقية**. مسقط (دون تاريخ) مكتبة الضامري للنشر والتوزيع.

٣٧- محمود إسماعيل: **الخوارج في بلاد المغرب**. بيروت، دار العودة -القاهرة، مكتبة مدبولي ١٩٧٦.

٣٨- محمود إسماعيل: **دراسات في التاريخ والفكر الإسلامي**. القاهرة ١٩٩٤، دار سينا للنشر.

٣٩- ولكنسون: **عمان تاريخاً وعلماء**. ترجمة محمد أمين عبد الله، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨٠ (ط٢)، عدد ١٠.

ثالثاً: أبحاث ومقالات:

٤٠- الحبيب الجنحاني: "**دور عمان في نشاط التجارة العالمية خلال العصر الإسلامي الأول**"، مجلة المؤرخ العربي، عدد ٢٢، سنة ١٩٨٢.

٤١- السيد عبد العزيز سالم: "**الملاحون العمانيون سادة البحار الجنوبية في العصر الإسلامي**". بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون) -جامعة السلطان

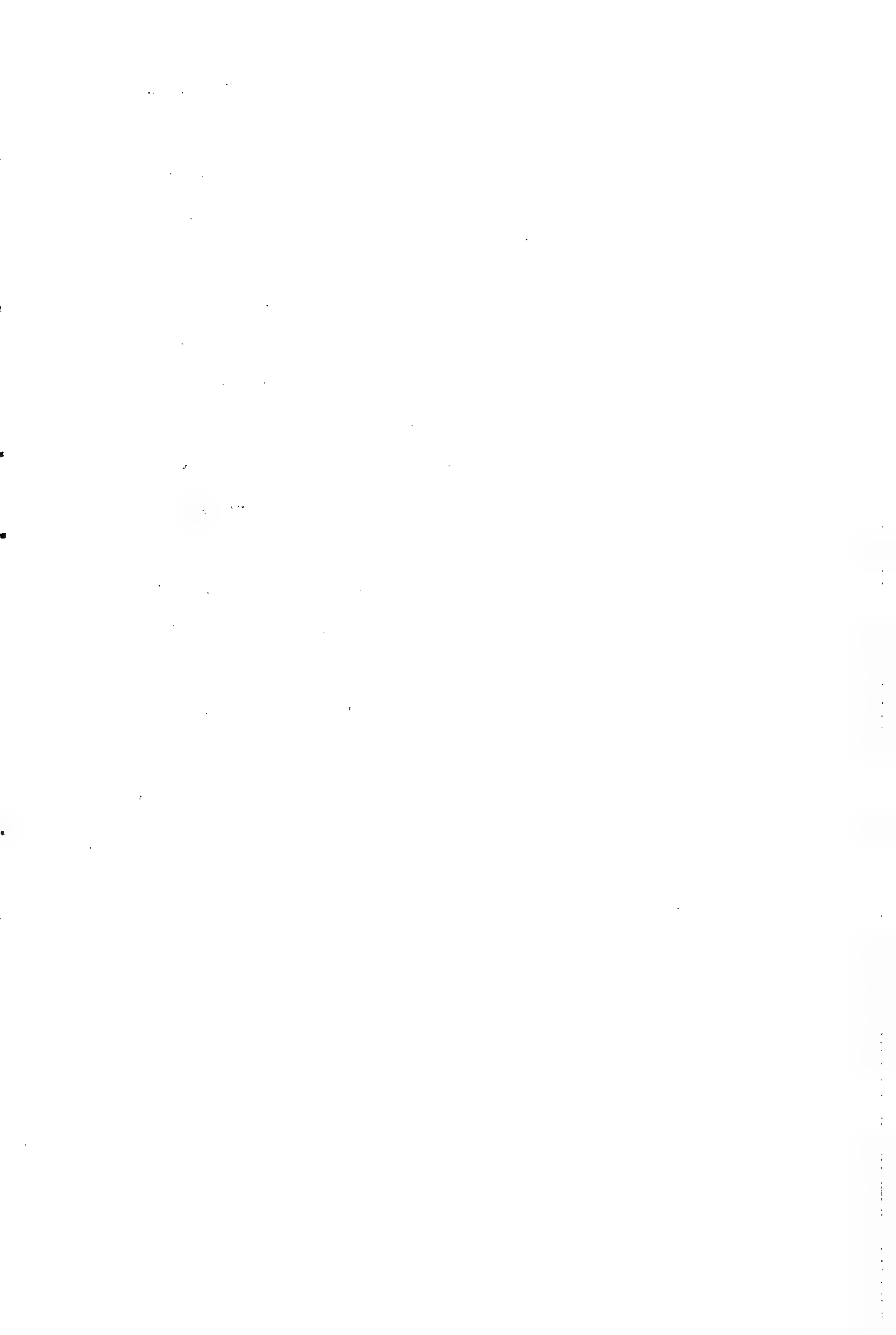
قابوس، سبتمبر ١٩٩٤.

٤٢- سحر عبد العزيز سالم: **"عمان وتجارتها مع الشرق الأقصى وشرق إفريقية"**. بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون) -جامعة السلطان قابوس، سبتمبر ١٩٩٤.

٤٣- باقر الحسيني : **"الدور الإعلامي والسياسي للنقود العمانية في العصر الإسلامي حتى نهاية القرن الرابع الهجري"**. بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون) -جامعة السلطان قابوس ١٩٩٤.

٤٤- سوداي عبد محمد: **"صلات تجارية بين البصرة والمغرب الإسلامي من القرن الثاني الهجري حتى أواخر القرن الرابع"**. مجلة المؤرخ العربي، عدد ٤٣ سنة ١٩٩٠.

٤٥- يوسف غوانمة: **"عمان في كتب الجغرافيين العرب"**. بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون). جامعة السلطان قابوس -سبتمبر ١٩٩٤.



مصالي الحاج «ونجم» شمالي أفريقية

من خلال مذكرات مصالي الحاج

الدكتور محمد خير فارس

جامعة دمشق ــ قسم التاريخ

مصالي الحاج «ونجم» شمالي أفريقية

من خلال مذكرات مصالي الحاج

إن الحديث عن النجم الشمال أفريقي هو في الحقيقة الحديث عن مؤسسه وزعيمه العامل البسيط مصالي الحاج، الذي ارتقى بنضاله إلى مستوى قادة العالم الثالث الكبار، والذي وصفه الحبيب بورقيبة بحق أنه(أبو الوطنية الجزائرية). كان النجم، الحزب الوحيد في الوطن العربي وربما في العالم الثالث كله بين الحربين، الذي نادى بالتحرر الكامل السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وآمن بوحدة شمال أفريقية، ووحدة المصير العربي، ووفّق بوضوح بين التراث العربي الإسلامي وبين حاجات العصر الحديث. ومن مدرسة مصالي الحاج تخرج قادة ثورة تشرين الثاني، ولكنهم اختلفوا معه وظلموه فمات بعيداً عن وطنه ١٩٧٤، ثم عمل بعض هؤلاء على إنصافه بعد مماته.

كتب أحمد بن بلاّ في مقدمة مذكرات مصالي الحاج:

"ما هو مسجل هنا إنما هو شهادة وصحوة ضمير، شهادة شعرت بالحاجة الماسة لها. فمنذ بعض الوقت في ذلك الليل الطويل أثناء توقيفي، في هذا الصمت والمواجهة مع الذات، بعيداً عن صخب الحياة وقرقعة الكلمات، فرضت عليّ فكرة هذه الشهادة وأنا استعرض شريط حياتي، فرضت عليّ ذكرى مصالي الحاج وقررت أن أرد له اعتباره وأنصفه.

هذه الحياة الغنية المليئة جداً، حياتي، أنني أدين بها للقاء مع هذا الرجل...

هذه البذرة كانت في بادئ الأمر في فكر سيدي الحاج، وهي أخيراً فكرة كل البلد وكل الشعب ومن ثم مجموعة من الرجال الذين خصبوها وأغنوها. هذه البذرة كانت أولاً

في فكر سيدي الحاج الذي غرسها قبل أي من الآخرين، وكانت هذه الغرسة بحاجة إلى عدة فصول شتاء وعواصف وعرق ودم قبل أن ترى النور سنة ١٩٢٦، في فرنسة ثم تنغرس في أرضنا سنة ١٩٣٧م، وارتفعت قوية وكان يلزم مرور سبعة عشر عاماً كي تتفتح الزهور المتعددة الألوان.. هذا الحريق في تشرين الثاني سنة ١٩٥٤، الذي قلب مصيرنا ومصائر الشعوب المضطهدة، ولأمور كثيرة نحن مدينون لهذا الرجل. ويكفي أن نعود إلى العام ١٩٢٦، فقد كان أولئك الذين كانوا يعتقدون انه سيأتي يوم يكون لبلدنا أن يستعيد استقلاله، كانوا قلة، وكان الأمر كذلك لسنين كثيرة بعد ذلك. فبفضل هذا الرجل وحفنة من أنصاره تحوّل ما بدا إيوتوبيا مجنونة إلى حقيقة...[1] وكتب المؤرخ الفرنسي شارل أندريه جوليان تعقيباً على المذكرات كمعاصر لمصالي وشاهد على مواقفه في ٣ حزيران ١٩٧٤، غداة السنة السابعة والسبعين من عمره، توفي مصالي الحاج في باريس بعيداً عن وطنه. مصالي الزعيم الجموح الذي كان كما صرح ـ بحق١٩٥٩ م الرئيس التونسي الحبيب بو رقيبة (أبو الوطنية الجزائرية) انه الآن ملك التاريخ والعدالة.

إن الجماهير الجزائرية مدينة لمصالي أكثر من أي شخص آخر بوعي هويتها التي لم يكن بإمكانها استرجاعها إلا بالاستقلال، وأياً كانت مصاعب النضال وسلبيات الظروف فإن مصالي لم يهادن أبداً.. إن شعبيته التي لا حدود لها فوق كل شيء، إضافة إلى قدرته على ترجمة المطامح العميقة للشعب الجزائري بالقول والعمل[2]. اعتبر مصالي نفسه وحزبه استمراراً لعبد القادر وعبد الكريم الخطابي، وهذا يوضح موقفه الصلب ورفضه المهادنة والحلول الوسطى.

لقد كتب الكثير عن "النجم"، والحق أن المثقفين الجزائريين أنصفوا مصالي أكثر مما أنصفه رفاق الدرب-ولذلك سأكتفي هنا بالحديث عن "النجم" وزعيمه مصالي من خلال مذكرات مصالي الحج التي نشرت عام١٩٨٢، بإشراف روبرت آجرون، الأستاذ في جامعة تور، ومحمد الحربي مؤلف عدد من المؤلفات عن تاريخ حركة

التحرير الجزائرية، وبنجامين ستورا الذي كرس رسالة الدكتوراه درجة ثالثة لمصالي الحاج، وابنته يانينا مصالي بن قلقاط. كان مصالي الحاج معجباً بجان جاك روسو، قرأ كتبه ودفعته قراءة اعترافات روسو إلى كتابة هذه المذكرات[٣] التي يجد القارئ فيها لمسات إنسانية رائعة، ربط مصالي فيها كل شيء بالسياسة: الحج، الرياضة، الهجرة، الحرب، الحب...الخ.

ولد مصالي الحاج في تلمسان التي ناضل أهلها الغزاة الاسبان طيلة ثلاثة قرون، وضد ظلم الأتراك وتعسفهم عشرات السنين، وجاهدوا الفرنسيين بقيادة الأمير عبد القادر خمسة عشر عاماً. كما شهدت تلمسان قيام أول حكومة جزائرية حديثة بقيادة عبد القادر، والتي قامت على أساس العدل والمساواة، وفي نضال تلمسان الطويل هذا، كان المغرب عمقها السياسي والعسكري والاقتصادي والديني. وارتبطت تلمسان عاطفياً مع المشرق، مع الشام، التي اختارها عبد القادر وطناً ثانياً، والتي اختار رافضو التجنيد الفرنسي من أهلها الهجرة إلى الشام، وبقي أهلهم يرددون الدعاء إلى الله أن يجمعهم مع إخوانهم في الشام[٤].

هكذا ولد مصالي الحاج ونشأ في أرض، كان الكفاح ضد الغزاة، أحد مقومات حياتها ـ أرض نمت فيها المشاعر المغربية والعربية، فكان جزائرياً يكافح في سبيل استقلال الجزائر التام، وكان مغربياً يؤمن بوحدة النضال المغربي لتحرير المغرب الكبير ووحدته، وكان عروبياً يتطلع إلى وحدة الكفاح والمصير العربيين، وكان إسلامياً متنوراً يدرك دور الإسلام في الوحدة الوطنية الجزائرية والمغربية وحماية الهوية القومية وفي النضال ضد الاستعمار[٥]. وكان اشتراكياً يؤمن أن التحرر السياسي لا يكتمل إلا بالتحرر الاقتصادي والاجتماعي.

كانت فرنسة تعدّ الجزائر امتداداً طبيعياً لأراضيها (فرنسة ماوراء البحر) وقد اعتبرها دستور ١٨٤٨ جزءاً لا يتجزأ من سيادتها الوطنية. وبعد هزيمة ١٨٧٠ وخسارتها

الألزاس واللورين ستشكل الجزائر وخيراتها التعويض المادي والمعنوي لخسائر فرنسة وإخفاقاتها. ستتحول كما تقول جريدة (الوطن) إلى (ألزاس لورين جديدة) أو (فرنسة أفريقية)[٦]. ولد مصالي الحاج في تلمسان عام ١٨٩٨ في أسرة فلاحية فقيرة تنتمي إلى الطريقة الدرقاوية. وكان والده تلمسانياً عريقاً وفلاحاً بسيطاً يحظى باحترام السكان. أما والدته فكانت تنتمي إلى أسرة من البرجوازية الصاعدة، ولم تكن تهتم بأسرة والده. وقد تأكد لكل من الأسرتين في أعماق كل منهما أنه ليس بينهما شيء مشترك، فالغنى والفقر لا يمكن أن يلتقيا ويتعايشا معاً، الفقر يتكلم لغة والغنى يتكلم لغة أخرى[٧].

عمل مصالي أجير حلاق ثم أجير إسكافي ثم عمل في بقالية عند أحد أقاربه ثم في مصنع للسجاد، ولما صدر قانون منع تشغيل الأولاد من عمر الأربع عشر سنة فما دون، اضطر إلى العودة إلى المدرسة ليكمل تحصيله الابتدائي، ولكنه فشل في السرتفيكا بسبب ضعفه في الحساب.

لاحظ مصالي اهتمام المجتمع التلمساني بالحج ونظرتهم إليه كعمل استقلالي إزاء المحتل وكصلة مع مجموعة العالم الإسلامي. إن الحجاج من مختلف البلاد يمكنهم أن يتصلوا ببعضهم البعض خلال عدة أسابيع ويتبادلون المعلومات حول بلدهم، ويتدارسون المشاكل الاقتصادية والسياسية والثقافية ومسألة تبادل المساعدات. وكان كل منهم يبث همومه وآماله، وكل واحد منهم حين يعود إلى بلده يصبح بقوة الأشياء داعية ويناضل من أجل عظمة الحضارة الإسلامية "وحين يعلن الراغب في الحج ترشيحه للسفر إلى الأرض المقدسة يصبح شخصية متميّزة في أسرته وحيّه"[٨].

لاحظ مصالي الارتباط العاطفي بين تلمسان والشام. ذلك أن استقرار الأمير عبد القادر في دمشق جعل اسم الشام معروفاً في الجزائر ومحبوباً. وجاء قانون التجنيد الإلزامي ليعمقَ هذه الرابطة. فقد أحدث مشروع التجنيد الذي فُرِض على الجزائريين

استياء وقلقاً وغضباً لدى الأسر، وكانت الأمهات أكثر الناس تأثراً. وكن يقلن أنهم يريدون سرقة أولادنا وتدمير الخلية الأسرية. إن هذا لن يحدث، إن الله لن يسمح بذلك" وكان حديث الجميع في المقهى والمسجد والزاوية والسوق حول ضريبة الدم التي فرضتها الحكومة الفرنسية على الأهالي. واعتبر الأهالي هذا المشروع استفزازاً ومساً بمبادئ الإسلام، ورأت فيه الأوساط الإسلامية وسيلة لتنصير المسلمين"[٩]. ونودي أن الخدمة العسكرية حرام وإنها معصية للخالق. وخطب مفتي تلمسان ضد التجنيد وحثّ الناس على الهجرة. وقد تركت هذه الهجرة التي توجهت نحو الشام صدىً في الأغاني الشعبية التي كانت تنتهي "اللهم أجمعنا جميعاً في الشام"[١٠].

يذكر مصالي أنه في أيامه كان أكثر الجزائريين لا يعرفون الفرنسية. وكان التلاميذ الفرنسيون يتشدقون بهزء أمام زملائهم الجزائريين، فيغضب هؤلاء ويردون أحياناً بالضرب. وكانت هذه التعابير شائعة "عربي قذر" "فرنسي قذر" "اسبانيولي قذر" "يهودي قذر"[١١]. وصار الجزائريون يحورون كلمة Civilisation إلى Syphilisation نسبة إلى مريض السفلس، الذي كان يفتك بالسكان الجزائريين بسبب نقص التغذية[١٢]. وبدأ الشباب العربي آنذاك يتعشق الرياضة التي تغذي روح المنافسة للأوربيين.

كانوا يريدون أن يؤكدوا أنهم أنداد للفرنسيين، بل كانوا يريدون قهرهم بالرياضة. كان هذا المفهوم يتضمن روحاً وطنية.

في عام ١٩١٨م، سيق مصالي إلى الجندية ونقل إلى بوردو، وتسجل في جامعة بوردو كمستمع حر لمتابعة دروس العربية وحضور بعض المحاضرات العامة. وفي شباط ١٩١٩م، سمح له بالعودة إلى الجزائر.

يذكر مصالي أنه حين زار العديد من أصدقائه الصناع كان هناك سؤال يطرح عليه دوماً "ماذا يظن فينا الفرنسيون في فرنسة وقد انتهت الحرب الآن؟ ماذا تعرف أنت الذي أمضيت في فرنسة عاماً؟ هل ستعترف فرنسة بحقوقنا؟"

يقول مصالي، أن السؤال عن حقوقنا الذي أصبح أكثر تردداً لم يكن جديداً، لأنه كان قد سمعه عام ١٩١٠-١٩١١، وفي كل مكان كان هذا السؤال عن حقوقنا وعن مؤتمر الصلح. وكان الجزائريون يتوهمون أن لدى الرئيس ويلسون الرغبة في التدخل لصالح تركية والعرب وشمالي أفريقية. وكان الحديث عن مبادئه الأربعة عشرة مألوفاً، وبخاصة حق الشعوب في تقرير مصيرها. وكان الجزائريون يأخذون رغباتهم كحقائق. إن الاشتراك العام بالمناقشة السياسية يثبت أن مستقبل الجزائر كان يشغلهم لأقصى درجة، وكان هذا يجري في كل مكان. وكانت المطالب والاحتياجات وآمال البعض تنتشر في طول البلاد وعرضها. لأنه خلال الحرب وبعدها سافر الجزائريون كثيراً...لقد آذت الحرب كل الناس بما فيهم الجزائريين الذين فقدوا مئات الآلاف في ساحات المعارك في فرنسة وغيرها، ولكن الحرب جعلت ملايين الناس من أجناس وأديان مختلفة يلتقون. وعلى الصعيد الاقتصادي أسهمت الحرب في خلق برجوازية جديدة. ولم يكن لمصالي موقف إزاء البرجوازية، ذلك أن وجودها حادث اقتصادي...وليس هناك شيء غير طبيعي. إن هذا الحادث يعكس تطوراً وتقدماً اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً يمكن أن يكون له نتيجة سعيدة في المستقبل. ومع ذلك، يجب ألا يغيب عن البال أنه في بلد كالجزائر تميل البرجوازية الصاعدة إلى جانب الإدارة الاستعمارية، خوفاً من أن تفقد مركزها وغناها اللذين حصلت عليهما بشرف أو بدون شرف، وهكذا كانت هذه الطبقة تتذبذب(١٣).

في عام١٩٢٠، رقي مصالي الحاج إلى رتبة عريف ثم رقيب مما أدى إلى تحسن وضعه. ولكنه أحس بالتمييز العنصري فقد كان يتقاضى يومياً فرنكاً ونصف بينما زميله الفرنسي يتقاضى سبعة فرنكات. قدم مصالي احتجاجاً إلى القيادة قوبل بالرفض وأفهم أن كونه من الأهالي يحول دون تمتعه بكل حقوق الفرنسيين(١٤).

وكان الجزائريون يشعرون بالمرارة، لأنهم استخدموا إبان الحرب كمرتزقة وإنهم أعيدوا بعد الحرب إلى قراهم ليبيعوا أنفسهم للمستوطنين بأجور زهيدة.

في ربيع ١٩٢٠ اطلع مصالي على جريدة الأومانيته، وجذبت اهتمامه بما كانت تكتبه عن تركية وسورية وإيران وغيرها من بلاد المشرق، كما كانت تتحدث عن مصطفى كمال. ومنذ ذلك الحين، بدأ يواظب على مطالعة هذه الجريدة. وكان شراؤه لها يثير الاستغراب، كان بعض رفاقه في الجيش يرى أن هذه الجريدة اشتراكية ضد الوطنية وأن قارئها يعاقب وتنزل رتبته، و"ليس لرقيب في الجيش الحق في قراءة جريدة تتحدث دوماً عن الأحزاب وتهين الجيش الفرنسي".

وكان البعض يقولون: "إنها جريدة الشعب والعمال والفقراء، وكانت كلمة العمال والفقراء تؤثر فيه. ومنذ ذلك الوقت، كانت عواطفه مع هذه الجريدة وكانت هذه الخطوة الأولى في طريقه باتجاه الحزب الشيوعي[١٥].

بعد ثلاث سنوات من الإقامة في فرنسة وفي أواخر ١٩٢٠، لم يعد مصالي الحاج ذلك الذي كان قبل الحرب. أصبح شخصاً آخرّ وبدا له أن تلمسان الصغيرة لا يمكن أن تكفيه كمجال للعمل بعد تسريحه من الجيش. حاول العمل في تلمسان ولكنه لم يرتح للعمل الذي لا يحترم حقوق العامل من حيث الأجر وساعات العمل.

كان اهتمام مصالي يزداد بالشرق الذي كان يسحره من خلال ألف ليلة وليلة ومن كتابات بيير لوتي. وكان يهتم بصفة خاصة بالأحداث الدولية وبخاصة اقتسام العالم العربي الإسلامي وبالوضع في شمالي أفريقية[١٦]. وفي الأشهر الأولى من عام ١٩٢١، عاد عدد من الأسر التلمسانية التي هاجرت ١٩١٠ وتحدثت عن سحر الشرق وقوة تركية المعنوية ويقظة العالم العربي.

كانت سنة ١٩٢١ هامة في حياة الجزائريين، فقد أسعدهم وأنعش آمالهم انتصار الأتراك على اليونان في اسكي شهر، وانتصار عبد الكريم الخطابي على الأسبان في معركة أنوال، ويقول مصالي أن الثورة الكمالية وحرب الريف أحدثت صدمة نفسية في كل الجزائر.

مصالي الحاج والشيوعية:

في بداية عام١٩٢٢، بدأ الحديث في تلمسان عن الشيوعيين، وكان هناك لفظ آخر "البولشفيك". كان مصالي كما يقول يجهل العقيدة الشيوعية التي بدت له صعبة على الفهم، وكان أهلنا الكبار لا يحبون روسية "قيصرية أم شيوعية" لأنها حاولت أكثر من مرة في تاريخها انتزاع أراضٍ من تركية. ولكن الدعاة الشيوعيين كانوا يُبسّطون الأمر بقولهم: "الشيوعيون مع الفقراء والمستغلين وضحايا النظام الاستعماري ومثل كثير من المواطنين كان مصالي يمنح عطفه للشيوعيين(١٧).

وانتشر في تلمسان قدوم نائب شيوعي إلى تلمسان لإلقاء محاضرة في ٢٢ آذار ١٩٢٢م في إحدى دور السينما التي غصت بالحضور من الفرنسيين والعرب. شرح المحاضر مبادئ حزبه وفضح مساوئ الاستعمار، وحسب شرحه فإن الشعب الجزائري وقع على الأرض وفوقه القائد وفوق القائد الإداري وفوق الإداري كل ثقل الجهاز الإداري، واستخلص النتيجة التالية: "أن كل ثقل الأستعمار يتحمله الفلاحون والعمال. واعترف مصالي إن معظم المسائل التي تطرق إليها المحاضر كانت معقدة جداً بالنسبة لمعرفته، وكان يعتقد أنه ليس وحده على هذه الحال. كان عليه أن يمضي عشر سنين ليبدأ بفهم ما جرى في روسية، وكيف أن هذا البلد الكبير توصل إلى ثورته، "ولكن القليل الذي فهمناه كان كافياً لينيرنا ويكفينا ما دام أن الشعب الروسي أعلن أنه صديق لكل الشعوب المستعمرة"(١٨).

كان الفلاحون والعمال والطبقات الشعبية الفقيرة تميل إلى الانتظار، وكانت تعد آنذاك الأطباء والمحامين ورجال الأعمال والموظفين وحدهم القادرين على الدفاع عن مصالحهم، لأنهم متعلمون ويعرفون القانون ويتكلمون لغة المنتصر. وكان الشعب يعتقد أن كبار الأسر المدينية وكبار الأسر الارستقراطية والدينية سيساعدونه على إيجاد حقوقه(١٩).

في صيف ١٩٢٢ سمع أهالي تلمسان بقدوم الأمير خالد فاستعدوا للقائه، ولكنه وصل ونزل في بيت أسرة تلمسانية كبيرة...ودعي من قبل غيرها من الأسر الكبيرة. والحق كما يقول مصالي أنه كان ضيف البرجوازية الكبيرة التي احتكرته، أما عامة الناس فلم تتمكن من رؤيته. وفي رأي مصالي وأمثاله، أنه كان على الأمير خالد أن يسعى بنفسه لرؤية الناس البسطاء الذين كان لديهم الكثير ليقولونه. وجعلهم يقارنون بين زيارته وزيارة النائب الشيوعي الذي سعى لمقابلة الفقراء "أننا نحب الأمير خالد ونحترم شجاعته وماضي جده التاريخي ولكننا أصبنا بخيبة أمل"[٢٠].

في خريف ١٩٢٣، وصل مصالي إلى باريس وبدأ يعمل في مصنع وتزوج فرنسية[٢١]. كان مصالي يسمع من العمال الجزائريين شكواهم من التمييز العنصري ومن قلة أجورهم وحديثهم عن قانون الأهالي وحرب الريف ومصطفى كمال. وكان البعض يبدي رغبته بالانضمام إلى عبد الكريم.

وفي الأوساط الشمال أفريقية في باريس، كان النقاش حاراً حول أحداث الريف وشخصية الأمير عبد الكريم، وكانت صورة الأمير في جيب كل عامل جزائري. كان الحزب الشيوعي الفرنسي يقف إلى جانب الأمير عبد الكريم، وقد نظم عدة اجتماعات حضرها مصالي في صيف ١٩٢٤، ومنذ ذلك الوقت أصبحت جريدة الأومانيته جريدته المفضلة[٢٢]. في عام ١٩٢٤، جرت انتخابات تشريعية في فرنسة، خاضها كارتل اليسار*. حضر مصالي الاجتماعات الانتخابية التي كان اليسار ينظمها، وكانت هذه الانتخابات بمثابة تدريب حقيقي وإعلامي وتثقيف سياسي تعرف مصالي خلالها على الحاج علي عبد القادر، مرشح الحزب الشيوعي الفرنسي، وأعجب بخطابه وربطت بينهما منذئذٍ علاقات صادقة وثيقة. كان الحاج علي عضواً في اللجنة

---

* أي اتحاد الأحزاب اليسارية: الحزب الشيوعي، الحزب الاشتراكي الديمقراطي، والحزب الراديكالي. (رئاسة التحرير: م.م.).

الاستعمارية للحزب الشيوعي الفرنسي، التي كانت تضم عشرة أشخاص، كان ثلاثة منهم جزائريين. وبتأثير الحاج علي انتسب مصالي للحزب الشيوعي دون أن يفهم إيديولوجيته. كان الواضح بالنسبة له موقف الشيوعيين المعادي للاستعمار والمدافع عن حقوق العمال والفلاحين(٢٣). ولكن مصالي ما لبث أن وجد استعداداً لدى العمال الجزائريين للاعتماد على النفس. قال أحد رفاقه وهو شاب ذو خبرة وتجربة، أنه ينبغي الآن أن نعمل بأنفسنا لأنفسنا شيئاً محسوساً وعملياً. ينبغي أن نشرع في إيجاد تنظيم وابتكار علم نناضل باسمه من أجل كرامتنا وحريتنا وتحررنا...(٢٤).

وفي اجتماع ضم الحاج علي ومصالي وآخرين، بدت في آذار ١٩٢٦ جمعية "نجم شمالي أفريقية". ومنذ ولادة هذا التنظيم الجديد عيّن مصالي رئيساً له وكما يقول: «قررت قيادة "النجم" عقد عدة اجتماعات في مقاهي الدائرة ١٩ الصغيرة في باريس لتعرض على الجزائريين وكل المغاربة الجمعية الجديدة. لقد عرفت الاجتماعات الأولى بعض النجاح وأثارت بعض الفضول، وحتى ذلك الوقت لم يوجد لا في فرنسة ولا في الجزائر تنظيم مشابه لهذا التنظيم. لقد شرحنا لماذا أقمنا مثل هذا التنظيم ولأية غاية، وكان مواطنونا مسرورين، ولكنهم كانوا حذرين نوعاً ما(٢٥)، ذلك لأننا لم نكن معروفين. فنحن لم نكن في الجزائر مستشارين بلديين ولا قواداً ولا حتى معلمين في المدارس الأهلية. وكان بيننا وبين الأمير خالد فرق كالفرق بين الليل والنهار. كان رفاقي عمالاً في مصانع وكنت أنا صبياً في مخزن خياطة، وكان من الصعب خلق مناخ من الفهم...كان مواطنونا في الواقع يظنّون أننا نريد عزلهم وينظرون إلينا كرجال نقابة ولا يفرقون بيننا وبين الشيوعيين ولنجعلهم يقدروننا ونخلق لديهم الثقة بنا، كنا نشرح خلال الاجتماعات أحداث الساعة وكنا حريصين ألا نطلب أية مساعدة مادية، ولكن كل هذا لم يكن كافياً(٢٦)».

وفي البداية لم يكن للجمعية مقر ثابت، استخدمت المقاهي والمطاعم الشيوعية

للاجتماع، حصر مصالي الموضوعات التي ينبغي التركيز عليها في حديثه مع العمال الجزائريين:

١- التذكير بإيجاز بالماضي التاريخي للإمبراطورية العربية.
٢- شرح عظمة الحضارة الإسلامية وإشعاعها في العالم وذكر الحضارة العربية في الأندلس والعرب في بواتييه.
٣- احتلال الجزائر والمقاومة الجزائرية وملحمة الأمير عبد القادر وأبطالنا.
٤- شرح حول ثورة الأمير عبد الكريم وروح التضحية لديه.
٥- توضيح عظمة الثورة الكمالية وشخصية مصطفى كمال العظيمة.
٦- المبادئ الإسلامية والنضال من أجل الاستقلال.
٧- يقظة العالم الإسلامي.
٨- الوضع في الجزائر.
٩- كيف حدث احتلال بلادنا وإخضاعنا لنظام قانون الأنديجينا(*) والاستيطان.
١٠- ماذا تريد "النجم" الشمال افريقي[٢٧]. واعترف مصالي أن معرفته بمعظم هذه النقاط كانت سطحية، ولهذا قرر دراستها. فانتسب إلى الصوربون كمستمع حر في مدرسة اللغات الشرقية، وكان يتابع المحاضرات في الصوربون والكوليج دوفرانس.

بعد مضي ثلاثة أشهر على ولادة (النجم) قررت القيادة تنظيم لقاء عام للتعريف بالجمعية على نطاق واسع وإعطائها طابعاً رسمياً، وذلك في ٢٦حزيران ١٩٢٦. ضم الاجتماع آلاف الجزائريين والفرنسيين وبعض الصحفيين بينهم مصري. ترأس

(*) من الكلمة الفرنسية INDIGENE بمعنى (أهلي، بلدي وهنا بمعنى جزائري). وبهذا المفهوم فسياسة "الأنديجينا" التي حاول تطبيقها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، تضمنت إجراءات تمييزية/عنصرية بحق الجزائريين، سكان البلاد الأصليين في مجالات السياسة والعمل والتنقل إلخ.. (رئاسة التحرير م.م).

مصالي الاجتماع وألقى خطاباً هاماً. أشار مصالي إلى التزامن المحزن والسعيد في آن واحد. ففي الوقت الذي كان فيه عبد الكريم يخوض آخر معركة ضد التحالف الفرنسي الأسباني، بدأت (النجم) دخولها العظيم في الأحياء الفقيرة. هناك شيء ما يلاحظ، كي لا نقول أنه إلهي، فهناك في كل هذا إرادة الله ويد الخالق. وبهذا الخصوص قال الأمير عبد القادر حين يموت شخص برصاص العدو يحيا إنسان آخر. وينبغي القول أن (النجم) ولدت لتستأنف معركة الأمير عبد القادر والأمير عبد الكريم[٢٨]. وكشيوعي شمال أفريقي كان مصالي يحضر عدة لقاءات في مقر اللجنة الاستعمارية في شارع البارترياش، وهناك كان يقرأ جريدة (الباريا) التي كانت تعالج مشاكل البلاد الأفريقية الآسيوية والإقيانوسية. وفي هذا الشارع قابل مصالي عدداً من مناضلي البلاد الآسيوية والأفريقية الذين أصبحوا فيما بعد شخصيات كبيرة قائدة لبلادهم.

كان عمل مصالي الانتشار في كل الدوائر الباريسية للتعريف بالنجم، وقد أبلغه الحاج على أنه قد فُرّغ للنجم وأنه سيتلقى مرتباً لقاء ذلك، وطلب منه الاستمرار بحضور اجتماع خليته في الحزب الشيوعي في الحي الذي يقيم فيه، "ذلك لأن هذا سيجعلك أفضل من حيث التنظيم ومن حيث المنهج السياسي"[٢٩]. يصف مصالي الحاج على أنه كان "كبيرنا ومستشارنا ولكنه لم يكن يمارس أية مسؤولية مباشرة وكوسيط بيننا وبين الشيوعيين كان مسموعاً ومقدراً لدينا ولديهم"[٣٠].

في بداية ١٩٢٧، كان مصالي رئيساً للحزب وأميناً عاماً في آن واحد، بانتظار أن يأتي أحد يتحمل عنه إحدى هاتين المسؤليتين. وقد نصحه الحاج علي بالاحتفاظ بالأمانة العامة وترك الرئاسة لصديق. وفي هذه الأثناء، تعرف مصالي على الشاذلي خير الله، العضو في حزب الدستور التونسي، فأوكل إليه الرئاسة[٣١].

مؤتمر بروكسل: في ٢٧ شباط ١٩٢٧، عقد في بروكسل مؤتمر تحت شعار "من أجل النضال ضد الاستعمار واستقلال الشعوب المضطهدة" حضرته شخصيات بارزة من

أوربة وآسية وأفريقية، واشترك فيه (النجم) ممثلاً بمصالي والشاذلي خير الله. تعـرف مصالي خلال هذا المؤتمر على نهرو ومحمد حتا والبكري ممثل سورية وسنغور.

وفي أول اجتماع كان على رؤساء الحركات السياسية إعطاء تصريح قصير للصحافة الدولية، عالج مصالي في تصريحه ما ينبغي أن يكون عليه التعليم في الجزائر وبيّـن كيف أن عشرين ألف من الأطفال العرب لايستطيعون دخـول المدرسـة. وفضـح مصالي النظام الاستعماري "الذي جعل من لغتنا العربية لغة العرب لغة أجنبية"[٣٢].

لقي خطاب مصالي اهتماماً وترحيباً وقوبل بالتصفيق لاسيما حين وصل إلى البرننامج السياسي للنجم[٣٣].

وكان يتألف من مطالب فورية:

١- إلغاء فوري لقانون الأندنجينا وكل التدابير الاستثنائية.
٢- العفو عن كل المساجين أو الذين تحت المراقبة الخاصة أو المنفيين بسـبب مخالفته قانون الأنديجنيا. أو بسبب جنح سياسية.
٣- حرية السفر المطلقة نحو فرنسة والخارج.
٤- حرية المطبوعات والجمعيات والاجتماع وحقوق سياسية ونقابية.
٥- أن يحل محل المندوبين الماليين المنتخبين بالتصويت المحدود، برلمان وطني جزائري منتخب بالتصويت العام.
٦- إلغاء البلديات المختلطة والمناطق العسكرية وأن يحل محل هـذه الأنظمـة مجالس بلدية منتخبة بالتصويت العام.
٧- وصول الجزائريين إلى كل الوظائف العامة دون أي تمييز، ولكـل وظيفـة متساوية مرتب متساوٍ للجميع.
٨- التعليم الإلزامي باللغة العربية، إنشاء مدارس عربية جديدة، أن تحرر كـل الوثائق الرسمية بالعربية والفرنسية.

٩- وما يخص الخدمة العسكرية: الاحترام الكامل للأية القرآنية التي تنص على أن من يقتل مسلماً عامداً متعمداً مصيره جهنم وبئس المصير (هدف ذلك عدم إرسال الجزائريين ليحاربوا ضد إخوانهم في المغرب والمشرق).

١٠- تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية، حق المعونة العاطلين عن العمل للأسر الجزائرية في الجزائر، وإعانات عائلية.

١١- توزيع القروض الزراعية على الفلاحين الصغار، تنظيم أكثر عقلانية للري، تطوير وسائل المواصلات، معونات مجانية من الحكومة لضحايا المجاعات.

ونص البرنامج السياسي على: الاستقلال الكامل للجزائر، انسحاب كامل لقوات الاحتلال، تشكيل جيش وطني، وحكومة وطنية ثورية، ومجلس دستوري منتخب بالتصويت العام لكل الدرجات، وحق الترشيح لكل سكان الجزائر، اعتبار اللغة العربية لغة رسمية، أن تعود للدولة الجزائرية ملكية البنوك والمناجم والسكك الحديدية والموانئ والخدمات العامة، التي يحتكرها الذين استولوا عليها، مصادرة الملكيات الكبيرة التي يحتكرها الإقطاعيون المتحالفون مع الغالبين والمستوطنين والمجالس المالية، إعادة الأراضي المصادرة إلى الفلاحين، احترام الملكيات المتوسطة والصغيرة، عودة أراضي الغابات التي تحتكرها الدولة الفرنسية إلى الدولة الجزائرية، التعليم الإلزامي باللغة العربية في كل الدرجات، اعتراف الدولة الجزائرية بالحق النقابي وحق تشكيل الجمعيات وحق الإضراب وسن قوانين اجتماعية، مساعدة فورية للفلاحين لتخصيص قروض للزراعة بدون فائدة من أجل شراء الآليات والبذار والأسمدة.

هنأ الجزائريون والسوريون والمصريون والأندونسيون والهنود والسنغاليون والتونسيون مصالي بحرارة كما فعل مثل ذلك مندوبون غير عرب وغير مسلمين. ودعاه الوفد الأندونيسي برئاسة محمد حتا وممثل سورية البكرى لتناول الشاي وتبادل الأفكار. وصف مصالي أيام بروكسل أنها كانت أياماً عظيمة تاريخية. وكان مصالي

مسروراً، فقد أعلن برنامج (النجم) السياسي، الذي ينص على الاستقلال ووحدة شمال أفريقية بشكل علني أمام الرأي العام الدولي(٣٤).

- مسجد باريس:

- تحدث مصالي عن افتتاح مسجد في باريس صيف ١٩٢٧م. وتساءل كيف يمكن بناء جامع في باريس، وفي الوقت نفسه إرسال جنود من شمالي أفريقية للحرب في سورية ضد إخواننا. وقاومت (النجم) الطنطنة التي رافقت تدشين المسجد وكشفت لمناضليها هذه المناورة الحقيرة التي تجرح كرامة المسلمين. وأطلقت (النجم) الشعار التالي "مدارس في الجزائر يسقط الاستعمار والظلاميون أعداء التقدم" وطالبت النجم أن يحترم المسجد كمكان للصلاة والخشوع، ذلك أنه ألحق بالمسجد حمام وسوق ومطعم مع موسيقيين، حيث كان الزبائن من الجنسين يسمحون لأنفسهم بأوضاع لايقبلها الإسلام ولا المسيحية. ونظم (النجم) حملة مداهمات من الطلاب والعمال الجزائريين لإجبار الزبائن على احترام الأماكن المقدسة وعدم تدنيسها وكأنها من علب الليل(٣٥).

- كما فضحت (النجم) الأمر بعدم تسجيل الأطفال المولودين حديثاً من أب جزائري وأم فرنسية في سجل الأحوال المدنية بأسماء عربية. وقد ترك العديد من الجزائريين أطفالهم دون أسماء كرفض للخضوع لهذا التنصير الإجباري(٣٦).

- مهازل الاحتفال بمرور مئة عام على إحتلال الجزائر: منذ ١٩٢٩ بدئ بإعداد الرأي العام الفرنسي والدولي للاحتفال بمرور مئة عام على احتلال الجزائر. ولهذا -دون شك- حلت (النجم) وغيرها من المنظمات الإفريقية والهندوصينية. وفي الجزائر عمل كل شيء من أجل إشراك الأهالي في هذه المهزلة الاستعمارية الكبرى. ودعى بورجوازيو الجزائر ومثقفوها وإصلاحيوها للمشاركة في هذا العيد. ودعي القواد والأغوات والباش آغوات والنواطير والعسكريون والجمعيات

من كل نوع إلى إعداد الألبسة لمناسبة هذا العيد المئوي وحضر الكثير من النواب والشيوخ والوزراء وكبار الموظفين والتجار من فرنسة لحضور ومشاهدة "النوبة الكبرى" في مكانها. وكتبت الصحافة بعناوين بارزة "الجزائر هي النجاح العظيم" "الجزائر هي فرنسة" "الجزائر هي امتداد لفرنسة"... "الجزائر هي بستان فرنسة" واستمرت هذه الضجة عدة أسابيع. وكانت عربات وسيارات تطوف الجزائر بكل اتجاه معلنة هنا وهناك عن عمل فرنسة العظيمة التمديني. وكان هناك غناء ولهو ورقص مع شراب وطعام أمام شعب خاضع لنظام القوانين الاستثنائية.وشعر الجزائريون بالمهانة والإذلال والاستفزاز والدوس على الكرامة والمشاعر والدين. لقد أجبروهم على الاحتفال بقرن من الاستعمار والمعاناة والاستغلال والظلامية[٣٧].

رغب مصالي ورفاقه بهذه المناسبة محاكمة قرن من الاستعمار وأن يشركوا معهم مواطنيهم والرأي العام الفرنسي والدولي وقرروا عقد اجتماع كبير، وللرفع من تأثير هذه المظاهرة والحصول على أكبر نجاح أعلنوا في منشور أن الأمير خالد الذي اختاروه كرئيس شرف (للنجم) سيحضر شخصياً هذا الاجتماع الهام[٣٨]. ونظموا عدة مجموعات من مناضلي (النجم) للطواف في باريس والضاحية لجذب أكبر عدد ممكن من الجزائريين. واستمرت التحضيرات أكثر من أسبوعين. غصت قاعة الاجتماع الذي استمر ثلاث ساعات، وقام الخطباء بمحاكمة الاستعمار وفضحوا مهزلة الاحتفال المئوي للسيطرة الاستعمارية.[٣٩] وعلم مصالي من الصحافة أن هناك لجنة سورية فلسطينية كانت تقيم قرب عصبة الأمم[٤٠] للدفاع عن قضية إخواننا العرب. أرسل مصالي مذكرة إلى عصبة الأمم تفضح قرناً من الاضطهاد والاستغلال وتطرح مسألة الإستقلال[٤١].

وفي العام نفسه الذي جرت فيه مهزلة الاحتفال المئوي بالجزائر، وبعد أربع سنوات من استسلام الأمير عبد الكريم، أصدر الاستعمار الفرنسي الظهير البربري الشهير

الذي كان عليه أن يمحو آثار ثورة الريف ويفتح البلاد على البربرة كمرحلة أولى لتنصير ٣/٥ سكان المغرب. كان الفرنسيون كما يقول مصالي يرغبون بطريق ملتو للشروع بالقضاء على إسلام السكان المغاربة. إن هذا العمل البشع الذي كان الاستعمار قد بدأ به في الجزائر كان ينبغي أن يمتد إلى تونس بعقد المؤتمر الأوفخاريستي(*) وتدشين تمثال للكاردينال لافينجري مؤسس مدارس المشرق والآباء البيض، وتحالف السيف والتعميد لاستئناف الحروب الصليبية والاستيلاء إلى الأبد على المغرب العربي.

ولكن الظهير البربري عزّز في الحقيقة التضامن بين الشمال أفريقيين وشجع تقارباً بين المغرب والمشرق، فقد تحرك المشرق العربي الإسلامي كله وعلى رأسه حكامه ورفعوا الاحتجاجات[٤٢]. وقد سبقت هذه الحملة المعادية للاستعمار المؤتمر الإسلامي العالمي الذي سيعقد في القدس في كانون أول ١٩٣١[٤٣]. إن هذا المؤتمر الذي كان له دور كبير في كل البلاد العربية والإسلامية إنما عقد ليدعو إلى الاتحاد بين كل مسلمي العالم. وكانت مسألة وحدة الحركات الوطنية والنضال من أجل الاستقلال في صلب المناقشات.

وفي هذه الفترة التي تعالت من كل جهة الاحتجاجات ضد تصرفات الاستعمار، رؤى إقامة معرض استعماري فرنسي في باريس. جاءت هذه المبادرة من الماريشال ليوتي. وُدعى الباريزيون وفرنسيو الأقاليم لزيارة المعرض ومشاهدة الأهالي ونمط حياتهم كما لو كانوا يتفرجون على حديقة الحيوانات. وقف (النجم) ضد هذا المعرض وأقام بالتعاون مع الشيوعيين معرضاً استعمارياً معاكساً في بيت النقابات في باريس. وقد تلقى منظمو هذا المعرض المعاكس قطعاً فنية ذات قيمة تاريخية، وجاء عدد كبير من

(*) الأوفخاريستية: من الكلمة اليونانية "أوخاريستية" بمعنى: سر الشكر الإلهي. وفي المسيحية "سر القربان المقدس" (رئاسة التحرير، م.م.).

الزوار لرؤيتها واستخلصوا بأنفسهم أن الأهالي كانوا قادرين على العيش بحرية واستقلال وأن طنطنة غابة فانسين ليست إلا دعاية لخداع الفرنسيين حول فظائع الاستعمار[٤٤].

مصاعب واجهت النجم: لاحظ مصالي فتوراً من الشيوعيين الفرنسيين إزاءه، وقد أبلغه الحاج علي في خريف ١٩٢٧ أن الشيوعيين لم يعد بوسعهم الاستمرار بمساعدة (النجم) مادياً، ولكنهم سيستمرون في تقديم المساعدة في مجالات أخرى. وأخبر الحاج علي مصالي أن عليه الاعتماد على نفسه وإيجاد عمل له. أبلغ مصالي لجنة القيادة أنه نتيجة للصعوبات قرر البحث عن عمل ليكسب قوته وأنه سيحتفظ بمنصبه كمسؤول أول عن (النجم)، كما قرر أن يبقى شيوعياً وأن يستمر في حضور اجتماعات خليته. واستمرت (النجم) في الاجتماع في أماكن الحزب الشيوعي ولم تتأثر علاقاته بالشيوعيين. وحاول مصالي أن يفهم موقف الحزب الشيوعي الذي وضع حداً لتفرغه. وكان لديه الانطباع منذ مدة أن الحزب لم يجد فيه الشخص الذي يناسبه. وقد علم بعد ذلك أن الحزب الشيوعي لم يكن يرغب في رؤية مصالي على رأس (النجم). وأن سياسة مصالي لم تكن تعجبه. فبادر لإبعاده عن (النجم) ولم تكن هذه المرة الأولى التي كان هناك خلاف بين الشيوعيين ومناضلي البلدان المستعمرة، وبالرغم من خلافات (النجم) مع الشيوعيين الذين كانوا يحاولون فرض برنامجهم عليها وكسب أعضائها حتى في اللجنة المركزية. فإن أياً من الطرفين لم يكن يرغب في وضع حد للعلاقة بينهما. واستمرت (النجم) في الاجتماع في أماكن الحزب الشيوعي، ولم يغلق الشيوعيون أبوابهم دون (النجم) لكنهم كانوا لايخفون استياءهم. يقول مصالي "كنا نريد التعاون والمساعدة ولكن دون تبعيّة، كنا نريد أن نكون وحدنا أسياد مصيرنا"[٤٥].

وفي بداية ١٩٢٩، راجت شائعات عن قمع ضد (النجم). وتصور مصالي أن أعضاء (النجم) سيتعرضون للاعتقال. وكانت مفاجأة لمصالي حين علم أن (النجم) كانت

ملاحقة أمام المحكمة المدنية، التي طالبت بحل (النجم) بموجب قانون صادر ١٩٠١. وقد وكّل النجم محامياً ونائباً شيوعياً ليدافع عنها. وحضر مصالي وأربعة أعضاء من لجنة القيادة أمام المحكمة، ولم يكونوا وحدهم، فقد كان هناك قادة منظمات من الهند الصينية وإفريقية السوداء ملاحقين لنفس السبب. وقد فهم مصالي أن كل المنظمات السياسية التي تحاول مس تمامية الأرض الوطنية الفرنسية يجب أن تحل. جرى حل (النجم) في أواخر نيسان ١٩٢٩ في وقت سيئ بالنسبة لها. وكان من الطبيعي أن هذا الحل سيزيد صعوباتها المالية بصورة جدية. كان الحزب الشيوعي لا يجهل هذا الوضع، لكنه لم يفعل شيئاً للمساعدة بصورة جدية. وأصبح الموقف بالغ الدقة حين اقترح أحد أعضاء القيادة الأكثر حكمة وصراحة أن نتوقف ونحل بأنفسنا الحزب. واقترح هذا العضو أن نجلب الأرشيف والقليل من المال الذي تبقى لدينا لنوزعها على المناضلين، ولكن مصالي عارض هذا الاقتراح وطلب تأجيل الاجتماع إلى وقت آخر مما يسمح لكل عضو أن يفكر وأن يزن مسئوليته إزاء القرار الذي سيتخذ. وفي الاجتماع التالي الذي عقد بعد /٤٨/ ساعة كان واضحاً أن الجو أفضل، وتقرر الاستمرار بالعمل وفق برنامج اقترحه مصالي.

يقول مصالي: "في عام ١٩٣٠، كنا نعيش كبدو وعلى أربعة أعوام من النشاط لم يكن لنا مقر ولا وسيلة للتعبير، وكانت تنقصنا الأطر والمال والمنتسبون وكنا نخشى الانقسام. ما من طالب جزائري حضر إلينا ليعرض علينا قلمه ومعرفته. "لا الطلاب ولا البرجوازية ولا التجار لم يجرءوا طرق بابنا". في فرنسة كان هؤلاء السادة غير مكترثين بنا وبنشاطنا. وفي الجزائر كانوا يتجهون نحو الإصلاحيين كي لانقول بني (وي وي)(*). في المغرب وتونس كان الطلاب والبرجوازيون والمثقفون قد تبنوا قضية شعبهم، ومع نضالهم من أجل مطالب محددة لم يكونوا يخفون مطالبتهم

(*) أي نعم، نعم، بمعنى الخضوع للسلطات الاستعمارية الفرنسية (رئاسة التحرير، م.م.).

باستقلال بلادهم. أما في الجزائر، فإن هذا الشرف العظيم، شرف الدفاع عن الوطن وقع على عاتق العمال والفلاحين والطبقات الصغيرة من مجتمعنا(٤٦). قرر (النجم) إصدار (جريدة الأمة). رحب الجزائريون في فرنسة والجزائر بجريدة الأمة. وبدءاً من نهاية المعرض الاستعماري الذي استمر حتى تشرين الأول ١٩٣١، بدأت (النجم) تولد من جديد شيئاً فشيئاً، وصارت أكثر فأكثر حرة مستقلة في تحركاتها ونشاطاتها مع احتفاظها بعلاقاتها الودية مع الحزب الشيوعي الفرنسي. لكن السلطات الفرنسية لم تغفل عن (النجم) فقررت أن توجد في قلب باريس ما يشبه البلدية المختلطة في الجزائر على رأسها إداري سابق لبلدية مختلطة في القبائل. وقد زعمت الصحف الاستعمارية أن هذه البلدية ستكون في خدمة الجزائريين من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية والصحية، وأنها ستعمل على تسوية الأمور والنزاعات التي تظهر بين العمال الجزائريين والإدارة الاستعمارية في الجزائر. ومن المؤكد -كما يقول مصالي- أن هذا لم يكن سوى غطاء ليخفي مخططات الإدارة. فقد كانت ترغب في جذب العمال الجزائريين لتبعدهم عن تأثير (النجم)، فحتى ذلك اليوم الذي أوجدت فيه هذه البلدية المختلطة كنا بالنسبة لكثير من الأمور، كالبطالة وقضايا الأحوال الشخصية والاستشارات في المشافي نعامل كباقي زملائنا الفرنسيين. ولكن منذ ذلك اليوم صرنا نخضع لهذه البلدية مما عقد حياتنا. فلم يعد لنا الحق بالذهاب إلى مستشفيات أحيائنا بل إلى مشفى خصص لنا. وأوجدت هذه البلدية بوليساً خاصاً مؤلفاً من رجال بوليس جزائريين وفرنسيين مكلفين بمراقبتنا. كان هؤلاء يترددون على المقاهي والمطاعم الجزائرية ليحتكوا بالجزائريين ويعرضوا عليهم الإغراءات ليتعاونوا معهم من أجل هجر (النجم) وكانوا يقولون لهم "لاتتبعوا مصالي الحاج فهو عربي في حين أنكم من القبائل الفخورين بجبالكم وذكائكم وشجاعتكم" وهكذا أصبحت هذه البلدية المختلطة عبارة عن جهاز بوليس خاص(٤٧).

- **تطور (النجم) ١٩٣٣-١٩٣٥:**

خلال هذه الفترة، كان مصالي يتابع تثقيف نفسه فتابع دراساته وقرأ الجرائد الدولية وحضر عدداً من المحاضرات، كما صار يتردد على جمعية طلاب شمالي أفريقية المسلمين التي يترأسها محمد الفاسي. كما تعرف على فرحات عباس في مقهى جزائري وعلى دانييل جبران الاشتراكي الذي حدثه عن بلفريج وجان روبيرلونجي حفيد كارل ماركس الذي أصبح محامي (النجم). وفي ٢٨ أيار ١٩٣٣، عقد (النجم) اجتماعاً هاماً عرض فيه مصالي البرنامج الذي عرض في بروكسل. وقد تبناه المجلس بالإجماع واعتبر كميثاق وطني لجميع السكان الجزائريين. وقد عرضت جريدة الأمة هذا البرنامج وشرحته وعلقت عليه، وكانت الجريدة تصل إلى الجزائر منذ ١٩٣٢. وكانت تصل قادة (النجم) رسائل من كل مكان تشكرهم وتطلعهم على آمال الشباب الجزائري، وقيل أن الأمة كانت تنتقل من يد إلى يد[٤٨].

في سنوات ١٩٣٣-١٩٣٤، أصبح السلام مهدداً من قبل الاستعمار ومن قبل الفاشست الإيطاليين والنازيين الألمان، وبدأت تظهر حركة معادية للفاشية والإمبريالية في صفوف العمال واليسار الفرنسي، وكثر الحديث في صفوف الشعب الفرنسي عن ضرورة وحدة اليسار وجرى تجمع ضم الشيوعيين والاشتراكيين والراديكاليين والعناصر اليسارية الأخرى. وقد رأت (النجم) أن مكانها إلى جانب الشعب الفرنسي[٤٩]. والاشتراكية الديمقراطية. صحيح أن البروليتاريا الفرنسية لم تكن تهتم بمطالب (النجم) الوطنية ولكن بالرغم من كل شيء هناك إمكانيات في صفوف اليسار أن تعرض القضية الجزائرية لدى الرأي العام. وقد أقر المكتب السياسي واللجنة التنفيذية والمجلس العام هذا الموقف وبدأت (النجم) تتعامل على قدم المساواة مع مختلف المنظمات اليسارية وانفتحت آفاق جديدة أمامها[٥٠] وزاد نفوذها لدى الطلاب والعمال الجزائريين. بدأ (النجم) في تعريب الحزب، وبدأت اللغة العربية تظهر في

الأحاديث والنشرات وفي جريدة الأمة. وفي ٥ آب ١٩٣٤، حضر أكثر من ثمانمائة جزائري في مجلس عام للجمعية، ولأول مرة رفع العلم الجزائري الأخضر والأبيض والهلال الأحمر. وألقى مصالي الحاج خطاب الافتتاح أمام هذا العلم المرفوع عالياً المحاط بحرس الشرف. ولدى رؤية هذا المشهد العظيم وقف الجزائريون كرجل واحد يغنون ويصفقون وتعالت صرخات "تحيا الجزائر" "يحيا الاستقلال" "يحيا نجم أفريقية". ولم يسبق مثيل لهذا الحفل منذ ١٨٣٠، وانتشر الخبر في أنحاء فرنسة والجزائر. وعاد التفاهم بين (النجم) والحزب الشيوعي أمام خطر النازية و"الفاشية". حاول (النجم) تنظيم اجتماع خطابي ولكن الحكومة منعت الاجتماعات، وتكررت المحاولة حتى نجح النجم في عقد الاجتماع رغم المنع. وكان كل الخطباء يطالبون باستقلال شمالي أفريقية ووحدتها وختم مصالي الاجتماع قائلاً: "إن هذه الظاهرة الكبرى صارت تاريخاً لنا لقد عقد هذا الاجتماع رغم منعنا مرتين وذلك بفضل كل الجزائريين الذين حضروا[٥١]".

وفي ١٩ آب ١٩٣٤م، جرى اجتماع آخر، إثر الحوادث التي وقعت في قسنطينة بين اليهود والمسلمين. كان هدف الاجتماع فضح الدسائس الاستعمارية وإحباط مخططات التقسيم والحقد. لقي الاجتماع نجاحاً ساحقاً وتقرر فيه إرسال بعثة تحقيق إلى قسنطينة مؤلفة من جان لونجي وبشير طالب عضو لجنة القيادة. وصوت الحاضرون بالإجماع على ما يلي "إن مسلمي شمالي أفريقية المجتمعين وعددهم ٣٥٠٠، يوم الأحد ١٩ آب ١٩٣٤، يقرون دون تحفظ عمل (نجم شمالي أفريقية) ويعلنون استعدادهم لدعمه بكل الوسائل. إنهم يؤكدون تضامنهم الحازم والفعال مع ضحايا القمع. إنهم يعلنون موافقتهم الكاملة على موقف إخواننا الأباة، الذين تصدوا للتحدي وردوا على تدنيس المسجد وإهانة المؤمنين ونبينا، أنهم يحتجون بشدة ضد اعتقال عدة مئات من المسلمين الأبرياء ويطالبون بقوة، إطلاق سراحهم فوراً ورفع حالة الطوارئ". وانصرف المجتمعون هاتفين يسقط قانون الأنديجينا الكريه، تسقط القوانين الاستثنائية،

تسقط البلدية المختلطة، يحيا النضال التحرري لمسلمي شمالي أفريقية، يحيا استقلال شمالي أفريقية، يحيا الإسلام(٥٢).

وفي تشرين الأول ١٩٣٤، دعى (النجم) إلى اجتماع كبير لسماع تقرير لجنة التحقيق حول حوادث قسنطينة، وقد تدخل البوليس واعتقل مصالي الحاج. تدخلت زوجة محاميه مدام لونجي وكان زوجها المحامي لونجي قد شارك في لجنة التحقيق في حوادث قسنطينة ولكنه عندما عاد أصيب بمرض حال دون حضوره الاجتماع فحضرت زوجته نيابة عنه وطالبت بإطلاق سراح مصالي وهددت بالاتصال بالسيد ليون بلوم إذا لم يطلق سراحه، واضطر البوليس لإطلاق سراحه(٥٣). وفي اليوم التالي شنت الصحافة الفرنسية هجوماً عنيفاً على (النجم) ودعت إلى حلّه واعتقال المسؤولين عنه. وفي /١/ تشرين الثاني ١٩٣٤ اعتقل مصالي، وبمساعي محاميه لونجي عومل في بادئ الأمر كمعتقل سياسي، ولكنه أعيد بعد فترة بفظاظة إلى السجن العادي، وقال له مدير السجن السياسي "ليس للعربي حق بالنظام السياسي"(٥٤). رافق اعتقال مصالي حملة قمع ضد (النجم)، وحكمت المحكمة على مصالي بست أشهر سجن و /٢٠٠٠/فرنك غرامة لإعادته حزب منحل. وحكم على رفاقه عيمار عماش وراجف بلقاسم الشيء نفسه. استرد مصالي حريته في ايار ١٩٣٥، ولكن الملاحقات القضائية استمرت أمام عدة محاكم في باريس وبعض المدن الفرنسية. وفي محكمة أميان، قال له القاضي هامساً عن قرب "العرب كذابون" فرد عليه مصالي بشدة(٥٥). وأخيراً ألغت محكمة السين في باريس في ٣ تموز ١٩٣٥، قرار حل (النجم) وأوقفت الملاحقات، تعرف مصالي في هذه الفترة على قادة تونسيين: الدكتور بن سلجان والهادي نويره، ومغاربة من كتلة العمل: حسن الوزاني وبلفريج، وبدأوا جميعاً في توحيد جهودهم وتبادل وجهات النظر لوضع الأسس للمغرب العربي(٥٦).

- **مصالي والأمير شكيب أرسلان:**

"لقاء المغرب والمشرق العربيين في ١٩٣٥" علم مصالي أن مؤتمراً إسلامياً أوربياً

سيعقد في جنيف بمبادرة من اللجنة التنفيذية الدائمة للمؤتمر الإسلامي، الذي عقد في القدس ١٩٣١. وقرّر (النجم) المشاركة وشكّل وفداً لحضور المؤتمر الذي سيعقد في ١٢ أيلول ١٩٣٥. وفي الوقت نفسه الذي كان وفد (النجم) يستعد للسفر إلى جنيف، دعى مصالي لحضور اجتماع للجبهة الشعبية من أجل أثيوبية، وقرر المجتمعون إرسال وفد إلى جنيف ليرفع احتجاجاً إلى عصبة الأمم ضد عدوان إيطالية الفاشية. كان موعد سفر الجبهة الشعبية إلى جنيف قبل أسبوع من انعقاد المؤتمر الإسلامي الأوربي. وقبل لقاء رئيس العصبة فوجئ مصالي بمحاولة منعه من الكلام أمام رئيس العصبة، ولكنه أصر على الكلام محتجاً بأنه أحد أفراد الوفد الشمالي أفريقي، وبصفته هذه يتوجب عليه أن يتكلم عن مشكلة أثيوبية، التي هي قبل كل شيء مسألة أفريقية، وقد أثار هذا حنق أعضاء الوفد، وفي لقاء الوفد مع رئيس العصبة تكلم مصالي معبراً عن مشاعره إزاء العدوان الفاشي ضد أثيوبية وقال "بالنسبة لنا نحن الأفارقة إن استقلال أثيوبية رمز وأمل حي بالنسبة لاستقلالنا، لأن الشعب الأثيوبي هو الوحيد الذي ما يزال حراً مستقلاً في كل القارة"[٥٧]. وفي جنيف، التقى مصالي مع الأمير شكيب أرسلان، هذا الوجه العربي العظيم الذي كان يعيش في المنفى بعد احتلال الفرنسيين وطنه سورية. تحادث مصالي والأمير حول مواضيع الساعة. كان الأمير عظيماً صلباً وكان يبدو متمتعاً بصحة جيدة...وكان جذاباً جداً وإنسانياً ورائعاً في المحادثة.. وفي اليوم التالي عقد اجتماع آخر بحضور المحامي جان لونجي، وكان الأمير ولونجي يعرفان بعضهما منذ وقت طويل. دار الحديث حول مسائل اليوم. وحسب الأمير ولونجي، إن المسائل السورية واللبنانية والفلسطينية والليبية تبدو قابلة للعمل وذلك بالانتقال من الاستقلال الذاتي إلى الاستقلال. ولكن الأمر يختلف بالنسبة لشمالي أفريقية وبخاصة الجزائر، ذلك أن فرنسة لن تقبل فصلها. تدخل مصالي في الحديث ليقول أن كل شيء هو مسألة نضال وإرادة ووقت[٥٨]. وجرى الحديث حول النجم فتنبأ لها الأمير ولونجي مستقبلاً جيداً ولكنهما أضافا "يجب على صديقنا الشاب

مصالي الحاج أن يقود حزبه جيداً كما فعل حتى الآن ذلك، لأن عليه أن ينتظر صعوبات جديدة" وأثيرت مسألة حرب عالمية جديدة فقال الأمير "إنها الساعة بالنسبة لفرنسة لتعمل لصالح تحرير الشعوب العربية لتكسب صداقتها وثقتها فلا يعرف ما يخبئه المستقبل" ووافق لونجي على وجهة نظرنا هذه ولن نفتأ في الدفاع عنها في صفوف الحزب الاشتراكي وفي البرلمان الفرنسي. ولما جرى الحديث عن مطامع موسوليني في شمالي أفريقية قال الأمير "إن كل هذه الاعتبارات تناضل لصالح مطالبنا. إن على فرنسة المهددة بوضعها الجغرافي أن تحقق مطامح كل الشعوب المستعمرة لتكسب ثقتها وتعاونها في المستقبل القريب. فهل نستطيع أن نأمل أن تكون الجبهة الشعبية قادرة غداً على البدء بالحوار أجاب لونجي أنه يجب أن يكون هناك أمل دوماً بالحوار وأن يوسع حكومة الجبهة الشعبية تدشينه ولكنه أضاف المسألة هي معرفة على أية سياسة ومع أي حزب يبقى مفتوحاً[٥٩].

افتتح المؤتمر وانتخب الأمير شكيب رئيساً بالإجماع. قدم الأمير عرضاً طويلاً حول أوضاع المسلمين غداة الحرب العالمية الأولى. وتحدث مصالي الحاج واثنين من رفاقه عن وضع الجزائريين المأساوي في فرنسة وخاصة في المنطقة الباريسية، حيث يعيش ٦٠ ألف جزائري. وعرض إحسان الجابري الذي شارك الأمير شكيب في تنظيم المؤتمر كختام لمؤتمر القضية الفلسطينية واتهم الصهيونية التي كانت تكثف الهجرة إلى فلسطين وشراء أرضي الفلسطينيين، وتقرر في الجلسة الختامية إنشاء مكتب إسلامي دائم في جنيف[٦٠].

وبعد انتهاء المؤتمر وجه مصالي ورفاقه دعوات إلى جميع رؤساء الوفود لتناول الشاي. وفي هذا الاجتماع قدموا عرضاً عاماً حول (نجم شمالي أفريقية) وبرنامجه السياسي وأعلنوا تضامنهم مع كل حركات التحرر الوطني والشعوب المستعمرة. كان الأمير شكيب راضياً ومتفائلاً، وقال لمصالي قبل مغادرته جنيف "لقد بذرنا والآن ينبغي تحريك الأذهان للحصول على المحصول"[٦١].

وفي باريس علم مصالي أن محكمة التمييز ردت الطعن الذي تقدمت به (النجم) وثبتت الحكم الصادر ضدها. لجأ مصالي والنجم إلى العمل السري وأصدرت اللجنة التنفيذية قراراً بوجوب مغادرة مصالي باريس إلى سويسرة انتظاراً للانتخابات التشريعية في نيسان ١٩٣٦.

منذ وصول مصالي إلى جنيف في كانون ثاني ١٩٣٦ قام بزيارة الأمير شكيب، الذي استقبله بحفاوة وهنأه على نشاط النجم وشجاعة العمال الجزائريين وقال له: "نعم في كل مكان يرفع أبناء الاسلام الرأس ويسمعون صوتهم وهذا يبعث على السرور" وواظب مصالي على اللقاء مع الأمير وتبادل الحديث معه حول أخبار المشرق وشمالي أفريقية. وتعرف مصالي على إحسان الجابري والدكتور ذكي على الذي كان قد قابله في المؤتمر الإسلامي الأوربي، وهو مصري كان يدافع عن قضية بلاده والقضية العربية، وكان رجلاً رائعاً وخدوماً، أعطى مصالي الكثير من المعلومات حول القضايا العربية والأوساط السياسية في سويسرة وعصبة الأمم[٦٢].

وفي آذار ونيسان ظهرت حركة احتجاجات عامة في تونس والمغرب والجزائر للتضامن مع سورية التي كانت تخوض معركة كبيرة إزاء القمع وترفع قضية الاستقلال. وكانت الأنباء التي تلقاها الأمير شكيب من دمشق وكذلك تلك التي كانت تقال في أوساط عصبة الأمم وفي اللجنة السورية الفلسطينية تتفق تماماً مع ما كان يصل مصالي من رفاقه في (النجم) في باريس. وفتحت جريدة (الأمة) صدرها للدفاع عن القضية السورية وكتبت مقالاً بعنوان (الدم يسيل في سورية) وفي باريس نظمت (النجم) مع الرابطة المعادية للاستعمار ورابطة حقوق الإنسان السورية اجتماعاً احتجاجياً في ٧شباط ١٩٣٦، وأبرق المجتمعون إلى المندوب السامي في بيروت.

ظل مصالي على اتصال مستمر مع الأمير شكيب ووصفه أنه ليس سورياً فحسب وإنما ينتمي إلى كل العرب وكل المسامين. وكان الاستعمار الأوربي يكرهه ويكره من

يخالطه. وكانت الصحافة الاستعمارية والاختصاصيون بالشؤون العربية الإسلامية يصفونه أنه رجل خطير[٦٣].

قال مصالي للأمير إن العمل السياسي الشرعي لا يكفي بحد ذاته لانتزاع الاستقلال. أجاب الأمير ينبغي متابعة العمل السياسي كمقدمة وهو سيتطور من نفسه حين يحين الوقت وحين يستيقظ الوعي الشعبي. أضاف أن على شعوب شمالي أفريقية أن تتقارب ولكن دون أن تطمح أو تطالب بتحقيق اتحاد سريع لن يكون له غد. ونصح الأمير مصالي أن يجعل من (النجم) حقيقة سياسية عاملة في كل أنحاء شمالي أفريقية[٦٤].

قال مصالي إن احتكاكه بالأمير حسنت رؤيته السياسية للموقف. وقد أدرك أن العالم العربي الإسلامي يتمتع برصيد هام. كما أثبتت له كل اللقاءات التي تمت بفضل الأمير مع زعماء مشارقة ومغاربة، أن المغاربة والمشارقة يرغبون أن يتعاونوا[٦٥].

وحين حضر جزء من الوفد السوري المكلف بالتفاوض مع السلطات الفرنسية إلى جنيف نيسان سنة ١٩٣٦ ليقابل أعضاء اللجنة السورية الفلسطينية، دعا الأمير مصالي ليحضر كل المناقشات بما فيها المناقشات مع رئيس المجلس السوري هاشم الأتاسي ووزير الداخلية سعد الله الجابري. وفي اللقاء الأول قال الأمير لمصالي "أنت هنا مثلنا كأخ وبإمكانك ليس فقط الاستماع ولكن المشاركة بالمناقشة والتعبير بحرية عن أفكارك" ونطق الأتاسي بكلمات ودية إزاء الجزائر وإزاء مصالي شخصياً. رأى مصالي السوريين أكثر من مرة وتبادل الأفكار مع الرئيس الأتاسي وتواعدا على اللقاء في باريس وعرض مصالي مساعدة (النجم) للوفد السوري وقال الأتاسي "بالتأكيد سنكون بحاجة إلى مساعدتكم[٦٦].

ويذكر مصالي أن شخصية فرنسية حضرت من باريس إلى جنيف لرؤية الأمير شكيب وأبلغت الأمير أنه إذا كانت المفاوضات الفرنسية السورية قد لقيت صعوبات ضخمة فذلك بسبب وجود مصالي إلى جانبه وسياسته المعادية لفرنسة. وطلب من

الأمير إبعاد مصالي وحاشيته والكف عن النضال ضد النفوذ الفرنسي في البلاد الإسلامية. حضر مصالي هذه المقابلة في أحد مقاهي جنيف بدعوة من الأمير شكيب. ورأى مصالي الأمير يثور ويرفض باحتقار ما طلب منه ليسهل المفاوضات" نعم حقيقة إني سوري ولكني قبل كل شيء عربي مسلم ومناضل" هكذا كما قال مصالي رد الأمير الذي كان كنمر في حالة غضب(٦٧).

انزعج مصالي لأنه كان السبب بهذا الجدل ولزم الصمت، وكان خائفاً من فشل المفاوضات "إن هذا الابتزاز الاستعماري الذي نزل إلى الحضيض جعلني أفكر كثيراً، وبالمقابل زاد تقديري وثقتي وإعجابي بالأمير شكيب. كنت أعتبره آنذاك كأعظم قائد في العالم العربي. إن علاقاتي به كلفتني الكثير من الانزعاج وجرّت عليّ أحقاداً كبيرة فقد كانوا يعدّون الأمير محرضاً متعصباً في خدمة ابن سعود أو موسكو ولكن هذا لم يغير قناعتي حول هذا الرجل العظيم(٦٨).

- (النجم) والجبهة الشعبية الفرنسية:

في نيسان–آيار، كانت كل الأنظار متجهة إلى باريس تنظر بقلق نتيجة الانتخابات التشريعية. تعاونت النجم مع الجبهة الشعبية، وقد كتب مصالي لمنضالي (النجم) أن على النجم أن تتلاحم مع الجبهة الشعبية وأن تساعدها في عملها، وعلى (النجم) أن تستفيد من هذا التلاحم لتحقيق البرنامج التالي:

١– كسب أكبر تعاطف ممكن من أحزاب اليسار.

٢– تعزيز الحزب (النجم) بتحسين تنظيمه وجذب منتسبين إليه.

٣– غرس علم (نجم شمالي أفريقية) في الجزائر.

٤– المحافظة في إطار نشاطاتنا على استقلال الجزائر كهدف رئيسي وأساسي.

٥– عدم رفض الحوار وتمضية الوقت اللازم لشرح برنامجنا.

٦- أن نظهر لخصومنا كل الاحترام والتقدير مع الحفاظ على شخصيتنا كما هي.

٧- اعتبار الشعب قوتنا الأساسية[٦٩].

أعلنت الجبهة الشعبية برنامجها واكتفت بالنسبة لقضايا المستعمرات أنها ستؤلف لجنة تحقيق، اعتبرت أوساط المستعمرات أن هذه مناورة ألم يعلن جورج كليمنصو من قبل "إن لجنة تحقيق هي لجنة دفن". احتجت (جريدة الأمة). ونشرت رسالة إلى الجبهة الشعبية ودعت إلى جبهة شعبية شمال أفريقية على أساس برنامج (النجم)[٧٠]. حضر قادة (النجم) في باريس المؤتمر الثالث والثلاثين للحزب الاشتراكي الذي عقد في أواخر شهر أيار١٩٣٦، ونوقشت خلاله قضية الجزائر. وقرر المؤتمر تشكيل لجنة استعمارية فيها كثير من أصدقاء (النجم) وشمالي أفريقية منهم جان لونجي محامي النجم والأستاذ شارل أندريه جوليان وغيرهم.وقد نظمت (النجم) حفل استقبال بسيط دعت إليه كل أعضاء المؤتمر الجزائريين وأعضاء اللجنة. كما اشترك (النجم) في مظاهرة "جدار الاتحاديين"، وكان الأمر بالنسبة لنا ليس فقط الاحتفال بذكرى كومون باريس بل نصباً بذكرى كومون الجزائر ١٨٧١، حيث رفع أجدادهم علم الثورة[٧١].

وفي حزيران ١٩٣٦، عاد مصالي إلى فرنسة وكتب في جريدة الأمة "حقيقة أننا نعرف أن أمام الحكومة عمل صعب ودقيق في الداخل والخارج وإنها ورثت إدارة سيئة جداً، عليها أن تنهض بها وتحسنها ولهذا السبب بالضبط أننا نطالبها بالعمل واتخاذ قرارات حازمة تجذب لها عطف وثقة /١٨/مليون شمال أفريقي. إن بلادنا تطالب بالعيش في الحرية والسلام، وتعليم أبنائها، وأن تسير في طريق التقدم والتحرر[٧٢]. كان مصالي يتوقع أن تتقدم الحكومة بما يرضي على الأقل بعض مطالب (النجم) الأساسية[٧٣]. أجرى مصالي اتصالات بالحزب الاشتراكي: كانت الحصيلة تحرير بعض المعتقلين. ولكن حين قابل زعماء "النجم جول موسن" وزير الداخلية وتحدثوا عن المطالب الوطنية احتد النقاش وأجابهم جول موسن "وبعد كل

شيء لستم وحدكم في الجزائر، هناك أشخاص آخرون غيركم الدكتور ابن جلول وفرحات عباس مثلاً واتحاد المنتخبين المسلمين في قسطنينة، إنهم ليسوا متفقين مع سياستكم". رد مصالي إنه يعرف ذلك ولكن مطالبهم لا تتطابق مع مطامح الشعب الجزائري الحقيقية.

ختم جول موسن النقاش قائلاً: إن مطالبكم رغم أنها عادلة فإنها ليست قابلة للتحقيق في الوقت الحاضر، يلزم تحقيقها وقت طويل(٧٣).

وفي ٢٠تموز ١٩٣٦، قدم زعماء (النجم) إلى وزارة الداخلية مطالبهم الفورية بالنسبة للجزائريينالمقيمين في فرنسة:

١- إلغاء قانون الأنديجينا والقوانين الاستثنائية.

٢- حرية السفر إلى فرنسة والخارج.

٣- حرية الصحافة والاجتماع والجمعيات.

٤- تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية على العمال الشمال أفريقيين في المنطقة الباريزية.

٥- منح العمال الشمال أفريقيين في المنطقة الباريزية وفي كل مناطق فرنسة التعويض العائلي والمعونات وإعادة صندوق المكافأة لصالحهم.

٦- الإلغاء الفوري لبؤرة التجسس وتمزيق العمال الفرنسيين والعرب المسماة "دائرة حماية الشمال أفريقيين ومراقبتهم.

٧- إلغاء توجه مرضى الشمال أفريقيين إلى مستشفى معين وقبولهم في كل مستشفيات الدائرة(٧٤).

وفي ٢٦حزيران، عقد اجتماع ضخم تحت رعاية (النجم) و(الاتحاد) من أجل الدفاع

عن الشعوب المستعمرة بمشاركة ممثلي كل الشعوب المضطهدة. ومن المهم أن الجزائريين والتونسيين والمغاربة والسوريين والأفارقة وسكان جزر الأنتيل والهند الصينية جاؤوا مجمهرين ليدعموا أمام شعب فرنسة مطامحهم، وكان بين الخطباء الحبيب بورقيبة زعيم الحزب الدستوري الجديد، ومصالي الحاج رئيس النجم، وممثل الحزب الوطني السوري، وممثل الحزب الوطني المغربي، والمحامي لونجي الاشتراكي وأحد الشيوعيين وممثل مدغشقر وممثل أفريقية السوداء وممثل الأنتيل وعضو في الحزب الراديكالي، وكان الجزائريون يشكلون أكثرية[٧٥].

وفي ١٤تموز، تظاهر في ليون/٥٠٠٠/جزائري تحت شعار (النجم)، وفي باريس شارك عدد كبير من مسلمي شمال أفريقية في الاستعراض رافعين علم النجم بكبرياء إلى جانب علم السوريين، كما كان هناك يافطات تحمل مطالب (النجم) "يسقط قانون الأنديجينا والقوانين الاستثنائية".

"التعليم بالعربية" يحيا استقلال سورية ووحدتها "العفو للجميع".

وطيلة المسيرة لقي (النجم) تعاطفاً حاراً من الجمهور، وكانت هتافات "تحيا الجزائر" تحيا شمالي أفريقية الشمالية "تحيا الحرية" وتحيي مرور (النجم). وحين وصلت مجموعة النجم أمام المنصة الرسمية انطلقت صرخات قوية يرددها /٣٥/ألف صدر "حرروا العرب" حرروا سورية وتحيا الحرية وتحيا الأخوة بين الشعوب[٧٦].

- **مصالي الحاج والمؤتمر الإسلامي في الجزائر:**

عقد المؤتمر الإسلامي في ٧حزيران، وجاء المندوبون من مختلف أنحاء البلاد، عينتهم اللجان المحلية. عينت هذه اللجان منتخبين وأعياناً وعلماء وشيوعيين ليمثلونها. وحرصت هذه اللجان على عدم تمثيل مناضلي (النجم) القوميين بصورة رسمية، إذ اعتبرتهم متطرفين وأنهم سيطالبون بالمستحيل من الجبهة الشعبية. غير أن مناضلين قوميين تمكنوا من الحضور كأفراد، غير أن المؤتمرين حرصوا ألا يسمحوا لهم بالكلام.

كان الخطباء من أنصار الجبهة الشعبية "اشتراكيين وشيوعيين" ومن ممثلي اتحاد المنتخبين المسلمين والعلماء. طالب (العقبى) من العلماء بإلغاء كلمة الأهلي من القاموس الفرنسي وعدم قول الأهلي وإنما جزائري، لأن الأول يشتمل على معنى تحقير...وقال: "عوملنا كدستوريين، كوهابيين، في حين أننا لا نريد أن نكون سوى فرنسيين مسلمين[٧٧]. وقال ابن باديس: "إن المسلم أدرك جنسيته الفرنسية وأعلن "نحن منذ الآن فرنسيون مسلمون، ينبغي أن يكون معلوماً أن المسلمين قابلون للتطور. هذا الشعب الغامض بالأمس يمكن أن يقول الآن: "كنت شعباً، وحين تتعطل الحرية الفرنسية نُقتل، وحين تستأنف الحرية الفرنسية نشاطها نريد أن نتبعها. هذا المؤتمر هو مؤتمر إسلامي جزائري، وكي نكون جديرين باسم "مسلم جزائري" برهنوا أنكم جديرون بهذا...فرنسي أصلي وفرنسي مسلم لهم نفس المصير الوطني، وينبغي أن يكون لهم نفس الحقوق الاجتماعية[٧٨].

هكذا ردد العلماء شعارات الاندماجيين. تضمنت وثيقة المؤتمر مطالب عديدة لخصها (قداش) بمطلبين أساسيين: المساواة أي إلغاء الاستثناء، الحق العام، الارتباط الخالص والبسيط بفرنسة مع إلغاء كل الإدارات الخاصة. إصلاح سياسي صريح، والتمثيل البرلماني. لقد منح المؤتمر ثقته بالديمقراطية الفرنسية كما أدار ظهره للمسألة الوطنية واختار الادماج السياسي[٧٩].

حين عقد هذا المؤتمر في ٧ حزيران ١٩٣٦ كان مصالي ما يزال في سويسرة، وقبل أن يطلع على وثيقة المؤتمر أرسل إليه برقية "سلام أخوي للمؤتمر الإسلامي. إن (النجم) يدعم ويقر كل المطالب المفيدة لتحسين مصير الشعب، ويرفض كل الاقتراحات والمطالب التي تخدم الأقلية (التمثيل النيابي) وكذلك كل المطالب التي يمكن أن تمس الأحوال الشخصية الإسلامية" بيّن مصالي السبب في تضمين البرقية تحفظات أنه كان يعرف أن سياسة المؤتمر الإسلامي بعيدة عن سياسة (النجم)[٨٠].

وصل وفد المؤتمر الإسلامي إلى باريس في ١٨تموز ١٩٣٦ ليعرض على حكومة الجبهة الشعبية والأحزاب السياسية والمجموعات البرلمانية دفتر مطالب وضعها المؤتمر. كان الوفد برئاسة الدكتور بن جلول وضم عدداً من الشخصيات كابن باديس وفرحات عباس والطيب العقبي والإبراهيمي وغيرهم. وبناءً على طلب قيادة (النجم) دعا وفد المؤتمر قيادة (النجم) واستقبلهم الشيخ بن باديس وبشير الإبراهيمي والطيب العقبي بمودة، وحضر الاجتماع فرحات عباس. وبعد أن تمنى لهم قادة (النجم) طيب الإقامة عكفوا على دراسة الموقف بصورة عامة وشرعوا بدراسة الوثيقة السياسية التي وضعها المؤتمر الإسلامي. وسجل قادة (النجم) عدم موافقتهم على المطلبين الخاصين بربط الجزائر بفرنسة وتمثيل الجزائريين في البرلمان الفرنسي لأنهما ضد سياسة (النجم) الساعية إلى الاستقلال، وشرحوا مواقفهم خلال النقاش الذي استمر عشرة ساعات[٨١].

كان طلب ربط الجزائر بفرنسة كما يقول مصالي عملاً سياسياً فظيعاً ومخجلاً، وأثناء احتدام النقاش ذهب بعض أعضاء الوفد إلى حد القول، إنه لم يكن للجزائر استقلال أبداً. لقد ردد هذه الكذبة الكبيرة محامون وأطباء وصيادلة، وقد أجبنا هؤلاء المثقفين أن الجزائر كانت مستقلة. كانت تنتمي إلى الإمبراطورية العربية ثم الإمبراطورية العثمانية. وخلال النقاش في فندق الجراند أوتيل "الفندق الكبير" ثم في مقهى تلمسان في "المونبارناس" بدا الشيخ بن باديس غير مرتاح ومنزعجاً. فقد كان يدافع عن قضية ضائعة وسياسة لا غد لها ولم يستطع إقناعنا. وخلال النقاش أظهرنا احترامنا له ولكننا أكدنا له أنه في أي حال لن نستطيع اتباعه في هذا الطريق الذي لا يؤدي إلى نتيجة. وزعم حينئذٍ أنه لا يستطيع إضافة أو حذف أي شيء من الوثيقة السياسية الصادرة عن المؤتمر. يقول مصالي إن من المحتمل أن هذه الأمور فرضها منتخبو قسطنطينة ولكن واجب جمعية العلماء المتعلقة بإحياء المبادئ الإسلامية كانت مع ذلك ليس فقط مقاومة ارتباط الجزائريين بفرنسة. بل إدانة هذه السياسة بالخيانة. وظل الخلاف كاملاً

حين انفضَّ الاجتماع وتابع وفد المؤتمر الإسلامي مهمته[٨٢].

في ٣١ تموز ١٩٣٦ وصلت اللجنة التنفيذية رسالة من فرع (النجم) في الجزائر تشير إلى أنه سيقام اجتماع حاشد في الملعب البلدي في الجزائر حيث يقدم مندوبو المؤتمر الإسلامي تقريراً عن مهمتهم في باريس.

ورأى الفرع أن من المهم أن يحضر أحد قادة (النجم) ليتكلم ويشرح برنامج (النجم) واقترح الفرع أن يحضر مصالي الحاج.

غادر مصالي الحاج فرنسة سراً إلى الجزائر. ووصل إلى الملعب قبل وصول منظمي الاجتماع وقبل مندوبي المؤتمر الإسلامي. وسرعان ما انتشر خبر وصول مصالي وأسرته. جرت مفاوضات من أجل السماح لمصالي الحاج بالكلام، وأخيراً سمح له بالكلام ثلاث دقائق لتحية الجمهور بحجة أن الاجتماع مقرر من قبل وكذلك الخطباء وليس هناك مجال للتعديل[٨٣].

كان ابن جلول أول المتكلمين، وقد أشار إلى حضور مصالي الحاج "إننا نحيي وجود أخينا مصالي الحاج وزوجته وابنه علي بيننا. حقيقي أن مصالي الحاج يطالب بسياسة غير سياستنا وأننا لا نستطيع أن نشاركه أفكاره. إنه يسير في طريق آخر وكل أمام مسؤولياته[٨٤].

وأخيراً أعطي الكلام لمصالي الحاج فتكلم مدة عشرين دقيقة باللغة العربية المنطوقة: "أيها الأخوة الأعزاء لقد جئت باريس منذ بضع ساعات حاملاً تحية (نجم شمالي أفريقية) للشعب الجزائري ولاجتماع اليوم الكبير، نعم إني أحيي شعبنا الواقف على الدوام الوطني المخلص لماضيه التاريخي، وهذا بالرغم من أكثر من قرن من الاستعمار الكبير. نعم إني سعيد اليوم لأني في بلدي بينكم بمناسبة هذا الاجتماع الذي سيكون بدون شك تاريخاً في النضال الذي نخوضه جميعاً لنفس الهدف. نعم أكرر أني مسرور للغاية لكوني بينكم في هذه الظروف المهمة بخاصة بمستقبل وطننا، هذه

الأرض المباركة أرضنا، هذه الأرض أرض البركة ليست للبيع ولا للمساومة ولا لربطها بشخص، هذه الأرض لأبنائها لورثتها إنهم هنا أحياء ولا يرغبون إعطاءها لأحد.

لهذا بالضبط جئت أحضر هذا الاجتماع باسم (النجم) حزبنا حزبكم الذي هو من أجل استقلال الجزائر. ينبغي أن يكون ذلك واضحاً وقاطعاً، ونحن نرفض في هذا المجال كل مساومة. الآن يجب أن ننظم أنفسنا وأن نتحد لنكون أقوياء لنناضل من أجل تحقيق أهدافنا" وقد صفّق الجمهور بحماس جنوني مع هتافات مشجعة، وحين أنهى مصالي الكلام حمله الجمهور وطاف به عدة مرات حول الملعب هاتفاً "تحيا الجزائر" يحيا مصالي، يحيا الاستقلال، يحيا الإسلام يحيا الله(٨٥).

وشعر العلماء الذين كانوا يتمتعون بنفوذ ضخم أنهم مكسوفون وأن كرامتهم مُسّت. وبعد خطاب مصالي ألقي الطيب العقبي خطبة موجزة وعنيفة ضد سياسة (النجم) وضد مصالي وقال: "كيف يمكن لحمامة بدون أجنحة أن تطير في السماء"(٨٦).

وفي الغد شنت الصحافة حملة عنيفة ضد القوميين وطالب المستوطنون باعتقال المعادين لفرنسة(٨٧).

النجم والعلماء:

أثار اغتيال (المفتي كحول) يوم الاجتماع دهشة الجزائريين ورأوا في ذلك يد الاستعمار. وقد زاد اعتقال (الطيب العقبي) في قناعتهم هذه. كانت هذه المؤامرة تستهدف كل الحركات السياسية الجزائرية وإفقادها رصيدها، كما تهدف إحراج حكومة الجبهة الشعبية ودفعها للتخلي عن مشاريعها الإصلاحية. وأمام هذا الموقف وجد مصالي أنه من واجب (النجم) أن يمدّيده للعلماء، وأنه ينبغي مجابهة المناورة الاستعمارية التي تسعى لتمزيق الجزائريين وإفزاعهم. قابل مصالي العلماء فأطلعه الشيخ ابن باديس على رغبته بالسفر إلى باريس على رأس وفد صغير من أجل

إطلاق سراح (الطيب العقبي) وطلب منا المساعدة من أجل إيجاد محامين لــه. أكد مصالي لابن باديس مساعدة (النجم) واقترح عليه أن يضع تحت تصرفه الحزب ومناضليه للقيام بحملة احتجاج، ولكن بن باديس شكر قادة (النجم) ورفض هذا الاقتراح، وفضل كما قال لمصالي الذهاب إلى باريس بصمت والعودة إلى الجزائر بصمت"[٨٩]. وقد أثار اعتقال الطيب العقبي الذعر بين اتحاد المنتخبين وشاع أن عدداً منهم قد سافر إلى فرنسة لقضاء إجازة. أما رئيسهم بن جلول فقد صرح عدة تصريحات للصحف الجزائرية والفرنسية قبل سفره إلى باريس. وقد بدا من تصريحاته أنه أحط من الأرض نفسها، فقد كان يقول بوجوب: "طرد ومطاردة كل من هو غير فرنسي في الجزائر بدون رحمة". وقال لإحدى جرائد مرسيلية في ١٢آب، إنه يتمنى أن يكون التعليم بالفرنسية فقط وبهذا تزول اللغة العربية ويصبح الاندماج في العائلة الفرنسية أمراً واقعاً، وسيتكلم الجزائريون المسلمون وسيحلمون ولن يفكروا إلا بالفرنسية". وصرح ابن جلول أن العلماء خطرون كالقوميين والشيوعيين، ذلك لأنهم يريدون تجديد الإسلام والتثقيف باللغة العربية واضعين بذلك حاجزاً أمام إدماج المسلمين. وفي باريس حاول أن يقدح بنجم شمالي أفريقية أمام أحزاب اليسار. وذهب إلى حد المطالبة بصورة مكشوفة تقريباً باعتقال مصالي الحاج[٨٩].

قبل مجيء مصالي إلى الجزائر كان (نجم أفريقية) معروفاً بالبلاد. وكان لــه وجود سياسي وعدة شعب موزعة عبر المحافظات الثلاثة ولكن نشاطاته كانت سرية. ولكن بعد النجاح الذي أحرزه مصالي في الملعب البلدي قرر النجم أن يناضل علناً أمام الشعب الجزائري والرأي العام الدولي.

وقد لقي مصاعب عديدة من الإدارة الاستعمارية ومن الحركات السياسية الجزائرية الأخرى، التي بدا أنها اتفقت ضده بما في ذلك جمعية العلماء.

ولوحظ منذ تلك الفترة غياب كلمة الأهالي في الخطاب السياسي للنجم وحل محلها

"الجزائريون /الشعب الجزائري/، الأمة الجزائرية". وكان هذا تخلصاً من التعبير الفرنسي المهين أو كما يقول مصالي الرغبة في القضاء على عقدة النقص وإحياء الحقيقة التاريخية(٩٠).

قام مصالي بنشاط كبير في الجزائر وقابل واجتمع مع الكثير من الجزائريين. وكان يلحّ على الوحدة والتنظيم. وقبل أن يغادر الجزائر كتب في (جريدة الآمة) مقالاً عنوانه "يا شعب الجزائر إذا أدرت أن تحيا وتنتصر نظم نفسك...حقيقة كان هناك تجمعات ونوادٍ رياضية، وطرق صوفية ولكن كل هذه الجمعيات ليس لنشاطها هدف ولا معنى. ولم يكن للجزائر حزب سياسي ذو تنظيم حقيقي. كان هناك انتخابات وحمّى انتخابية ثم يسود الصمت وينسحب الشعب معتقداً أنه قام بواجبه، وكفى الله المؤمنين القتال. وكانت غالبية المثقفين في عام ١٩٣٦، قلقين من مجيئنا إلى الجزائر باستثناء القليل منهم.

كان مصالي قلقاً من الصراع بين العلماء والطرق الصوفية. أحرز العلماء نجاحاً، وكانوا يتهمون الطرق الصوفية بممارسة بعض الطقوس المخالفة للمبادئ الإسلامية. وكان العلماء يعلنون أنهم يمثلون السّنة، كما كانوا يتهمون الطرق الصوفية بالتعاون مع الاستعمار.

ويذكر مصالي أنه خلال مقابلة مع شكيب أرسلان في جنيف حول هذا الخلاف وجد أن الأمير لايوافق على هذا النزاع. وكان له صداقات مع الطرق وكان معجباً بها لأن اتباعها يجوبون الصحراء والجبال والسهول لينشروا كلام الله بين أولئك الذين يعيشون حياة صعبة قاسية "هؤلاء الرجال يتحملون من العناء لينشروا الإسلام في المناطق الصعبة في حين أن العلماء يعيشون في المدن الكبرى في ظروف برجوازية جداً. إن إخواننا هم خدام جيدون للإسلام ومبادئه. ومن المهم عمل كل شيء لوضع حد لهذا الشقاق بين العلماء والطرق الصوفية"(٩١).

يذكر مصالي أنه قابل الشيخ الإبراهيمي عدة مرات، وكان الإبراهيمي يتهرب من النقاش ويقتصر على العموميات، وقد تأكد مصالي أن الإبراهيمي كان يتمتع بنفوذ كبير في صفوف التجار والشباب وكان عدد من مناضلي (النجم) كغيرهم يتعاطفون مع العلماء. لقد بدأت جمعية العلماء بهدف إنشاء مدارس عبر البلاد لتعليم اللغة العربية. وكان فخر العلماء أنه كان باستطاعتهم القول: إننا نبني مدارس ولكن شيئاً فشيئاً بدأت تعمل بالسياسة ولكن أية سياسة: ربط الجزائر بفرنسة ومشروع بلوم فيوليت الذي يهدف الشروع بفَرْنَسَة الجزائر على مراحل صغيرة. وأصبحوا لعبة بيد المنتخبين والحكومة والحزب الشيوعي الفرنسي(٩٢).

قرر العلماء عقد مؤتمرهم السنوي في النصف الثاني من أيلول فقرر مصالي حضور هذا المؤتمر ليكوّن رأياً نهائياً حول العلماء. لاحظ مصالي وجود انقسام بين العلماء ولاحظ أن (العقبي) يقف في صف مضاد لابن باديس والإبراهيمي ويبدو أن الإدارة كسبته إلى صفها.

تحدث الخطباء في مواضيع مختلفة وعرّضوا بالنجم وبمصالي الحاج دون أن يلفظوا اسمه. وحين رغب في توضيح بعض النقاط منعوه من الكلام فانسحب مع جماعته احتجاجاً واتسعت الهوة بين (النجم) والعلماء(٩٣). قرر مصالي عقد اجتماع عام في العاصمة في ٢٩أيلول، شرح فيه خلال ساعة برنامج (النجم) السياسي ومطالبه التي ستؤدي في خاتمة المطاف إلى الاستقلال. ثم قام بجولة في بلاد القبائل مؤكداً على الاستقلال(٩٤).

حين عزم زعماء المؤتمر القيام بحملة دعاية في أنحاء البلاد التي تأثرت بمصالي قرر مصالي تجديد إقامته في الجزائر ومتابعة أنصار المؤتمر خطوة خطوة، في مستغانم ووهران وقسنطينة، وبخاصة جماعة العلماء. عاد مصالي إلى فرنسة ليحصل على موافقة لجنة القيادة على عودته للإقامة في الجزائر. وقد لقيت جولته في الجزائر

رضى القيادة، ولكن الموقف في فرنسة كان صعباً، ذلك أن شخصيات عديدة في الجبهة الشعبية لم تكن راضية عما قام به مصالي في الجزائر، وعادت مضايقات البوليس لأعضاء (النجم).. وعلى الصعيد الدولي تعقد الموقف، فقد تخلت حكومة الجمهورية الفرنسية عن الجمهورية الأسبانية، احتجت النجم ضد السياسة الفرنسية إزاء أسبانية وذلك كما يقول مصالي "لأننا ديمقراطيون ولأن حكومة الجمهوريات الأسبانية كانت تعد بإصلاحات سياسية لصالح أشقائنا المغاربة في المنطقة الأسبانية...وكانت هذه حركة إيجابية في اتجاه انتصار الديقراطية وتحرر الشعوب المستعمرة. وقد أرسلت (النجم) اكتتاباً بسيطاً إلى حكومة الجمهورية الأسبانية كرمز وقد وجه رئيس الجمهورية الأسبانية شكره للنجم[٩٥].

في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٣٦، قدّم مصالي تقريراً عن جولته في الجزائر أمام /٤٠٠٠/مسلم شمالي أفريقي. أعلن المجتمعون أن الجزائريين يطالبون بإلحاح التطبيق دون قيد أو شرط في الجزائر للحريات الديمقراطية والقوانين الاجتماعية والعمالية، وقانون فصل الدين عن الدولة واحترام حرية العقيدة الإسلامية والإلغاء الكامل لقانون الانديجينا، والقوانين والتدابير الاستثنائية للقيادات والبلديات المختلطة والمناطق العسكرية، ورفض مشروع فيوليت، وجذب اهتمام حكومة الجمهورية الفرنسية بخاصة حول الوضع المأساوي الذي يعيش فيه الشعب الجزائري اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً من أجل اتخاذ تدابير حازمة من أجل مواجهة البؤس وزيادة أسعار المعيشة التي تضاعفت منذ مجيء الحكومة الحالية، دون أن تزداد الأجور مع العلم أن هذه التعاسة التي يعانيها الشعب الجزائري تسمح للدعاية الفاشية التي تحاول بكل الوسائل خلق اضطرابات.

كان "الفضيل الورتلاني" ممثل جمعية العلماء في باريس يقوم بعمل تخريبي ضد (النجم) باسم العلماء. وقد حضر هذا الاجتماع وتدخل للاحتجاج ضد عدة انتقادات وجهت له. وكان مصالي قد أبدى في تقريره عدة ملاحظات انتقد بها جلول والطيب

العقبي. وكانت انتقاداته لا تمس الأشخاص بل سياساتهم وانتقاداته كما يقول مصالي مشروعة. ومع ذلك ولتنوير الرأي العام الذي كان فريسة المناورات، قررت قيادة (النجم) نشر إيضاح "إننا لم نقل شيئاً ضد كل ما هو في المجال الديني أي التعليم باللغة العربية وتعليم الإسلام الحقيقي. على العكس إننا سعداء بهذا التجديد الذي لا غنى عنه لوطننا. إنه من الواضح إذن وضوح النهار إننا لم نهمل واجبنا في هذا المجال. إننا لسنا كابن جلول الذي يريد منع العلماء من العمل بالسياسة. إننا نقول نحن والعلماء أحرار بالعمل بالسياسة، فهذا من حقهم ونقول أيضاً أن من واجبهم ولكن بشرط أن يسمح لنا أن نقول ما نفكر به ونصوغ الانتقادات الواجبة[٩٦].

وكان هذا النص دبلوماسياً أكثر منه سياسياً، كان يهدف إلى تحقيق جبهة واحدة لقوى الطرفين ضد الاستعمار الذي يسعى بكل الوسائل لجعل النجم والعلماء ضد بعضهما البعض. ولكن جهود النجم لم تثمر لأن العلماء لم يغيروا طريقهم[٩٧].

النجم ومشروع فيوليت:

بعد عودة مصالي من الجزائر استدعاه قاضٍ في قصر العدل في باريس، وعلم أنه متهم بعدة جنح ارتكبها في باريس وتلمسان ومستغانم والجزائر أثناء جولته.

واتهم أنه تعرض للسلطات والسيادة الفرنسية. وأن خطاباته خلقت فوضى وأثارت العرب ليقاوموا بشدة القوانين والسلطة العامة. واتهموه أنه قال: "الاستقلال يؤخذ ولا يعطى" و"ينبغي النزول إلى الشارع لإعداد المسار العظيم".

وأمام الموقف الخارجي المهدد، بدأ الحديث بصوت عالٍ "على جميع الفرنسيين أن يرصوا صفوفهم حول فرنسة هذا ليس وقت التفكير بإصلاحات في البنية" وكان هذا حجة من أجل عدم عمل شيء لصالح الشعوب المستعمرة.

ولخداع الجماهير قدموا مشروع بلوم فيوليث الذي عارضه اليمين الفرنسي والوسط

اليميني وكل فرنسيي الجزائر، وأيده عدد من الجزائريين الذين اعتقدوا أنه سيحسّن أحوالهم[٩٨].

"إن قارئ هذا المشروع – كما قال مصالي يرى أنه درس بعمق ودقة من قبل اختصاصي الشؤون الإسلامية.

إن العشرين ألف جزائري الذين اختيروا ليصبحوا مواطنين فرنسيين اختيروا بدقة. كانوا جميعهم تقريباً ينتمون إلى البرجوازية التجارية والعقارية والمثقفين والمرابطين. إن فتح المواطنة لعشرين ألف جزائري مناورة ماهرة وخطرة. إن نظام الاستغلال الذي أوجده مشروع رعايا فرنسيين. إنها مناورة تقسيمية ليجابه الجزائريون بعضهم البعض ويسعد الاستعماريين إنهم يريدون تحويل الجزائر إلى أرض فرنسية وبالتالي فصل وطننا عن شمالي إفريقية وعن العالم العربي والإسلامي".

أمام هذا الخطر تحرك (النجم) وأعلن التعبئة ونشرت الأمة كانون الثاني ١٩٣٧ مقالة كبيرة بعنوان "خطر حاد يهدد الوحدة الجزائرية" أيها الشعب الجزائري، انهض ضد مشروع فيوليت[٩٩]. وفي ٢٥كانون الثاني، حلّت السلطات الفرنسية (نجم شمالي أفريقية)[١٠٠]، طلبُ مصالي من أصدقائه متابعة نشاطهم باسم "أصدقاء الأمة" وطالب الأعضاء بالهدوء وضبط النفس. وبالمقابل وجه مصالي احتجاجاً إلى جميع الصحف وإلى الجبهة الشعبية ولجنة حقوق الإنسان ورابطة المثقفين المعادية للفاشية وأحزاب الجبهة الشعبية ومنظمات المستعمرات وإلى أصدقاء النجم من الشخصيات السياسية الفرنسية، أي أنه طرق جميع الأبواب ودق جميع الأجراس...[١٠١]. ونشرت جريدة الأمير شكيب أرسلان "الأمة العربية" في نيسان ١٩٣٧مقالة احتجاج، ولقي (النجم) تأييد منظمات المستعمرات ودعت لجنة الدفاع عن مصالح مسلمي الجزائر اجتماعاً في ١١شباط ١٩٣٧، وتكلم مهندس أفريقي مطالباً تآخي العرب مع زنوج أفريقية وهتف قبل مغادرة المنبر "أفريقية للأفارقة". وتحدث مصالي قائلاً: "إن مشروع

فيوليت يؤرخ في الواقع بسنة ١٨٧١ لقد كلفنا غالباً ما دام بفضل هذه المناورة التي هي قانون كريميو الذي انتزع منا الاستعمار جزءاً هاماً من شعبنا وعرف كيف يجعله ضدنا، ولم ينتقل هذا الفريق إلى الجانب الآخر من المتاريس فحسب بل أصبح دليل الاستعمار وخادمه، إن السيد فيوليت يرغب اليوم أن يجري نفس العملية بابتلاع مثقفينا. إننا لا نقبل هذه المناورة المخجلة"[١٠٢].

كان خلق حزب سياسي جديد بعد الحل مشروعاً جريئاً وخطراً واعتبره البعض عملاً جنونياً، وفكر قادة (النجم) باسم الحزب الجديد تجنباً لحل جديد. فكر بتسمية (الحزب القومي الجزائري) ولكنهم استبعدوا الفكرة بناء على نصيحة البعض. وهكذا اختير اسم "حزب الشعب الجزائري" الذي أعلن تأسيسه في ١١آذار، وتولى مصالي الحاج رئاسته. حتى هذا التاريخ كان (نجم شمالي أفريقية) يهدف التي تكريس نفسه للدفاع عن كل شمالي أفريقية ولكن مع حزب الشعب الجزائري رأى مصالي ورفاقه أن يقصروا نشاطهم على الجزائر مع احتفاظهم بعلاقاتهم مع تونس والرباط[١٠٣].

الهوامش

1- les Mémoires de Messali Hadj Préface de Ben Bella P. 13-14.

2- Les Mémoires, P. 267.

3- Mémoires P. 213.

4- Mémoires P. 63.

٥- يقول مصالي في الجزائر كما في فرنسة إن حزبنا هو الوحيد من نوعه قومي يقوده جزائريون عرب مسلمون يستمدون من الماضي التاريخي ومن الحضارة العربية الإسلامية ومن مبادئ الإسلام بعيداً عن التعصب Mémoires P. 216.

٦- الدكتور محمد المالكي: الحركات الوطنية والاستعمار في المغـــرب العربــي ص١٣٢.

7- Les Mémoires P. 33.

8- Les memores p. 41.

9- Mémoires P. 59.

10-Mémoires P. 63.

11-Mimoires p. 66.

12-Mémoires p. 84.

13-Mémoires p. 103-104.

14-Mémoires p. 106.

15-Mémoires p. 107

16-Mémoires p. 109

17-Mémoires p. 120

18-Mémoires p. 121

19-Mémoires p. 123.

20-Mémoiresp. 124

٢١- كان زواج مصالي من فرنسية من اللورين، بلد جان دارك، موضع استنكار من الفرنسيين الاستعماريين في الجزائر، وكانوا يعتبرونه ضربة خطيرة لهيبتهم وكرامتهم كعرق متفوق وكان بعض هؤلاء الناس رجالاً ونساء يقولون بغضب إن هذه الفرنسية يمكن أن تكون لصة أو عاهرة من الضواحي .Mémoires p. 144

22-Mémoires p. 134

23-Mémoires p. 136-140

24-Mémoires p. 146

٢٥- يقول أجيرون في تعقيبه على مذكرات مصالي "يدعي مصالي في مذكراته أنه هو الذي أنشأ النجم في آذار ١٩٢٦ ولكن على المؤرخ أن يتذكر أنه في ٧ أيار حيا مصالي علناً في اجتماع الحاج على المؤسس للنجم" انظر Mémoires p. 284" والحق أن مصالي لم يقل أنه مؤسس النجم بل كان من بين مؤسسيه الأوائل وعين رئيساً له.

26-Mémoires p. 151.

27-Mémoires p. 153

28-Mémoires p. 153

29-Mémoires p. 154

30-Mémoires p. 154

٣١- لم يطل بقاء الشاذلي في (النجم) فقد حدث خلاف بينه وبين قادة (النجم) بعد مؤتمر بروكسل. ويقول مصالي "وفي الحقيقة إن الشاذلي خير الله بتميّزه وثقافته وشخصيته كان نشاذاً وسط العمال، وهكذا غادر إلى تونس ولم يكن مرتاحاً بيننا" (وفي الحقيقة طرد الشاذلي خير الله من فرنسة) Mémoires p. .158

32-Mémoires. P. 156

٣٣- انظر البرنامج السياسي في ملحق المذكرات. Mémoires. P. 315.

34-Mémoires. P. 156-157-158.

35-Mémoires. P. p. 159

36-Mémoires. P 159-160

37-Mémoires. P.164-165.

٣٨- لم يحضر الأمير خالد الاجتماع ولم يرسل حتى رسالة اعتذار وأبلغ ممثله أحمد بلفول مصالي أن الأمير مستاء لأنهم وضعوا اسمه على بطاقة الدعوة للاجتماع. وأضاف بلفول أنه بادر بنفسه بالكتابة إلى وزير الداخلية لينفي مسؤولية الأمير خالد. انظر Mémoires. P.165-190.

٣٩- على رأسها الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري.

40-Mémoires. P.166.

41-Mémoires. P.169-170

٤٢- رداً على حادث البراق

43-Mémoires. P.170

44-Mémoires. P.160-161-162.

45-Mémoires. P.167

46-Mémoires. P.172-173

47-Mémoires. P.175-170

48-Mémoires. P.193

يقول مصالي "حقيقة أننا كنا ضد الفاشية وضد النازية ولكنا كنا قبل كل شيء ضد الاستعمار وضد الامبريالية. كان هذا شعوراً عاماً لدى كل الشمال الافريقيين إننا لا

نريد أن نحارب لتعزيز القوة الاستعمارية للامبرياليين كنا ننتظر إنشاء الجبهة الشعبية الرسمي بنفاذ صبر لننضم إليها ولكن أيضاً لنعرض برنامجنا السياسي. وحين أعلنت الجبهة الشعبية في حزيران ١٩٣٥ اتفقت الأحزاب الشمال أفريقي: (النجم) و(الدستور) و(العمل المغربي) على تبني موقف مشترك إزاء أحزاب اليسار.

49-Mémoires. P.180

50-Mémoires. P.180

51-Mémoires. P.183

52-Mémoires. P.186

53-Mémoires. P.191

54-Mémoires. P.192

55-Mémoires. P.195-196

56-Mémoires. P.197

57-Mémoires. P.198

58-Mémoires. P.198

59-Mémoires. P.198-199

60-Mémoires. P.207

61-Mémoires. P.209

62-Mémoires. P.209-210

63-Mémoires. P.210

64-Mémoires. P.210-211

65-Mémoires. P.211

66-Mémoires. P.211

67-Mémoires. P.212

68-Mémoires. P.212

69-Mémoires. P.212

70-Mémoires. P.213-214

71-Mémoires. P.216

72-Mémoires. P.217

73-217-218

74-Mémoires. P.219

75-Mahfboud Kaddache: Histoire du nationalisme Algérien Tome 1 .P. 429

76-I bid: p. 429

77-I bid: p. 431

78-Mémoires. P.214

79-Mémoires. P.219-220

80-Mémoires. P.220

81-Mémoires. P.223

82-Mémoires. P.223

83-Mémoires. P.223-224

84-Mémoires. P.224

85-Mémoires. P.225

86-Mémoires. P.225

87-Mémoires. P.225-226

88-Mémoires. P.227

89-Mémoires. P.229

90-Mémoires. P.229

91-Mémoires. P.230

92-Mémoires. P.231

93-Mémoires. P.236

94-Mémoires. P.237

95-Mémoires. P.237

96-Mémoires. P.238-239

97-Mémoires. P.239-240

٩٨- لم يأت الحل عن طريق القضاء وإنما جاء بمرسوم من مجلس الوزراء وطبق فوراً دون أن يكون بإمكان النجم اللجوء إلى القضاء Mémoires. P.240.

99-Mémoires. P.240

100- Mémoires. P.243

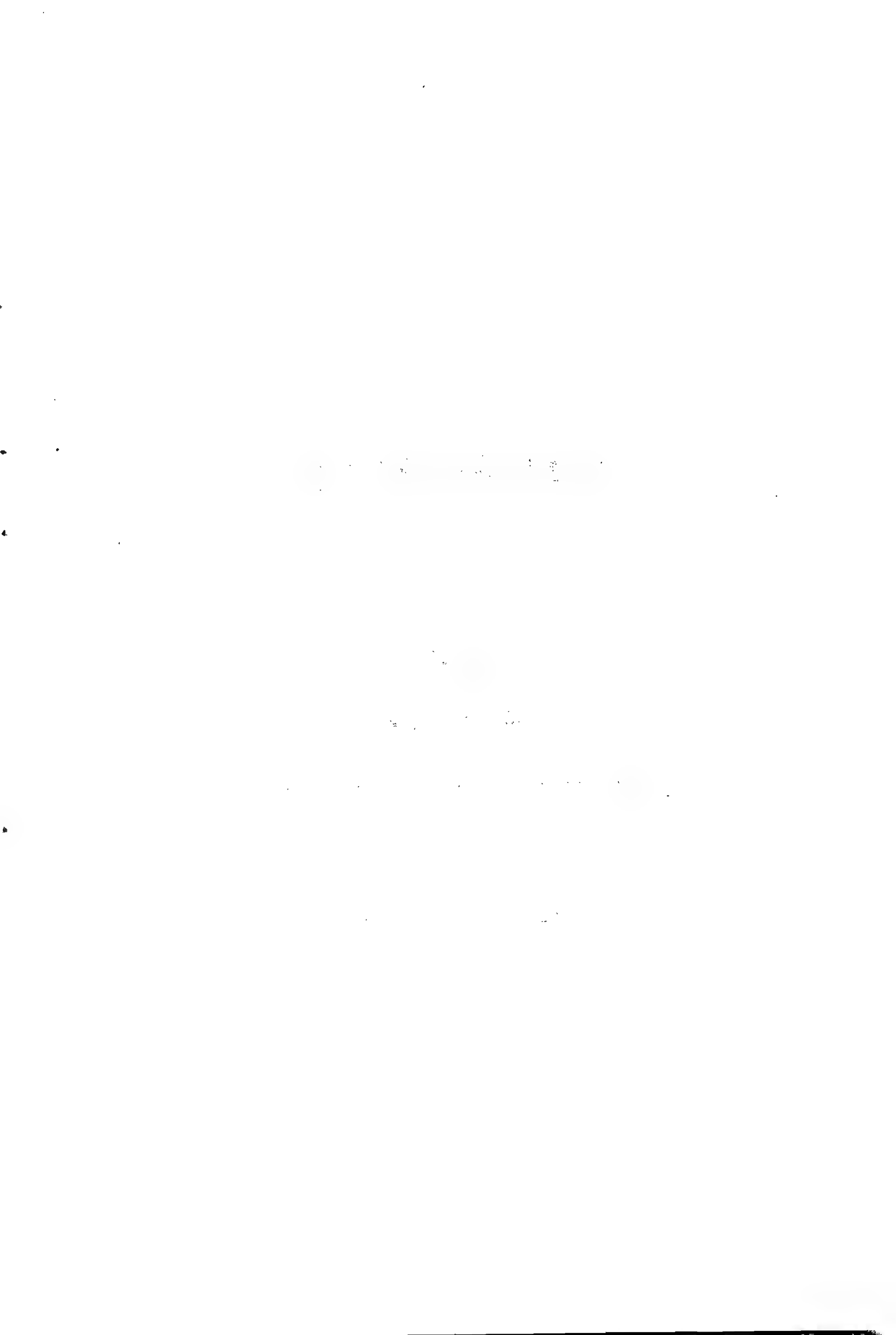
101- Mémoires. P.245

ملامح النظام العالمي الجديد

الدكتور

ناصر عبيد الناصر

المعهد العالي للعلوم السياسية ــ دمشق



ملامح النظام العالمي الجديد

ملخص البحث

إن التغيير الذي يطرأ على النظام الدولي ليس من صدف الأقدار، وليس وليد حدث معين بذاته، وإنما نتاجاً لعوامل اقتصادية وسياسية تتوالد تدريجياً ومن ثم تتقاطع وتتكامل، لتفرز أشكالاً وقوى وملامح وبنى قد تكون في المحصلة النظام العالمي والذي يرتبط بطبيعة الحال بالظروف الزمانية والمكانية وعوامل التأثير والقوة، وقد تحصل بعض الأحداث الدولية الكبرى لتعلن عن حجم وعمق التحولات التي تطرأ على النظام العالمي القائم، كانهيار الاتحاد السوفيتي في عقد التسعينات، والذي مهّد الطريق لبروز الولايات المتحدة بوصفها القطب الوحيد في العالم القادر على تنظيم المجتمع الدولي وفق المقاييس الأمريكية، دون أن تخشى أي معارضة فعالة. ولهذا ذهب بعض الباحثين للقول بأن عالم ما بعد الحرب الباردة ليس عالماً متعدد الأقطاب بل عالم القطب الواحد، ودور الدول الكبرى لا يتخطى تنفيذ التوجهات الأمريكية.

لقد حاول بعض الباحثين التفريق بين مفهومي «النظام الدولي» و «النظام العالمي» فالأول يقوم على أساس العلاقات والتفاعلات وأنماط توزيع مصادر القوة والنفوذ بين الدول الأطراف والثاني، أكثر شمولاً واتساعاً من الأول، حيث تندرج في إطاره الدول ذات السيادة بالإضافة إلى الاحتكارات الدولية والمنظمات غير الحكومية، والشركات عبر الوطنية، وكل ما هو خارج إطار سيطرة الدولة. وعليه فإن النظام الدولي يعد جزءاً من النظام العالمي.

لقد توخينا من وراء هذا البحث التوقف على إشكالية النظام العالمي ومعرفة فيما إذا كان حقاً يتسم بالعالمية، وهل هو حقاً جديداً، كذلك حاولنا رصد العوامل التي تقف وراء نشأة النظام العالمي الجديد، فضلاً عن معرفة مضامين هذا النظام ومراميه، وما هي القيم التي ينطوي عليها النظام الدولي الحالي، بالإضافة إلى حصر التحديات التي يواجهها وتشخيصها، ثم تطرقنا إلى القوى العالمية المنتظرة التي يمكن أن تظهر إلى السطح في المستقبل المنظور وتحدث تغييراً في طبيعة هذا النظام الذي سينتقل مستقبلاً وبالضرورة من الأحادية القطبية إلى التعددية القطبية. وكما بينا في هذا البحث موقف العرب من النظام العالمي الجديد وهل من مصلحتهم أن يديروا له ظهرهم ويتمرسوا خلف حواجز العزلة، أم أن من مصلحتهم أن يتفاعلوا معه ليحصنوا أنفسهم من سلبياته وينتفعوا من إيجابياته دون أن يتخلوا عن ثوابتهم الوطنية والقومية، وهل بإمكان العرب بوضعهم الحالي، الذي تسوده الفرقة أن يكون لهم دور فاعل في صياغة النظام العالمي الجديد، يفترض أن يعملوا جاهدين لتوحيد موقفهم ونبذ خلافاتهم الهامشية حرصاً على وجودهم القومي، ولكي يكون صوتهم مسموعاً على المستوى الدولي لابد من تبني مشروع قومي عربي شامل يجسد تطلعاتهم في الوجود.

منهج البحث:

اعتمادنا في بحثنا لملامح النظام العالمي الجديد على المنهج التاريخي الوصفي.

فرضية البحث:

يذهب هذا البحث إلى اثبات أن الفوضى الدولية هي التي تسود العالم المعاصر وليس النظام العالمي الجديد الذي يضمن لدول المعمورة كافة حقوقها ومصالحها الحيوية.

محتويات البحث:

يتضمن بحث «ملامح النظام العالمي الجديد» المحاور التالية:

١ــ مقدمة.

٢ــ عوامل نشوء النظام العالمي الجديد.

٣ــ بنية النظام العالمي الجديد وأهدافه.

٤ــ خصائص النظام العالمي الجديد.

٥ــ موقع الدول في النظام العالمي الجديد.

٦ــ التحديات التي تواجه النظام العالمي الجديد.

٧ــ خلاصة البحث ونتائجه.

The Features Of The New World Order

Nasser Obeid Al Nasser

Higher Institutue of Political Sciences

Damascus

Summary

Our aim of this study is to discuss the problem of the New World Order, and to know if it is really characterized with globalization, and if it is really new. We also, tried to discover the factors which have brought the New World Order into reality, and to know the contents of this World Order and the values on which it based is, and to state and analyse the challenges which it is confronting.

We have, also, talked about the coming world powers which may emerge in the forthcoming future , and create a change in the character of this World Order which will necessarily transform from unipolar power to multipolar powers. And ,we discussed in this paper, the Arab stand from the New World Order, and where the Arab interest lies: Is it in the interest of Arabs to neglect and not to interact with the New World Order, and to keep transfixed behind the barriers of isolation or is it in the interest of Arabs to interact with the New World Order to protect themselves from its disadvantages and to make use of its advantages without giving of their national principles ; and can the Arabs by their current situation, which is characterized with division and conflict play an influential role in the formation of the New International Order ; and in order to be able to play such a role, the Arabs are called to unify their stances , and to forget their marginal conflicts if they want their national existence to be protected and kept , and their voice heard and listened to in the international arena.

مقدمة

جاء في قواميس اللغة العربية بأن النظام يعني الترتيب والاتساق، و في هذا السـياق فالنظام الدولي يعني أيضاً التنسيق والتعاون بين دول المعمورة في مجالات الاقتصـاد والسياسة والثقافة والفنون والعلوم والتكنولوجيا. والنظام يتكون مـن مجموعـة مـن العناصر التي تتفرع إلى أجزاء ترتبط ببعضها بعضاً بعلاقات سببية تجعل من النظـام مقولة ذات معنى. وتتكون أطراف النظام العالمي بمفهومه المجازي وحسب مصطلحة القائم من دول مستقلة ذات سيادة تقع على عاتقها مجتمعة مسـؤولية توفـير الأمـن والاستقرار العالميين. ولا يجوز لأي دولة مهما بلغ وزنها وحجمها أن تنفرد بالنظـام العالمي وتحتويه، أو أن يخدم النظام العالمي مصالح دولة أو مجموعة من الدول دون غيرها وفي مثل هذه الحالة يفقد النظام توازنه ويفقد صفته العالمية.

إن النظام العالمي لا يظهر فجأة أو مصادفة بلا مقدمات، وإنما هو ثمرة لجملـة مـن التفاعلات الاقتصادية والسياسية التي تمليها ظروف الزمان. ففي مطلع القرن التاسـع عشر مثلاً، تقدم كل من مترنيخ وكاستيلري وزيـري خارجيـة بريطانيـة وألمانيـة بمشروع لنظام عالمي تمت مناقشته من قبل ملوك أوروبة في مؤتمر فيينة في أيلـول عام ١٨١٤، وتم إقراره آنذاك واستمر قرابة مائة عام ثـم انـهار نتيجـة لصـراع المصالح المتناقضة بين الدول التي ساندته في البداية. وبعد قيـام الحـرب العالميـة الأولى عام ١٩١٤، برزت إلى السطح «عصبة الأمم» التي حاولت جـاهدة توفـير الأمن والاستقرار في العالم، ولكنها أخفقت في مسعاها هذا، لأنها كانت تجسـد إرادة المنتصر في الحرب. واستمر الصراع بين الدول حول اقتسام المجال الحيوي وإعـادة تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ وتتوج هذا الصراع بقيام الحرب العالمية الثانية، وعلـى أثرها تشكلت «هيئة الأمم المتحدة» التي اجتهدت لإرساء نظام عالمي يرتكـز علـى قاعدة التوازن بين القوتين الأعظم الاتحاد السوفيتي والولايات المتحـدة الأمريكيـة، ولكن هذا النظام لم يعمر أكثر من ٧٠ عاماً، انتهى بانهيار الاتحاد السـوفيتي. وقـد

أخفق هذا النظام على الرغم من ارتكازه على الثنائية من إنهاء بؤر التوتر ومن إيقاف السباق على التسلح، ولم ينجح في حسم الصراعات الإقليمية، وفي تسعينات هذا القرن بدأت تظهر تحولات رئيسة في القواعد التي تحكم العلاقات الدولية الراهنة بفعل الانتصارات السياسية للتحالف الغربي في الحرب الباردة، وفي ضوء هذه المتغيرات أعطى بعض الباحثين للنظام العالمي الجديد مفهوماً قيمياً متفائلاً، بوصفه يحقق الأمن والاستقرار، بينما اكتفى البعض منهم بالبحث عن الفوارق الجوهرية بين قديم وحديث النظام العالمي الجديد دون أن يحدد موقفاً من هذا النظام. ومع شيوع مفهوم النظام العالمي الجديد في الأدبيات السياسية والاقتصادية تعددت الآراء وتباين مواقف الباحثين من مفهوم هذا النظام وجوهره.

ومع تولي (غورباتشوف) السلطة في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٥، طرح مشروع (البريسترويكا) أو ما يسمى بإعادة البناء والهيكلة. تجددت الدعوة لقيام نظام عالمي جديد يستند إلى القيم الإنسانية العامة وترتيب العلاقات الدولية بعيداً عن المواجهة، وبعيداً عن الصراع الأيديولوجي، مع إعطاء الأولوية للتحديات المشتركة التي تواجه المجتمع البشري، وقبول مبدأ التعدد والتنوع في الأنظمة السياسية والاجتماعية، واحترام حق كل شعب في اختيار الطريق الذي يلائمه. [١]

ثم تبنت الولايات المتحدة إثر حرب الخليج الثانية مقولة النظام العالمي الجديد الذي أعطته مضامين جديدة ترتكز على المبادئ السامية، والذي أعلن عنه الرئيس الأمريكي الأسبق (جورج بوش) في قاعدة (مونتيغمري الجوية) في النصف الأول من نيسان عام ١٩٩٢، بقوله: (إن النظام العالمي الجديد لا يعني تنازلاً عن سيادتنا الوطنية أو تخلياً عن مصالحنا، إنه ينم عن مسؤولية أملتها نجاحاتنا، وهو يعبر عن وسائل جديدة للعمل مع الأمم الأخرى من أجل ردع العدوان وتحقيق الاستقرار والازدهار، وفوق كل شيء تحقيق السلام. إنه ينم إلى التطلع لعالم يقوم على التزام مشترك بين الأمم، كبراها وصغراها، بمجموعة من المبادئ التي يجب أن تستند عليها

علاقاتنا ومنها: التسوية السلمية للمنازعات والتضامن في وجه العـــدوان، وتخفيـف ترسانات الأسلحة ومراقبتها، والتعامل العادل مع كل الشعوب....الخ) ولكن الخطـاب الرسمي الأمريكي الذي حدّد المبادئ السامية التي يركن إليها النظام العالمي الجديد لـم يجسد على أرض الواقع، وهذا ما سنوضحه لاحقاً في سياق هذا البحث.

أولاً ـ عوامل نشوء النظام العالمي الجديد

تقف وراء نشأة النظام العالمي الجديد مجموعة من العوامل نذكر منها:

١ـ تفكك أوصال الاتحاد السوفيتي:

سجلت (البريسترويكا) بداية تداعي الدولة السوفيتية، والتي أظهرت عدم قدرة بعـض دول المنظومة الاشتراكية على التكيف مع المتغيرات الاقتصاديـة والسياسـية علـى الصعيدين الداخلي والخارجي، والتي ترتب عليها انـهيار (الكوميكـون) و (حلـف وارسو) بالإضافة إلى التخلي عن الاقتصاد الموجه والسير في طريق اقتصاد السوق، بهدف الاندماج في منظومة الرأسمالية العالمية. ونتيجة لتفكك الاتحاد السوفيتي إلـى دول مستقلة، انتهت الحرب الباردة بين القوتين الأعظم بمعناها التقليدي وحل محلـها الوفاق في صورة اتفاقات تحد من سباق التسلح، فـاختل التـوازن الدولـي لصـالح الولايات المتحدة التي برزت كقوة عظمى أخذت على عاتقها مهمة إعـادة صياغـة النظام الدولي بما يخدم مصالحها أولاً.

٢ـ الثورة المعلوماتية:

تفجرت الثورة المعلوماتية فـي مجـال الاتصـالات والفضـاء والحاسـب الآلـي والإلكترونيات والهندسة الوراثية، في كل من اليابان والولايات المتحدة ودول أوروبـة الغربية، وفي بعض بلدان شرق آسية، وقد أسهمت هذه الثورة في تقريب المسـافات بين دول المعمورة وأضافت عناصر جديدة إلى مقومات قوة الدولة، وأحدثت تبـدلات

جوهرية في مفاهيم السيادة والحدود الإقليمية، فضلاً عن الدور الذي لعبته بإضعاف أو تعزيز الدور الإستراتيجي لبعض الدول من خلال إحلال البدائل الاصطناعية محل المواد الأولية الطبيعية كلياً أو جزئياً، بما في ذلك بدائل الطاقة، مما عمّق الفجوة بين دول الشمال والجنوب وتهميش دور الأخيرة، في حين اكتسبت دول الشمال قوة إضافية مكنتها من السيطرة على النظام العالمي الجديد.

٣ـ تنامي دور التكتلات الاقتصادية الكبرى:

وتجسد التجمعات الاقتصادية الإقليمية ظاهرة إحلال الشراكة محل الصراع، والوفاق محل المواجهة بين دول تجمعها قواسم مشتركة، وترتبط بشبكة معقدة من علاقات التعاون الاقتصادي والتبادل التجاري والمالي. وقد شكلت معاهدة «ماستريخت» في قيام مشروع الاتحاد الأوروبي عام ١٩٩٢، نموذجاً لمثل هذه التكتلات فضلاً عن تعزيز دور «التجمع الاقتصادي الباسفيكي» الذي تحتل فيه اليابان مكان الصدارة، بالإضافة إلى تفعيل دور «منطقة شمال أمريكة للتجارة الحرة» والتي تندرج فيها بالإضافة للولايات المتحدة كلاً من كندا والمكسيك.

٤ـ تفاقم مشاكل دول الجنوب:

بعد أن أخفقت معظم دول الجنوب في تحقيق مشاريع التنمية الاقتصادية الطموحة، وبعد أن تراجعت عن معظم الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية التي حققتها[٢] في العقود السابقة، من خلال دمجها في منظومة الرأسمالية العالمية، تفاقمت مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية، وبرزت إلى السطح تحديات كبيرة تعيق تطورها ومنها: تحدي الهوية والاندماج القومي، فضلاً عن توتر الصراعات ذات الطابع القومي والعرقي والأثني الأمر، الذي أسهم في تهميش دورها في النظام العالمي الجديد.

٥ـ اختلال البيئة:

حيث امتد التلوث ليشمل مجالات الحياة كافة، وترافق ذلك بانتشار الجوائح المرضية

«كالإيدز، والمخدرات، والإرهاب»، ونضوب الموارد الطبيعية غير القابلة للتجديد، وهذه المشاكل التي تهدد مستقبل البشرية بالفناء لا يمكن تطويقها بالاعتماد على جهود دولة واحدة أو عدة دول منفردة، بل تفترض حشد قدرات دول القارة مجتمعة في التصدي لها في ظل نظام عالمي جديد فاعل ومؤثر.

ثانياً ـ بنية النظام العالمي الجديد واهدافه

إن هيكل النظام العالمي يملي بالضرورة ترتيب دور ومكان كلاً من الأطراف المكونة لهذا النظام بغية وضع العلاقات الدولية في مسارها المرغوب، ويعول فريق من الباحثين أهمية كبيرة على عنصر القدرة في توجيه العلاقات الدولية، والقوة بأبعادها السياسية والاقتصادية والعسكرية، وهناك من بين الباحثين من يعطي القوة العسكرية الدور المقرر في صياغة النظام العالمي والدولة المؤهلة للعب هذا الدور هي الولايات المتحدة، في حين يعتقد البعض بأن القوة الاقتصادية هي التي تقرر مصير النظام العالمي في المحصلة، والولايات المتحدة بمفردها غير مؤهلة لأن تؤدي هذا الدور الذي يتطلب تفاعل عدة قوى اقتصادية في العالم من أجل السيطرة على مجمل التفاعلات الدولية، إذ يتعذر أن تتوافر جميع عناصر القوة في دولة واحدة، وبهذا الصدد يقول «بفاف» لا توجد دولة واحدة تتفوق في جميع عناصر القوة، ونتيجة لتعدد مراكز القوى في العالم، لا توجد قوة عظمى بمفردها تسيطر على النظام العالمي الجديد.[٣]

بينما يرى بعض الباحثين بأن هيكل النظام بمعزل عن العوامل الداخلية التي توجه السياسة الخارجية للدول، لا يقوى على توجيه العلاقات الدولية والتحكم بمسارها. وفي هذا المنحى يتوقع الباحثون ثلاثة احتمالات لقيادة النظام العالمي الجديد:

- **الاحتمال الأول:** ويتمثل بسيطرة القطب الواحد على النظام العالمي الجديد ممثلاً بالولايات المتحدة التي تتفوق على العالم في المجالين العسكري والنووي. وقد

يبقى النظام العالمي على المدى القصير (٥ـ١٠ سنوات) أحادي القطبية على المستوى الإستراتيجي العسكري، وستكون السيطرة خلال هذه الفترة للولايات المتحدة، أما على المستوى الاقتصادي فستكون السيطرة على النظام العالمي الجديد لكل من اليابان والجماعة الأوروبية بالإضافة للولايات المتحدة والصين.

- **الاحتمال الثاني:** ويتمثل بالثنائية القطبية، وهما قطب الولايات المتحدة من جهة وقطب اليابان والجماعة الأوروبية من جهة ثانية، ولا يمكن لكلا القطبين أن يلعبا دور القطب الواحد في تسيير النظام العالمي الجديد. لأن كلا القطبين لا يمتلكان المقومات الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية مجتمعة لا في الحاضر ولا في المستقبل. فاليابان والجماعة الأوروبية قوى عظمى من الناحية الاقتصادية، بينما القدرات النووية للجماعة الأوروبية محدودة قياساً بقدرات الولايات المتحدة. وقد شبه بعض الباحثين النظام العالمي الجديد بالهرم حيث تتربع على قمته الولايات المتحدة ثم تتلوها أوروبة واليابان والصين....الخ، والتسلسل الهرمي للنظام العالمي الجديد يوفر السيطرة على التناقضات والتحكم بها في صالح المنظومة الرأسمالية العالمية...[٤]

- **الاحتمال الثالث:** ويتجلى بالتعددية القطبية، وينطلق أيضاً أنصار هذا الاحتمال من الصيرورة التاريخية وما يتمخض عن التطور مستقبلاً في إطار النظرة الكلية للمتغيرات السياسية والاقتصادية التي ستطرأ على النظام الدولي مثل: التبدلات التي ستشمل القدرة العسكرية والقدرة الاقتصادية والمديونية التي يعاني منها الاقتصاد الأمريكي والعجز في الميزان التجاري وتراجع الدولار أمام الين الياباني وضعف القدرة التنافسية للسلع الأمريكية في الخارج، بالإضافة إلى مشاكل الاندماج القومي وارتفاع معدلات العنف والجريمة، وهذه المشاكل مجتمعة ستضعف من قدرات الولايات المتحدة وإلى تقوية مركز دول الاتحاد الأوروبي واليابان في النظام الدولي، ويتوقع أنصار هذا الاحتمال قيام علاقات اقتصادية

بين هذه الدول التي ترتبط بشبكة معقدة من الاتصالات والاندماج فيما بينها بحكم انتمائها لمنظومة الرأسمالية العالمية، وقد ينشب صراع وتنافس بينها على اقتسام الأسواق الخارجية ومراكز النفوذ. وسيبقى ذلك رهناً بالتحولات التي تطرأ على القوى الفاعلة في النظام العالمي.

أما أهداف النظام العالمي الجديد فتتلخص بالتالي:

١-تدعيم الليبرالية السياسية والاقتصادية وإشاعة الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.

٢-احترام الشرعية الدولية، وتدعيم دور الأمم المتحدة في فض النزاعات الدولية.

٣-تحقيق التوازن بين القيم الروحية والقيم المادية، والتسامح الثقافي.

٤-تحقيق الاستقرار الدولي والأمن العالمي من خلال نزع السلاح والحد من سباق التسلح. والاعتماد المتبادل والأمن الجماعي وحل المنازعات بالطرق السلمية.

٥-تطبيق قوانين اقتصاد السوق وحماية البيئة من التلوث ومكافحة الارهاب.

إن الأهداف التي ينتظر من النظام العالمي الجديد تحقيقها، جميلة في مظهرها مقنعة في مراميها ولكنها تنطوي على مضامين نسبية، فالموقف الواحد بالنسبة للولايات المتّحدة يحتمل أكثر من تفسير وتستثمره في الاتجاه الذي يؤمن لها السيطرة على العالم، ففي حالات معينة تتمسك ببعض الأهداف وفي حالات أخرى تتخلى عن بعضها الآخر بل وتمارس نقيضها.

ثالثاً ـ خصائص النظام العالمي الجديد

بدأت في تسعينات هذا القرن تتوضح تدريجياً خصائص النظام العالمي الجديد والتي تتمثل بالتالي:

١ـ اختلال النظام العالمي وهيمنة القطب الواحد:

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي لأسباب أيديولوجية واقتصادية وعسكرية اختل التوازن الدولي، وحلّت الأحادية محل الثنائية القطبية التي كان يتربع عليها النظام الدولي. إذ أخذت الولايات المتحدة تسعى لإعادة صياغة العالم وفق المقاييس الأمريكية، والتي تعّد نفسها اليوم مسؤولة عن العالم بأسره، وترى من حقها السيطرة عليه وتسخيره في خدمة مصالحها، فهي تعيش حالة «عقدة التفوق الأمريكي» على بقية الشعوب وتروج لما يسمى بالعصر الأمريكي، وكل دولة تخرج عن طوع الولايات المتحدة تكون موضع شك، وربما تُتهم بالإرهاب والمساس بحقوق الإنسان، ومن ثم تجيز لنفسها التدخل بشؤون الدول الأخرى، وتأخذ على عاتقها إدارة الأزمات الدولية والإقليمية وفي هذا المنحى يرى «كراي ثامّر» بأن عالم اليوم عالماً متعدد الأقطاب بل عالم القطب الواحد ويعتقد بأن دور القوى الغربية لا يتعدى تنفيذ التوجهات الأمريكية. فالولايات المتحدة تتمتع بالقدرة التي تمكنها من القيام بدور حاسم في أي صراع تختار أن تشارك فيه وبإمكانها بالاعتماد على قوتها أن ترسي قواعد النظام العالمي...، كذلك صرح بعض المسؤولين الأمريكيين بأن على الولايات المتحدة تقع مسؤولية المحافظة على الاستقرار الدولي وقيادة التحرك الدولي نحو تحقيق الديمقراطية...(٥) ولكن هل بمقدور القطب الواحد أن ينظم العالم بما يحقق مصالح الجميع؟ والإجابة ستكون بالنفي، لأن الولايات المتحدة غير قادرة على التأثير في جميع التفاعلات الدولية وأن تملي الترتيبات السياسية والاقتصادية على مستوى العالم بمفردها.

إن رؤية الولايات المتحدة للنظام العالمي تتسم بعدم الوضوح والاضطراب، وهذا ما أظهرته الوثيقة التي صدرت عن «البنتاغون» حول الإستراتيجية الأمريكية في عقد التسعينات والتي تضمنت ما يلي:(٦)

- أكدت الوثيقة على دور الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة في العالم، والحيلولة دون تمكين قوى أخرى على منافستها على هذه المكانة وبخاصة ألمانيا واليابان.

- ضرورة احتكار الولايات المتحدة للتفوق العسكري والنووي في العالم مع الاحتفاظ بقوات أمريكية في المراكز المتقدمة في أوروبة وأفريقية وآسية والخليج العربي والشرق الأوسط.
- استخدام القوة العسكرية عند الضرورة لتصفية أسلحة الدمار الشامل في دول مثل: العراق، كورية الشمالية، أعضاء رابطة الدول المستقلة، الهند، الباكستان.
- خلق ترتيبات أمن أوروبية في إطار الاطلنطي، وعدم السماح لأوروبة بالاستقلال في مجال الأمن.

لقد وجهت العديد من الدول انتقادات لاذعة لهذه الوثيقة التي تعكس بحق سياسية الغطرسة الأمريكية، وقد ردت عليها كل من فرنسا وألمانيا بتشكيل فيلق مشترك ليشكل النواة لقيام الجيش الأوروبي الموحد، بيد أن الولايات المتحدة بعد أحداث «لوس أنجلس» أصدرت وثيقة جديدة تخلت بموجبها عن مشروعها للهيمنة العسكرية على العالم والتزمت بموجبها بالعمل العسكري الجماعي، بالإضافة إلى تخفيض إنفاقها العسكري.

وتخلت أيضاً عن معارضتها لكل من ألمانية واليابان لتصبح كلاهما القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية الأولى في منطقتها، كذلك أكدت الوثيقة على الدور القيادي للولايات المتحدة في الردع الإستراتيجي والتحالفات الإقليمية.

أما مذهب كلينتون فيقوم على مبدأ التدخل المحدود أي التدخل الانتقائي والذي يميز بين ما هو حيوي وغير حيوي للولايات المتحدة. في حال إرسال قوات أمريكية لإغراض عسكرية أو إنسانية في مناطق معينة من العالم، وذلك بعد أخذ موافقة «الكونغرس» الأمريكي.

إن الأحادية القطبية لا يمكن أن تستمر طويلاً، حيث أخذت تصطدم بظاهرة صراع المصالح السياسية والاقتصادية بين الولايات المتحدة من جهة وبين مجموعة من الأقطاب الدولية التي في طريقها إلى التبلور ومنها دول الاتحاد الأوروبي، اليابان، الصين، دول النمور الآسيوية. وحالة الاستقطاب الدولي لا يمكن أن تعمر إلى ما لانهاية، فإذا كان النظام العالمي الذي كان يتربع على قطبين لم يدم فترة طويلة، لأن الدول الأخرى رفضت الرضوخ للقوتين الأعظم، ولهذا من غير المنطقي أن يستقر النظام العالمي الجديد في حالة اللاتوازن، فهو مهدد بالانهيار في أي وقت، لأنه حتى حلفاء الولايات المتحدة لا يقبلون أن يكونوا دولاً من الدرجة الثانية، ويرفضون أن تمس سيادتهم الوطنية والإقليمية، فلا يمكن للشعوب أن تتنازل عن حريتها واستقلالها، والعالم أكبر من أن يخضع لإرادة القطب الواحد.

ويشكك بعض الباحثين في قدرة الولايات المتحدة في التفرد بالنظام العالمي لعدة اعتبارات منها:

أ ـ الإختناقات الاقتصادية: والتي تتمثل بالعجز في ميزان المدفوعات، والتضخم والركود الاقتصادي وتدني إنتاجية العمل، فضلاً عن ضعف قدرة الولايات المتحدة على المنافسة في الأسواق الداخلية بالإضافة إلى زيادة تمركز الثروة بأيدي قلة من الناس مما عمق من حالة الاستقطاب الاجتماعي. وبهذا الصدد أشار «كلينتون» «إذا لم نكن أقوياء في الداخل فلا يمكننا أن نقود العالم الذي فعلنا الكثير لصنعه».

ب ـ التخبط الذي تعيشه الولايات المتحدة بين انشداداتها للداخل وتطلعاتها للخارج. وفي هذا المنحى أشار «هنري كيسنجر». «أنه في الوقت الذي تود فيه الإدارة الأمريكية تركيز جهودها على إعادة الهيكلة الداخلية، فإنها تعيش في مرحلة فوضى دولية كبرى يصعب بالتالي تلافي التدخل فيها».

ج ــ عجز النموذج الأمريكي بأبعاده السياسية والمجتمعية عن جذب الدول الأخرى. فالعصر الأمريكي وما ينطوي عليه من ثقافة ونمط استهلاكي أمريكي لا تستطيع أن تهضمه كل المجتمعات، بل وهناك مجتمعات ترفضه شكلاً ومضموناً.

د ــ يتعذر الاعتماد على القوة العسكرية والنووية وحدها والتي تتفوق بها الولايات المتحدة على بقية دول المعمورة، من أن تؤهلها لأن تلعب دور القطب الواحد في المدى المنظور.

وانطلاقاً من هذه الاعتبارات وغيرها نعتقد بأن التعددية القطبية هي التي ستسيطر على النظام العالمي، وهي تختلف من حيث الجوهر عن تعدد القوى في الماضي التي كانت تنطوي على إمكانات اندلاع الحروب بين الدول الكبرى، في حين تعدّد القوى اليوم تشكل مجتمعاً أمنياً تتلاشى في ظله احتمالات نشوب الحرب، لأن قواعد اللعبة السياسية تبدلت جذرياً عما سبقها.

٢ـ ازدواجية المعايير الدولية:

تعتمد الولايات المتحدة سياسة الكيل بمكيالين في تعاملها مع الدول الأخرى، فالموقف الواحد يحتمل أكثر من تفسير وفق المقاييس الأمريكية، هنا عدلاً وهناك جوراً هنا مسموح وهناك ممنوعاً، هنا أبيض وهناك أسود، مستخدمة في ذلك آلتها الإعلامية الرهيبة وقوتها العسكرية الضاربة. لقد صورت الإدارة الأمريكية الصراع في الماضي على أنه صراعٌ بين الرأسمالية والشيوعية، بين الديمقّراطية والدكتاتورية، بين الحرية والعبودية، وعندما انهارت الشيوعية اجتهدت دوائرها الإيديولوجية لتصور إرهاب الدولة دفاعاً عن النفس، ونضال الشعوب من أجل نيل حريتها واستقلالها إرهاباً، وفي الوقت الذي تتمسك فيه بالديمقراطية تدعم بعض الأنظمة الدكتاتورية في العالم، وفي الوقت الذي تنادي فيه باحترام حقوق الإنسان، تنتهك هذه الحقوق حتى في داخل الولايات المتحدة. فهي لا تتورع عن ممارسة أقسى أساليب التمييز العرقي

والعنصري، وفي الوقت الذي تدعو فيه إلى تدمير أسلحة الدمار الشامل وتصفية الأسلحة النووية والجرثومية، فإنها تجوب بأساطيلها البحار والمحيطات لتشيع الرعب والدمار في العالم. فالإدارة الأمريكية لا تجد حرجاً من تطبيق سياسة «الكيل بمكيالين» ما تجيزه لإسرائيل تحجبه عن العرب، فاضطهاد إسرائيل لعرب الأراضي المحتلة تعده دفاعاً عن النفس، وتصدي المقاومة للمحتل الإسرائيلي تعده إرهاباً، ومن المفارقات أيضاً أنها تساند بعض الحركات الأصولية، وتعادي بعضها الآخر وتتهمها بالإرهاب، وتدعم الأقليات في دولة وتدينها في دولة أخرى، وكل ذلك يجري تحت غطاء «الشرعية الدولية»، على الرغم من تأكيد الرئيس الأمريكي الأسبق «جورج بوش» على ضرورة إرساء نظام دولي جديد يقوم على الالتزام بقواعد الشرعية الدولية واحترام القانون الدولي، ومبدأ الأمن الجماعي، وتوفير ضمانات الحرية والديمقراطية والتنمية وحقوق الإنسان، وحل المنازعات بالطرق السلمية.. الخ[٧] وبالطبع ما جاء على لسان الرئيس «بوش» مجرد تسويق إعلامي وتضليل للرأي العام العالمي، وحقيقة الأمر غير ذلك، إذ أشار أحد الباحثين إلى ذلك بقوله: «إن تعبير النظام العالمي الجديد هو وهم آخر مفتعل، فالتعبير في حقيقته يطابق حالة سيطرة حلف أحادي، أوروبي ـ أمريكي، على مجريات اتخاذ القرار بشكل انتقائي، وتطبيقه بشكل انتقائي في الهيئة الدولية».

إن النظام العالمي الجديد يسوق تحت شعارات براقة زائفة، مثل سيادة الشرعية الدولية والالتزام بتطبيق القانون الدولي، وفي حقيقة الأمر ما هو إلا خداع سياسي لإضفاء مسحة أخلاقية على النظام العالمي الجديد، بهدف التغطية على مراميه الحقيقية التي تخدم في المحصلة مصالح القوى المهيمنة على هذا النظام، والذي هو من حيث الجوهر نظام إمبريالي يستهدف السيطرة على دول الجنوب والتدخل في شؤونها الداخلية، ونهب خيراتها وثرواتها، ومن ثم فهو نظام عدواني يعتمد القوة العسكرية كأداة لتحقيق أهدافه.

فالشرعية الدولية تطبق في حالات استثنائية، كما حصل في حرب الخليج الثانية، عندما أصدر مجلس الأمن سلسلة من القرارات بحق العراق أثناء اجتياحه لدولة الكويت، وتجسد هذه القرارات الشرعية الدولية، ولكن سرعان ما برزت بعد ذلك العديد من السلبيات، حيث أضحت الولايات المتحدة المحرك الرئيسي للمنظمة الدولية، والتي وظفت قراراتها في خدمة المصالح الأمريكية من خلال ما يلي:

أ ــ تفعيل دور مجلس الأمن على حساب الجمعية العامة للأمم المتحدة، حيث أخذت الولايات المتحدة في ظل غياب الفيتو السوفيتي ــ توظف مجلس الأمن في خدمة مصالحها، وبتلك الطريقة استطاعت أن توظف (الشرعية) الدولية في صالح الإدارة الأمريكية.

ب ــ تطبيق الشرعية الدولية بصفة انتقائية. فقد تم تطبيقها بشكل صارم إبان حرب الخليج الثانية وأثناء أزمة (لوكربي)، عندما اتهمت الدول الثلاث الولايات المتحدة ــ فرنسة ــ بريطانية ــ الجماهيرية الليبية بتفجير طائرة ركاب فوق سماء لوكربي عام ١٩٨٨، وطائرة فرنسية في أجواء النيجر عام ١٩٨٩، وتم تطبيق الشرعية الدولية في الصومال، في حين لم تطبق الشرعية الدولية بخصوص الصراع العربي ــ الصهيوني. فالعدو الإسرائيلي يتحدى بشكل سافر قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة، وينتهك حقوق الإنسان في الأراضي العربية المحتلة. ومن الملفت للنظر تم تغييب دور الأمم المتحدة عن محادثات السلام التي انطلقت من قمة مدريد لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي.

ج ــ أجازت (المحكمة العليا) في الولايات المتحدة في حزيران عام ١٩٩٢ باسم الشرعية الدولية للحكومة الأمريكية اختطاف مواطني الدول الأخرى المشتبه فيهم وتقديمهم للمحاكمة في الولايات المتحدة، ويعد ذلك انتهاكاً صارخاً لقواعد القانون الدولي، فضلاً عن كونه يجيز استخدام القوة ضد الدول التي يراد

القبض على مواطنيها لمحاكمتهم، مثلما حصل أثناء غزو غرينادا، واعتقال الرئيس (نوريغا)، وهي سابقة تشجع بعض الدول لاقتفاء أثر الولايات المتحدة بهذا الخصوص، مما يعرض النظام العالمي لعدم الاستقرار.

وهكذا أضحت الشرعية الدولية رهينة بالمصالح العليا للولايات المتحدة في المقام الأول. والتي أعطت لنفسها من الامتيازات ما لم تعطه قوة عظمى لنفسها في التاريخ، علماً بأن الإدارة الأمريكية تدعي بأن النظام العالمي الجديد يعد أفضل ما توصلت إليه البشرية في العصر الحديث، لأنه خلّص العالم من دوامة الصراع بين القوى الكبرى والتي كانت تشغل العالم عن ترتيب مصالحه الحيوية. مع أن النظام العالمي الجديد يفتقد إلى الحياد والنزاهة.

٣ـ الشراكة بدلاً من المواجهة:

إن الاعتماد المتبادل وإدراك الحاجة للتعاون يمكن أن يشيع الأمن والسلام في العالم، ويؤدي إلى استقرار النظام العالمي. وقد طرحت الولايات المتحدة بعد انحسار الحرب الباردة شعار «الوفاق بدلاً من المواجهة». فاكتسب الصراع بين الدول الكبرى أبعاداً جديدة تمثلت في صراع الحضارات والثقافات والاقتصاد والتكنولوجيا، ولكن مبدأ الشراكة والتحالفات الإقليمية على أسس الاعتماد المتبادل لا ينهي ولا يلغي التناقضات بين الدول الكبرى، وإنما قد يخفف من حدتها، وفي ظله، قد يتحول أعداء الأمس إلى أصدقاء طالما لا تتعرض المصالح الاقتصادية والسياسية للخطر. ففي الوقت الذي استكانت فيه بعض الدول وانسحبت مهزومة من ساحة الصراع، فإن الدول الكبيرة لا ترضخ ولا تستكين، حتى ولو قامت بينها شراكة في صورة تعاون اقتصادي وتجاري وعسكري، ويبقى الصراع قائماً بينها تحت الرماد إلى حين، ثم يتفجر بعد أن تنضج ظروفه الموضوعية والذاتية، فأوروبة الموحدة واليابان والصين لا تقبل بقيام الإمبراطورية الأمريكية، وليس بالضرورة أن تتطابق مصالحها مع مصالح الولايات

المتحدة، فإذا التقت مصالح الدول الرأسمالية في الماضي من أجل مواجهة الخطر الشيوعي، وبعد تلاشي هذا الخطر، فإن دول الاتحاد الأوروبي واليابان لن تقف موقف المتفرج إزاء ما تعبث به الولايات المتحدة في مقدرات النظام العالمي.

إن الاعتماد المتبادل لا يقتصر على زيادة حجم المبادلات التجارية، ولا على تعزيز الاتصالات بين الدول المعنية، وإنما يتخطاه إلى مجالات أخرى تتصل باستخدام الموارد الاقتصادية، وحماية البيئة من التلوث، ومكافحة الإرهاب...الخ، ومثل هذه القضايا الساخنة لا يمكن مجابهتها بالاعتماد على جهود دولة واحدة مهما بلغت قدراتها. مما يملي وجود مؤسسات متخصصة على الصعيدين الإقليمي والدولي من أجل التصدي لها وتطويقها.

وفي ظل مبدأ الاعتماد المتبادل لم يعد بالإمكان استخدام القدرات العسكرية في توجيه العلاقات الدولية في الاتجاه المرغوب به، حيث توجد قدرات اكثر تأثيراً في السيطرة على مجرى الأحداث الدولية، ومنها معدلات النمو الاقتصادي، والثقافة والإيديولوجيا والتي لا يمكن التقليل من أهميتها ودورها في تحديد الأولويات السياسية للدول الفاعلة في مسار النظام العالمي الجديد.

ويشكّك بعض الباحثين في قدرة الشراكة والاعتماد المتبادل في السيطرة على الأسواق العالمية والإنتاج العالمي، وشبكة الاتصالات المعقدة وتغييرها لأنها تتطلب تكاليف باهظة، في حين يعول البعض الآخر أهمية كبيرة على الشراكة لأن العالم المعاصر في طريقه إلى العولمة السياسية والاقتصادية، إلى درجة لا يمكن لأطراف النظام العالمي الجديد إلا أن تعتمد على بعضها بعضاً في مواجهة التحديات التي تعترض هذا النظام. وأن وجود التكتلات الاقتصادية يسهل كثيراً من إبرام الاتفاقات التي تتعلق بقضايا الأمن والبيئة والاقتصاد العالمي، وإبرام هذه الاتفاقات بين عدد محدود من التكتلات أسهل بكثير من إمكانية إبرامها بين حوالي (١٧٠) دولة منفردة...

ـ تهميش حركات التحرر الوطني وانبعاث الحركات الأصولية:

قُدّر لحركات التحرر الوطني: في الماضي القريب أن تطيح بنظام المستعمرات الاستعماري وتنتزع الاستقلال السياسي لدولها، عن جدارة واقتدار، ولكن بعضها أخفق في تتويج الاستقلال السياسي بالتحرر الاقتصادي، وتعذر عليها لأسباب كثيرة إنجاز عملية العبور الكبير من التخلف والتبعية إلى التقدم والتنمية، وقد بقيت دول الجنوب وبدرجات متفاوتة أسيرة التبعية الاقتصادية لمنظومة الرأسمالية العالمية، واستمرت بمثابة أطراف «تخوم» تغذي دول «المركز» وتمدها بالمواد الأولية والحاصلات الزراعية، وسوقاً لتصريف منتجاتها الصناعية كذلك تعذر على معظم حركات التحرر الوطني: من حل المشاكل الاقتصادية الخانقة التي تعاني منها دولها مثل: المديونية والتضخم والبطالة والركود، والوعود التي قطعتها على نفسها في تحسين المستوى المعاشي للمواطنين من خلال إعادة توزيع الدخل الوطني توزيعاً عادلاً بين المواطنين، وطموحاتها في تحقيق الاندماج القومي والوحدات القومية لم يتحقق منها إلا النذر اليسير، والنتيجة كانت مخيبة للآمال، فسادت حالة من اليأس والإحباط، واهتزت ثقة الناس بها، فحصل فراغ سياسي، سرعان ما قدمت نفسها لتعبئة الأحزاب الدينية والأصولية، مستغلة مناخ الرفض للشعارات التي أخفقت بعض حركات التحرر الوطني في تجسيدها على أرض الواقع لأسباب موضوعية تتصل بفقدان ظهيرها الاتحاد السوفيتي وبروز ظاهرة القطب الواحد، ولأسباب ذاتية تتعلق بعدم قدرتها على تطوير نفسها بما يتماشى والمتغيرات السياسية والاقتصادية المستجدة، فحصل بذلك فراغ في الساحة السياسية، حاولت بعض الأحزاب الدينية والأصولية استثماره، عندما طرحت نفسها كبديل لتحقيق ما عجز الآخرون عن تحقيقه.

لقد طرحت بعض الأحزاب الدينية والتيارات الأصولية تصورات للتعامل مع النظام العالمي الجديد تتمثل بالتالي:

أ ـ إحياء المشروع الحضاري الإسلامي بوصفه بديلاً للنموذج الحضاري الغربي وترشيد حركة الإحياء الإسلامي.

ب ـ وضع الشريعة الإسلامية موضع التطبيق العملي في الدول الإسلامية.

ج ـ مقاطعة النظم الاستبدادية والعميلة في البلدان الإسلامية ومجابهة أمم الكفر والضلال والجهاد ضدها.

د ـ إقامة سوق اقتصادية إسلامية مشتركة وقد تجلت بدعوة «أربكان» رئيس وزراء تركية لما تشكله هذه التصورات أسساً للعزة والكرامة في التعامل الدولي ـ برأي الأحزاب الدينية ـ وبمثابة منطلقات لمواجهة صور السيطرة والهيمنة والاستغلال، فضلاً عن تطويق المفرزات السلبية للنظام العالمي الجديد على الإسلام. [٨]

وهذا يعني بأن النظام العالمي الجديد مرفوض من التيارات الإسلامية لأنه ـ برأيهم ـ يناصب الإسلام العداء، ويمثل تحدياً صليبياً جديداً للإسلام. ومن أجل مواجهة تحديات النظام العالمي الجديد، تطالب بعض القوى الإسلامية بالتحالف مع بعض الأحزاب والحركات الوطنية والقومية بالتصدي للمخاطر التي تستهدف العرب والمسلمين. من قبل النظام الدولي الجديد.

وفي الوقت نفسه تتحدث بعض الأوساط الغربية عن مواجهة العدو البديل، إشارة إلى الإسلام بوصفه هذا العدو[٩] مما خلق ردود فعل غاضبة في العالم الإسلامي، ومن هنا جاء طرح بعض الأحزاب والتيارات الدينية للإسلام كبديل حضاري عالمي، ومن بين هذه التيارات من يرفض حضارة الغرب جملة وتفصيلاً، بالإضافة إلى رفضه لبعض النظم الحاكمة في الدول الإسلامية.

وفي واقع الحال يمثل الإسلام والقومية وبدرجات متفاوتة نداً للطرح الأمريكي الذي يعد قيم الحضارة الغربية بمثابة الإطار المرجعي الوحيد للعالم، في حين ترفضه المجتمعات العربية والإسلامية، وتعد هذه الدعوة عدواناً صارخاً على الخصوصية القومية.

إن الأحزاب الدينية والتيارات الأصولية لا يمكن أن نضعها في سلة واحدة، فمواقفها متباينة وبرامجها متضاربة سواء على المستوى المحلي أو العالمي، إذ أعلنت بعض هذه الأحزاب عداءها السافر للولايات المتحدة، وبعضها الآخر تبنى مشاريع اقتصادية واجتماعية طموحة على المستوى المحلي، ويتعامل بعقلانية مع الأوضاع الدولية السائدة كالثورة الإيرانية مثلاً، وهناك أحزاب دينية أعلنت الجهاد ضد الاستعمار وتقاوم الاحتلال بكل إمكاناتها مثل «حماس» و «الجهاد الإسلامي» في الأراضي المحتلة، وفصائل المقاومة في جنوب لبنان وهناك أحزاب دينية لا يجمعها جامع بالإسلام وتتخذ منه ستاراً لتنفيذ مخططاتها المشبوهة، حيث تعتمد أسلوب القتل بالجملة للمواطنين الأبرياء، وترفع لواء الإرهاب، وتريد العودة بالبلاد إلى عصور القرون الوسطى كما يحصل في الجزائر ومصر، والصومال...الخ.

وبطبيعة الحال لا يعني تراجع حركات التحرر الوطني في الوقت الراهن اندثارها إلى غير رجعة. فقد تنبعث من جديد بثوب جديد ومضامين جديدة تستوعب ما فاتها وتهضم المتغيرات السياسية والاقتصادية الراهنة، بعد مراجعة نقدية وموضوعية لأوجه التقصير والمطبات التي وقعت بها دون أن تتخلى عن ثوابتها النضالية ومنطلقاتها الوطنية والقومية.

وكذلك فإن تراجع حركات التحرر الوطني بعد انهيار الاتحاد السوفيتي إلى الصفوف الخلفية وانبعاث الحركات الأصولية والدينية لا يعني أن منظومة الرأسمالية العالمية قد انتصرت بصورة نهائية، فالدول الرأسمالية تواجه مشاكل حادة، واكتسب التنافس فيما بينها طابعاً حدياً، فضلاً عن بروز التحديات الإيديولوجية ذات الطابع الديني والقومي، وذلك كردود فعل لسياسة إضفاء الطابع العالمي على الإيديولوجية البرجوازية التي ظهرت وتبلورت في سياق التاريخ على المستوى الاقتصادي وعلى المستوى السياسي، فضلاً عن انتشار القيم الثقافية الغربية، ومحاولات تصدير المجتمع الاستهلاكي الغربي إلى دول الجنوب.. فالولايات المتحدة تعمل ما بوسعها لتسويق

النمط الاستهلاكي الأمريكي إلى الدول الأخرى من خـــلال ـ الجيـــنز والكوكـــاكولا والهمبرغر الأمريكي...الخ.

رابعاً ـ موقع الدول في النظام العالمي الجديد

تتفاوت مواقع الدول ومكانتها في النظام العالمي الجديد، من حيث فاعليتها وتفاعلها مع هذا النظام والتي يمكن رصدها من خلال ما يلي:

١ـ دول الاتحاد الأوروبي والنظام العالمي الجديد:

تطمح دول الاتحاد الأوروبي للمساهمة في صياغة النظام العالمي الجديـــد، وتحديـــد أهدافه بما يعزز الأمن الأوروبي، وقد يبدو هذا الطموح مشروعاً وواقعياً لأن أوروبـــة الموحدة تركن إلى مخزون حضاري وقدرات بشرية وتكنولوجية تؤهلها لأن تكون نداً للولايات المتحدة، فالمصالح الحيوية للاتحاد الأوروبي، قد لا تتعايش بالضرورة مـــع المصالح الحيوية للولايات المتحدة، وربما تتعارض معها، سيما فيما يتعلق بالســـيطرة على المواد الخام ومصادر الطاقة في العالم، والتي وجدت تعبيراً لـــها فـــي صـــورة حروب تجارية مع الولايات المتحدة منها ما هو خفي ومنها ما هو معلـــن، تســـتهدف إقامة علاقات متكافئة مع الولايات المتحدة.

لقد نجحت الجماعة الأوروبية في إقامة أكبر منطقة تجارة حرة، وبانضمام «الأفتـــا» بدولها السبع والتي أخذت تسهم بـــ ٤٦% من التجارة الدوليـــة، وهـــي علـــى أهبـــة الاستعداد لاستقبال أعضاء جدد بشكل تدريجي، وقـــد تشـــمل مســـتقبلاً دول القـــارة الأوروبية كافة، وإن كان هذا لا يعني بالضرورة أن تقبل جميعها في عضوية الاتحـــاد الأوروبي.

وقد أفضى غياب عدو الأمس الاتحاد السوفيتي الـــذي كـــان يضطـــر دول الاتحـــاد الأوروبي للتحالف مع الولايات المتحدة إلى تغيير قواعد اللعبة السياسية، حيث حـــل

التنافس الاقتصادي محل التعاون الإستراتيجي، الأمر الذي ينذر بقيام حرب من نوع جديد، هي الحرب الاقتصادية الباردة، والتي تقف خلفها الحواجز الجمركية، وإشكالات السياسة الزراعية، على الرغم من الاتفاق الأخير بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي، وكل هذه القضايا وغيرها تدفع بكل طرف لأن يحصن مواقعه الإقليمية ويتمترس خلفها. وقد يشتد الصراع أكثر فأكثر بين الطرفين من أجل اقتسام الأسواق ومناطق النفوذ الاقتصادية في دول الجنوب. وعلى الرغم من توافر بعض عناصر القدرة والقوة، فإن الجماعة الاوروبية لا تمتلك منفردة جميع عناصر القوة التي تؤهلها لأن تكون فاعلة في النظام العالمي أو أن تتزعم قيادة العالم بمفردها، وفي الوقت الذي تحتل فيه الجماعة الأوروبية موقعاً تجارياً وصناعياً وتكنولوجياً متميزاً فإنها تفتقر إلى الرؤية السياسية الخارجية الموحدة، فدول الاتحاد الأوروبي غير متفقة على معظم القضايا الإقليمية الساخنة في العالم. فضلاً عن بعض الصراعات التي تعاني منها ذات النزعة القومية، كما هو حاصل في أيرلندة، أسبانية، بلجيكة.. الخ.

ولكن على الرغم من وجود شراكة بين الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي، فإن الأمر قد ينطوي في الوقت نفسه على وجود صراع قد يتفجر في أي وقت بين الأطراف التي تأخذ بصيغة الاعتماد المتبادل، سيما وأن دول الاتحاد الأوروبي لم تعد بحاجة إلى مظلة الأمن الأمريكية بعد انتهاء الحرب الباردة. ولكن حرب الخليج الثانية أظهرت محدودية قدرة الجماعة الأوروبية على ممارسة دور دولي مستقل على صعيد السياسة الخارجية، وذلك نتيجة للخلافات فيما بينها من جهة، ونتيجة للقيود التي فرضتها الولايات المتحدة على الدول الأوروبية من جهة أخرى.

٢ـ اليابان والنظام العالمي الجديد:

تسعى اليابان بدورها إلى احتلال موقع مؤثر في مسار النظام العالمي الجديد يتناسب وقدراتها الاقتصادية التي لا يستهان بها، ومنذ عدة سنوات تدور بينها وبين الولايات

المتحدة حروب تجارية على غاية من الخطورة، تضغط باتجاه إقامة علاقات اقتصادية متكافئة مع الولايات المتحدة ومما تجدر ملاحظته بأن معظم واردات اليابان من الولايات المت هي من المنتجات الغذائية والمواد الأولية في حين تستورد الولايات المتحدة من اليابان التجهيزات الصناعية والإلكترونية والتكنولوجيا الطليعية الأمر الذي يكسب اليابان قوة أكبر في مواجهة الولايات المتحدة.

ومن هذا المنطلق تبحث اليابان عن دور لها في صياغة النظام العالمي الجديد يتناسب ومكانتها كعملاق اقتصادي، معتمدة في ذلك على الدبلوماسية الاقتصادية في ترتيب العلاقات الدولية. وتضغط المؤسسات الحاكمة في اليابان باتجاه التخلي عن السير خلف الولايات المتحدة ومساندتها في إدارة الأزمات الدولية وتطالب الأوساط الحاكمة تبني سياسية سلمية نشطة وإيجابية على المستوى الدولي.

لقد ورد في تقرير «أوزاوا» (نسبة إلى الأمين العام للحزب الحاكم) ضرورة تعديل المادة التاسعة من الدستور من أجل السماح للقوات اليابانية للمشاركة في عمليات حفظ السلام الدولية والبحث عن دور دولي لليابان دون التخوف من الاتهام بإعادة عسكرة المجتمع الياباني، وبهذا الصدد يقول: «ياسوهيروناكا سون» رئيس وزراء اليابان الأسبق (أن علينا أن نتخطى العوائق القانونية ونهيئ للاشتراك في الجهود الدولية المستقبلية للحفاظ على السلام.

كذلك تطمح اليابان لأن تصبح عضواً دائماً في مجلس الأمن حتى تسهم في صياغة القرارات الدولية، وتسعى إلى تسويق ثقافتها ونمطها الاستهلاكي خارج المفهوم الأوروبي، فضلاً عن مساعيها للتوفيق بين الأصالة والمعاصرة، بما يعلي من شأن الجماعة على حساب الفرد.

وعمدت اليابان إلى توثيق علاقاتها الاقتصادية مع دول النمور الأربعة والدول الواقعة في محيطها المباشر، وهذا ما تظهره معطيات الاستثمارات اليابانية في هذه الدول الأمر الذي يثير حفيظة الدول الغربية ولاسيما الولايات المتحدة.

ولكن كلما حاولت اليابان تخطي عقدة المكان المتمثلة بصغر المساحة والبعد الجغرافي بالتركيز على التكنولوجيا الطليعية الهجومية، فإنها تواجه صعوبات باتجـاه تسـويق ثورتها الفكرية والثقافية والتي تصطدم بمعوقات تتعلق بعدم إقبال بعض المجتمعـات عليها بما فيه الكفاية، وإن كان النموذج الياباني للتنمية يشكل مصدر جذب للعديد مـن المجتمعات، بفضل الدور النشط الذي تلعبه في العالم كدولة مانحة للمساعدات، ممـا يمكنها من إقامة علاقات اقتصادية متينة مع العديد من دول المعمورة.

كذلك تصطدم طموحات اليابان على المستوى الدولي، بضعـف قدراتـها العسـكرية والنووية غير المسموح بإنتاجها وهناك قيودٌ دستورية على إنفاقها الدفاعي، يقلل مـن قدراتها قياساً بالولايات المتحدة. وإن كانت ليست بحاجة إلى مظلة الحماية الأمريكيـة بعد زوال الخطر السوفيتي المزعوم.

٢ـ الصين والنظام العالمي الجديد:

يتوقع معظم الباحثين بأن المارد الصيني سينطلق من قمقمه عما قريب وبقـوة إلـى الساحة الدولية، فالإصلاحات الاقتصادية والإدارية والمالية التي اختطتها منـذ عـدة سنوات باتجاه تطبيق قوانين اقتصاد السوق الاشتراكي أهلتها لأن تكيف نفسـها مـع المتغيرات السياسية والاقتصادية الدوليـة، دون أن تفـرط بالثـابت مـن المبـادئ والمعتقدات، وقد مكنتها السياسية الاقتصادية الجديدة من أن تحقق أعلى معدلات نمـو في العالم تصل في المتوسط إلى ١١% سنوياً، فضلاً إلى اتجاه الصين نحو تحديـث وعصرنة التكنولوجيا بطريق النسخ والتقليد والابتكار.

إن القدرات البشرية للصين التي تصل إلى ١٢٥٠ مليون نسـمة، ومسـاحتها التـي تتجاوز (١٠) مليون كم٢، بالإضافة إلى إمكاناتها الصناعية والزراعية والتكنولوجيـة، وما تزخر به من موارد طبيعية هائلة، وقدراتها العسكرية والنووية تجعل منـها قـوة فاعلة، لن تقف على قارعة الطريق تتفرج عما يجري حولها فـي العـالم، فـالصين

الشعبية تطمح اليوم وغداً في أن يكون لها دوراً نشطاً في رسم ملامح النظام العالمي الجديد، سيما وأنها تمتلك العضوية الدائمة في الأمم المتحدة.

لقد ذهب البعض إلى وصف النظام في الصين «بالرأسمالية الكلية» للدلالة على المتغيرات السياسية والاقتصادية التي حصلت فيها، سواء من حيث التخلي عن التخطيط المركزي باتجاه إقامة «جزر الاقتصاد الحر» المتمثلة في إحداث أكثر من (١٢) منطقة استثمار حرة للتنمية الإقتصادية وإعادة النظر في أسس الاقتصاد الاشتراكي مستفيدة من التجربة المغدورة في الاتحاد السوفيتي سابقاً وذلك بتبني ما يسمى «باشتراكية السوق»، والتي تجمع بين مزايا الاشتراكية ومزايا الاقتصاد الحر ونبذ عيوب كلاهما، مع الاحتفاظ بالدور القيادي للقطاع العام الذي لا يزال قوياً، علماً بأن بعض الباحثين يشكك بالخطوات الأخيرة التي أقدمت عليها الصين كونها تنطوي برأيهم ـ على المزيد من التناقضات التي قد تتفجر مستقبلاً. وعلى الرغم من اهتمام القيادات الحزبية والحكومية بترتيب أوضاع البيت الصيني، فإنها تولي أهمية خاصة لمشاركتها في صياغة النظام العالمي الجديد، بما يتناسب ووزنها في العالم من خلال ما يلي:

أ ـ إحداث توازن مع الخارج بإتباع سياسية تهدئة العلاقات مع الدول الأخرى بغية التأثير في ميزان القوى الإقليمي وحفظ استقراره.

ب ـ السعي إلى إرساء علاقات دولية جديدة مع الدول التي كانت ترتبط معها بعلاقات إيديولوجية بالإضافة إلى تعزيز وتنويع علاقاتها الاقتصادية والتجارية مع دول الجنوب على أسس المصالح الاقتصادية المشتركة.

ج ـ التوجه نحو بناء الصين الكبرى التي تضم كل من تايوان، هونغ كونغ وزيادة الاعتماد المتبادل بين هذه الأطراف

د ـ الاستمرار في بناء القوة العسكرية والنووية وتطويرها بالاعتماد على التكنولوجيا العسكرية المدنية، وهذا ما تظهره بعض المعطيات، حيث زاد

إنفاقها العسكري بنسبة ٦٠% منذ عام ١٩٨٨. وفق المعلومات التي أعلنتها المخابرات المركزية الأمريكية، الأمر الذي يشكل مصدر قلق للولايات المتحدة. فالصين بقدراتها الديموغرافية وبإمكاناتها الاقتصادية وبقوتها النووية وعضويتها الدائمة في مجلس الأمن قادرة لأن يكون لها دور فاعل في مسار النظام العالمي وإعادة صياغته من جديد.

ـ دول الجنوب والنظام العالمي الجديد:

تحت يافطة الحرية والديمقراطية والسلام واحترام حقوق الإنسان، تسعى الولايات المتحدة إلى إخضاع دول الجنوب ووضعها تحت هيمنتها السياسية وسيطرتها الاقتصادية، وإذا لم تبادر دول الجنوب للتعاون والتنسيق فيما بينها فإنها مهددة بوجودها القومي ومعرضة لحروب أهلية وطائفية وقبلية وأثنيه. فالنظام العالمي الجديد بصيغته الحالية يسعى إلى تفكيك هذه الدول وتدمير وحدتها الوطنية، فضلاً عن تهميش دورها في الحياة الدولية، ودول الجنوب بإمكاناتها المبعثرة والمشتتة، وبمواقفها المتضاربة إلى درجة التناقض لا تقوى على مواجهة المتغيرات الدولية العاصفة، ولا تستطيع تغيير مسار النظام العالمي الحالي بما يخدم مصالحها، سيما وأنها غير متفقة على اتخاذ موقف محدد من هذا النظام. فهناك بعض الدول تجد في النظام العالمي القائم، الملاذ في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ومنها من يعد هذا النظام المسؤول عن إفقار الدول الفقيرة وإثراء الدول الغنية، ففي ظله تزداد الدول الفقيرة فقراً والدول الغنية ثراءاً، ومن أجل تفادي السلبيات التي ينطوي عليها النظام العالمي القائم، يفترض أن تعيد دول الجنوب النظر في حساباتها السياسية التي كانت تقوم على عنصر التوازن الدولي والذي اختل باختفاء الاتحاد السوفيتي من الخارطة السياسية، مما يملي عليها أن تتقن قواعد اللعبة السياسية الجديدة، وتبحث عن مصالحها في إطار هذا النظام من خلال نهج طريق التنمية الاقتصادية المتوازنة

والشاملة والمستقلة، والنزوع نحو التكتلات الاقتصادية، وبما يمكنها من مواجهة عملية النهب المنظم لخيراتها وثرواتها من جانب الاحتكارات الوطنية وعبر الوطنية.

وعلى الرغم من أن بعض الدول الآسيوية قد نجحت في إحراز تقدم هائل في مجال التنمية، فإن الغالبية العظمى من بلدان الجنوب لا تزال تفصلها هوة كبيرة عن دول الشمال، مما زاد من حدة التوتر بينهما، والذي وجد تعبيراً له في زيادة العداء لدول الغرب الرأسمالي، وقد فقدت دول الجنوب قدرتها على المناورة في استغلال المنافسة بين القوى العظمى للحصول على موارد ومساعدات من دول الشمال الغنية، ولكن هذا لا يعني أنها لم تعد قادرة على الاستفادة من بعض المزايا الاقتصادية والسياسية، ولكن سلبيات النظام العالمي الجديد أكثر من منافعه لهذه الدول، ومن أبرز هذه السلبيات هي تراجع الأهمية الإستراتيجية لبعض دول الجنوب، بعد أن انتفى الصراع الإيديولوجي بين الشرق والغرب. فلم تعد دول الغرب بحاجة إلى كسب تأييد دول الجنوب ومساندتها. بالاضافة إلى اشتداد الصراع بين بعض دول الجنوب حول قضايا الحدود كالصراع بين أرمينية وأذربيجان، والصراع في البوسنة... الخ، وكذلك انخفاض المساعدات الخارجية لدول الجنوب في ظل انتفاء الدوافع السياسية، وتدهور قدرات دول الجنوب على تحديد مسارها الاقتصادي، في ظل التبعية الاقتصادية وتفاقم مشاكلها الاقتصادية، والتي تتمثل في عدم القدرة على توفير الاحتياجات الأساسية للسكان كما هو الحال في: السودان، والصومال وبنغلادش، فضلاً عن تراجع أسعار المواد الأولية والتي تأثرت بها كل من: زامبية والبيرو، بالإضافة إلى عدم قدرة بعض دول الجنوب على مواجهة الضغوط التي تفرضها المؤسسات الدولية مثل صندوق النقد الدولي. ولهذا ليس هناك ما يدعو للتفاؤل بأن النظام العالمي الجديد سيسهم في حل المشاكل الاقتصادية في هذه الدول، بل هناك من يتوقع بأن وضعها سيزداد سوءاً، إذا ما بقيت الظروف الدولية على وضعها الحالي، ولهذا ترتفع الدعوات التي تطالب بإقامة نظام دولي جديد يحقق قدراً من العدالة في توزيع الموارد والثروات بين دول

الشمال ودول الجنوب، ويسمح بتوظيف موارد هذه الدول من أجل تنميتها وتدعيم قدراتها الذاتية والجماعية.[١٠] ويتوقع بعض الباحثين المزيد من التهميش لدول الجنوب نتيجة لعدم قدراتها على التكيف مع المتغيرات الدولية، ولهذا ستتعمق التناقضات بين دول الشمال ودول الجنوب.[١١] وهذا ما أظهره البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة في منتصف عام ١٩٩٢، والذي ورد فيه بأن ٢٠% من سكان العالم يستحوذون على حوالي ٨٢,٧% من إجمالي دخل العالم، وتستهلك الدول الغنية ٧٠% من الطاقة العالمية و ٨٠% من أخشابه، و ٦٠% من غذائه، في حين ٢٣٠٠ مليون نسمة من البشر يفتقدون خدمات الصرف الصحي و ١٣٠٠ مليون نسمة لا يستطيعون الحصول على مياه الشرب الصالحة، وتتسبب التجارة غير المتكافئة بخسارة تصل إلى ٥٠٠ مليار دولار سنوياً لمعظم دول الجنوب. ونتيجة للأوضاع المعاشية السيئة من معظم هذه الدول، فان النظام العالمي الجديد لن يعرف الأمن والاستقرار طالما أن دول الجنوب تعاني من عدم الاستقرار. وتجدر الإشارة بمكان، أن هناك عوامل ضاغطة على دول الجنوب تحول دون مساهمتها بفاعلية في عملية تشكيل النظام العالمي الجديد، ومن بينها عدم الاتفاق على الأولويات الاستراتيجية بين دول الجنوب، وغياب التنسيق الجماعي بين هذه الدول، بالاضافة إلى الضغوط التي تمارسها الدول الرأسمالية المتطورة على دول الجنوب للحيلولة دون قيام تعاون فعال بينها، فضلاً عن التباين والتفاوت في مستويات التطور الاقتصادي والاجتماعي بين دول الجنوب.

ومن أجل تفعيل دور دول الجنوب في النظام العالمي الجديد، لابد من اتخاذ بعض الخطوات من جانب هذه الدول باتجاه تطبيق الديمقراطية الحقيقية واحترام حقوق الإنسان. وتوظيف منجزات الثورة العلمية التكنولوجية وتوطين معطياتها في جميع مناحي الحياة. بالاضافة إلى التوجه الاندفاعي نحو التصنع المدني. وتعزيز العلاقات الاقتصادية والتجارية بين هذه الدول. وبهذه الإجراءات وغيرها يمكن أن تعزز قدراتها الاقتصادية، وعندها سيكون صوتها مسموعاً على المستوى الدولي.

٥- العرب والنظام العالمي الجديد:

إن النظام الإقليمي العربي إذا كان موجوداً فانه ليس جزءاً من النظام العالمي الجديد وحسب وإنما غدا تابعاً له، وسيستمر هكذا حتى يدرك العرب أين مصلحتهم تكمن في مقدرتهم على توفير عناصر القوة والقدرة التي تؤهلهم لأن يكونوا مؤثرين في مسيرة النظام العالمي الجديد، وبما يمكّنهم من إملاء شروطهم بدلاً من أن تملى عليهم شروط الآخرين. لقد شق مصطلح النظام الجديد طريقة إلى الأدبيات السياسية والاقتصادية العربية إثر حدثين هامين يتعلقان بالعرب، وهما حرب الخليج الثانية، ودور الولايات المتحدة كراع لعملية السلام بين العرب وإسرائيل. وكان لهذين الحدثين كبير الأثر في بروز الأحادية القطبية ممثلة بالولايات المتحدة، وفي ضوء هذين الحدثين تباينت مواقف المفكرين العرب من النظام العالمي الجديد والتي يمكن حصرها بالتالي:

أولهما – التيار المتحيز – لقد أعد بعض الباحثين العرب حرب الخليج الثانية بمثابة المدخل لقيام نظام عالمي جديد يرتكز على أسس الشرعية الدولية، ويدعم دور الأمم المتحدة في إدارة العلاقات الدولية والالتزام بمبادئ احترام السيادة الإقليمية للدول وعدم التدخل في الشؤون الداخلية وتسوية النزاعات بالطرق السلمية، والالتزام بالديمقراطية كنظام سياسي واحترام حقوق الإنسان، وبهذا الصدد يقول أحد الباحثين العرب (يتخلق اليوم نظام عالمي جديد له قواعد ونظم ومؤسسات وأهداف.... ويصرّ العرب على التخلف عن هذا النظام، وهذا النظام الجديد له قوانين ما زال بعضنا يرفضها....). [١٢] وفريق آخر من الباحثين العرب يعترف بوجود النظام العالمي الجديد ولكنهم يتحفظون على أسسه ومرتكزاته، لاسيما أن الولايات المتحدة صممته تبعاً لمصالحها وأهدافها، ويطالبون بضرورة أن يتكيّف العرب مع المتغيرات الدولية الجديدة و ألا يفوتوا الفرص الإيجابية التي يوفرها النظام العالمي الجديد ومنها خلق بيئة ملائمة للديمقراطية في الوطن العربي. والتحول نحو التعددية السياسية

والفكرية بدلاً من هيمنة الحزب الواحد. بالاضافة إلى تخلي الولايات المتحدة عن دعم الأنظمة الاستبدادية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. فضلاً عن تراجع مكانة إسرائيل في الاستراتيجية الأمريكية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة. زد على ذلك الاستفادة من مزايا الثورة الصناعية الثالثة. ومن ظاهرة التكتلات الاقتصادية التي أملاها النظام العالمي الجديد.

ثانيهما: التيار الرافض لمقولة النظام العالمي الجديد، حيث ذهب بعض المفكرين العرب إلى وصف النظام الدولي الجديد، بـ (الفوضى الدولية الجديدة) أو منهم من وصف المرحلة الدولية الراهنة (بالمرحلة الانتقالية) أو (المتغيرات الدولية) لم يعترف بعض الباحثين العرب بعد بوجود نظام عالمي جديد، نظراً لحالة الفوضى وعدم الاستقرار الذي يكتنف العالم في أعقاب الحرب الباردة، وبرأيهم ــ النظام العالمي الجديد لم يولد بعد وإن وجد فهو في طور التكوين، فلم تستقر بعد ملامحه، وسوف يكون هذا النظام محصلة لجملة من التفاعلات الدولية التي شهدها العالم منذ مطلع الثمانينات، فالعالم يمر اليوم بمرحلة انتقالية تتوالد في إطارها تدريجياً أسس ومرتكزات هذا النظام وقد تستمر إلى نهاية هذا القرن، وأن المتغيرات الدولية يمكن أن تشكل مستقبلاً قواعد لقيام نظام عالمي جديد لا بد أن يتأثر به العرب شاءوا أم أبوا.

إلا أن بعض الباحثين العرب قد ذهب إلى القول بأن النظام العالمي الجديد الذي ظهر هو نظام استعماري إمبريالي عدواني يسعى لاستغلال دول الجنوب والسيطرة عليها، وأن هذا النظام يعادي العرب والمسلمين ويتسم بالغطرسة... [١٣] وأعدّ بعض الباحثين حرب الخليج الثانية بمثابة البوابة التي مكنت الولايات المتحدة من فرض سيطرتها على العالم من خلال تحكمها بمنابع النفط، وإجهاض عناصر القوة كافة التي تملكها بعض الأقطار العربية التي لو أحسنت توظيفها لكان بالإمكان تحقيق التوازن

الاستراتيجي مع إسرائيل. وأن المتغيرات السياسية الدولية فرضت مزيداً من القيود على العرب، فالولايات المتحدة التي تتحكم بالنظام العالمي الحالي لا تستخدم القوة إلا ضد العرب، وترمي إلى السيطرة على النفط العربي، بالإضافة إلى تصفية الفكر القومي العربي وتشويه الثقافة العربية والحيلولة دون تحقيق الاندماج القومي، ومؤشرات هذا النظام لا توحي بالاطمئنان، وقد ترتبت عليها العديد من السلبيات من بينها هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين واستئناف دول أوروبة الشرقية لعلاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل وفقدان الدعم الاستراتيجي للعرب بعد تفكك الاتحاد السوفيتي إلى دول مستقلة. بالاضافة إلى التحديات الجديدة التي سيطرحها مشروع أوروبة الموحدة والتي تتعلق بالتجارة والاستثمارات والنفط والمساعدات والهجرة. وبالفعل خرجت الولايات المتحدة إثر حرب الخليج الثانية بنتائج تحسد عليها إذ أظهرت حرب الخليج الثانية الولايات المتحدة، بوصفها القوة العظمى الوحيدة القادرة على صياغة النظام الدولي الجديد وحمايته. كذلك تخلصت الولايات المتحدة من عقدة هزيمتها في فيتنام واستعادت بريقها في حرب الخليج الثانية بالاضافة إلى تهميش دور الدول الأخرى في بنية النظام العالمي الجديد لصالح تعزيز مكانة الولايات المتحدة في صياغة النظام العالمي وتحديد مراميه. [١٤] لقد رفض أنصار الاتجاه الثاني الذي يضم مفكرين من أحزاب وطنية وقومية وإسلامية علمانية مقولة الانتصار النهائي للرأسمالية والليبرالية، كونها تغلق الباب أمام احتمالات ظهور أية أيديولوجيات أخرى، قد تمثل في المستقبل تحدياً لمنظومة الرأسمالية العالمية، بمعنى أن أتباع هذا الاتجاه يستبعدون أطروحة «نهاية الأيدلوجيات» كونها تتعارض ومبادئ التعددية السياسية المرتكزة إلى النظرية الديمقراطية. [١٥]

كذلك لا يعلقون آمالاً كبيرة على مقولة اقتصاد السوق الذي تروج له الدوائر البرجوازية بوصفه المفتاح السحري لحل المشاكل الاقتصادية كافة التي تعاني منها

دول العالم ومن بينها الدول العربية، فليس بالحرية الاقتصادية وحدها يمكن إنعاش الاقتصاد العالمي وازدهاره، إذ لا بد من أن تقوم الدولة ببعض الوظائف الاقتصادية مثل:

- تحديد الأولويات الاستراتيجية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.
- ممارسة الرقابة على القطاعين الخاص والتعاوني.
- إقامة مشاريع البنية التحتية، من طرق وجسور ونقل واتصالات.
- إقامة الصناعات الثقيلة التي لا يجرؤ القطاع الخاص الإقدام عليها.
- تحقيق العدالة في تحقيق الدخل والثروة. (١٦)

وحتى يسهم العرب في صياغة العالم الجديد، وبما يخدم مصالحهم السياسية والاقتصادية طرح أتباع التيار القومي بعض التصورات التي يمكن إجمالها بالتالي:

١-إعادة ترتيب البيت العربي من خلال تصفية الخلافات وتنقية الأجواء العربية بالإضافة إلى إعادة صياغة العلاقات العربية ـ العربية على أسس قوامها المصارحة والمكاشفة والعلنية من أجل تقويم العمل العربي المشترك خلال العقود الماضية، ورصد المعوقات التي حالت دون قيام تعاون عربي حقيقي.

٢-تبنى استراتيجية عربية متماسكة لمواجهة المتغيرات الدولية الجديدة وتفعيل دور الجامعة العربية حتى تنهض بمسؤولياتها في دعم العمل العربي المشترك. من أجل توطين معطيات الثورة العلمية التكنولوجية، وتعزيز دور السوق العربية المشتركة، والبحث عن آلية جديدة للتعامل مع التكتلات الاقتصادية الدولية، بالإضافة إلى الانفتاح على الثقافات الأخرى في إطار الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

٣-تحقيق التعايش بين مختلف الحركات والأحزاب والتيارات السياسية العربية.

٤-إحياء النظام الإقليمي العربي والسعي لتحقيق الوحدة العربية.

٥-السير في طريق التنمية المتوازنة والشاملة والمستقلة من خلال التنسيق بين الجهود القطرية والآفاق القومية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

٦-تفعيل التعاون العربي ــ الأفريقي والتعاون العربي الآسيوي، وتدعيم حركة عدم الانحياز بالإضافة إلى تخفيف الاعتماد على الدولة الغربية وبخاصة الولايات المتحدة. [١٧]

وهذا يعني بان النظام العالمي الجديد بصيغته الحالية، مرفوض شكلاً ومضموناً من التيارات القومية، لأنه يعادي فكرة القومية العربية والوحدة العربية والتنمية المستقلة، ويكرس علاقات السيطرة والهيمنة على العرب. وعلى الرغم من ذلك لا يعارض أنصار هذا التيار مسألة التعامل مع المتغيرات الدولية والتكيف معها، بشرط عدم التفريط بالمصالح الوطنية والقومية، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال تبني مشروع قومي عربي نهضوي منفتح يسهم في تكريس الإيجابيات ونبذ السلبيات التي أفرزتها وستفرزها المتغيرات الدولية الجديدة. ويمكن من توسيع هامش الحركة أمام العرب على المستوى الدولي عبر تعزيز العلاقات مع بعض القوى الدولية الصاعدة كاليابان والصين ودول النمور الآسيوية.

وفي الواقع إن مواقف الدول العربية ومفكريها، تكاد تكون متضاربة ومتناقضة، ولا يوجد تصور مشترك أو موقف موحد من المتغيرات الدولية الجارية، وقد يعود ذلك إلى تشعب العلاقات الدولية وتشابكها إلى درجة التعقيد، فضلاً عن عمق التحولات التي تكتنف عالمنا المعاصر وسرعة حدوثها.

لقد نبه الرئيس الراحل حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية في اكثر من مناسبة للمخاطر التي ينطوي عليها القادم من متغيرات دولية عميقة، تختلف كل الاختلاف عما سبقها، وأهاب بالعرب أن يستيقظوا في وقت مبكر ويواجهوا مجتمعين القادم الجديد للاتفاق على إيجابياته للاستفادة منها وعلى سلبياته للتخلص منها.

وقد حذر الرئيس الراحل حافظ الأسد من مغبة تجاهل المتغيرات الدولية وعدم الاكتراث بها بقوله: (إن في العالم شيئاً جديداً يجب ألا نجهله أو نتجاهله، لقد كان العالم مستقراً طوال عقود من الزمن وفق توازنات معينة، وقد حدثت تغيرات هامة ضمن هذه التوازنات، الأمر الذي غير في ركائز الاستقرار القائم مما سبب خللاً فحركة مضطربة ليست واضحة الطريق... ومن المتوقع لهذا العالم أن يصل في مرحلة ما إلى الاستقرار النسبي، لأنه لا يوجد استقرار مطلق، فالعالم يتغير بين عصر وآخر، وقد يتغير ضمن العصر الواحد...) [١٨].

ثم تساءل الرئيس الراحل حافظ الأسد أين العرب كأمة من المتغيرات الدولية والاحتمالات المستقبلية المفتوحة؟ (فعلى العرب قبل غيرهم أن يتمعنوا جيداً فيما تفعله الصهيونية الآن على الساحة الدولية، وفي ما يمكن أن تفعله غداً... ويجب ألا يغيب عن أبصار العرب وبصائرهم أطماع إسرائيل في الوطن العربي.... وقد أعرب الرئيس الأسد عن خيبة أمله بان العرب كمجموع لم يفعلوا شيئاً لمواجهة المستقبل ولم يقوموا بجديد للتعامل مع العالم الجديد بل هم في حالة ارتباك وفوضى فكرية وسياسية). [١٩]

وبهذه الكلمات المصيرية يكون الرئيس الراحل حافظ الأسد قد دق ناقوس الخطر ووضع العرب أمام مسؤولياتهم التاريخية، فالمخاطر التي تنطوي عليها المتغيرات الدولية كبيرة وكثيرة ومنعكساتها السلبية على العرب اكثر من إيجابياتها، حيث أخذت التحالفات القائمة والتي في طريقها إلى الظهور تبحث عن مجالات حيوية لها، فقد يكون المجال الحيوي المطلوب على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي أو غير ذلك، وترمي الدول الكبرى من وراء توسيع مجالها الحيوي في الحدود الدنيا اغتصاب إرادة الشعوب جزئياً أو كلياً، من خلال فرض السيطرة الاقتصادية والهيمنة السياسية على الدول الصغيرة، لا سيما دول الجنوب، بغية مصادرة قرارها السياسي المستقل لتقييد قراراتها العسكرية والاقتصادية، وقد أظهرت التجربة التاريخية بأن

الأحلاف الغربية تحقق مجالاتها الحيوية وتوسعها على حساب الدول ضعيفة التطـور. وطموح الدول الكبرى لتوسيع المجال الحيوي كان وما زال يعني استعماراً بأشـكال مختلفة.

لقد آن الأوان أن تتنبه الأقطار العربية لمرامـي التكتـلات الاقتصاديـة والأحـلاف العسكرية التي تتنافس على اقتسام مناطق النفوذ، وأقطار الوطن العربي من بين أهـم الدول التي تتصارع عليها الدول الرأسمالية الكبرى، وكونها تتربع على موارد طبيعية هائلة، لا يزال جزءاً منها تحت باطن الأرض وعلى سطحها تنتظر الاستثمار، وكذلك الطاقة بوصفها العصب الأساسـي فـي الاسـتراتيجية العالميـة ونظـراً للأهميـة الاستراتيجية للوطن العربي يفترض أن يكون له دور في صياغة مضـامين النظـام العالمي الجديد وأهدافه، يتناسب وحجمه الحضاري، وحتى يكون له هذا الدور يفترض تفعيل المنظمات الإقليمية العربية السياسية منها والاقتصاديـة والثقافيـة. فالولايـات المتحدة التي تسيطر على النظام العالمي الجديد وتسـخره فـي خدمـة مصالحـها، تخاطب العرب منفردين من خلال مصالحهم القطرية متجاهلة انتمائهم القومي، وعليـه فان النظام العالمي الجديد الحالي ليس مع وحدة العرب وتحررهم، بل هو منحاز إلـى جانب إسرائيل.

وحتى يخرج العرب من حالة الارتباك والفوضى الفكرية والنفسية، وحتى يحـافظوا على مصالحهم السياسية والاقتصادية والثقافية في ظل المتغيرات الدولية العاصفـة لا بد من السعي قدماً على طريق تحقيق المشروع القومي العربي النـهضوي، والـذي يفترض ألا يدير ظهره لما يجري في العالم من متغيرات ويقف موقف المتفرج علـى قارعة الطريق، أو أن يتقوقع على نفسه خلف سياج العزلـة الاقتصاديـة والثقافيـة. فالعالم بفضل الثورة المعلوماتية اصبح أشبه بقرية واحدة، ولا يمكن بحال من الأحوال مواجهة ما يجري فيه إلا من خلال التفاعل معه بموضوعية، حتى لا يفقـد العـرب صلتهم بالحاضر والمستقبل وحتى لا يتخلفوا عن مواكبة ركـب الحضـارة. دون أن

يتخلوا عن ثوابتهم الوطنية والقومية، فلا بد من التعامل بمرونة وواقعية مع متطلبات العصر واستحقاقاته وبما يخدم مصالحنا الوطنية والقومية.

ومما يجدر ذكره بأن معظم الأدبيات الاقتصادية والسياسية العربية قد اهتمت بهيكل النظام العالمي وبالتفاعلات التي تعتمل داخله، والتحديات التي تواجهه، دون أن تتعمق في كيفية التعامل معه وتلافي سلبياته، وما هي الاستراتيجيات الواجب إتباعها لتحسين موقع العرب ومكانتهم في النظام العالمي الجديد، واكتفت بالإشارة إلى أن هناك تغيرات وتحولات كبرى تجري على الصعيد الدولي، ترتبت عليها بعض التحديات العالمية الجديدة. وقد فضل بعض الباحثين العرب استخدام بعض المصطلحات من قبيل: «بنية دولية متغيرة، وعالم متغير، وتحولات دولية جديدة، على استخدام مصطلح النظام العالمي الجديد الذي لم يستقر على حال والذي ينطوي على مجموعة من التناقضات والإشكاليات، سيما التناقض بين المبادئ المعلنة والممارسات الفعلية. والتي قد تجد انعكاساتها على السيادة الوطنية والأمن الجماعي والسلام العالمي». (٢٠)

ومعظم أطروحات الباحثين العرب تتسم بالعمومية، ولم تتضمن اقتراحات عملية لتفعيل دور العرب في النظام الدولي الجديد بما يتناسب ووزنهم وبما يخدم مصالحهم الاقتصادية والسياسية، الأمر الذي يملي على العرب أن يسعوا مجتمعين إلى توفير المناخ الملائم والشروط الضرورية التي تمكنهم من توظيف المتغيرات الدولية في خدمة مصالحهم، من خلال حشد إمكاناتهم البشرية ومواردهم الاقتصادية التي لو أحسنوا استثمارها لقدر لهم أن يشكلوا قوة يحسب لها حساب على المستوى الدولي.

وبغض النظر عما إذا كانت المتغيرات الراهنة تشكل نظاماً دولياً جديداً أم لا، يفترض ألا تقف الأقطار العربية منها موقف المتفرج، وأن تتعامل معها من منطلق تلافي سلبياتها وتعظيم إيجابياتها إن وجدت، وأن تبحث عن دور مؤثر لها في صياغة العلاقات الدولية الجديدة، وهذا لن يتأتى إلا من خلال تبني المشروع القومي الوحدوي

والذي بدونه لن تقوم للعرب قائمة في المستقبل إن لم يواجهوا مجتمعين الأوضاع الدولية الجديدة.

خامساً - التحديات التي تواجه النظام العالمي الجديد

على الرغم من تصفية المشاكل الإقليمية وتهدئة بعضها الآخر خلال عقد الثمانينات مثل: مشكلة أفغانستان، نامبية، نيكاراغوا، شبه الجزيرة الكورية، الحرب الإيرانية العراقية، وعلى الرغم من انتهاء الحرب الباردة بمعناها التقليدي، فهذا لا يعني أن النظام العالمي الجديد لا يعاني من تحدّيات على غاية من الخطورة والتعقيد ومن بينها:

١-الصراعات القائمة في العديد من بلدان أسية وأفريقية وأمريكة اللاتينية وبلدان أوروبة الشرقية والتي تسببها عوامل عرقية وأثنية وقومية، كالصراع القائم حالياً في أفغانستان، وفي رابطة الدول المستقلة، وفي الصومال والسودان....الخ.
٢-تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في دول الجنوب واتساع الفجوة بينها وبين دول الشمال.
٣-حالة الفوضى التي يعيشها النظام العالمي الجديد وهو أبعد ما يكون عن حالة الاستقرار، ولا تزال إمكانات اللجوء إلى استخدام القوة أو التهديد باستخدامها من أجل فض المنازعات الدولية قائمة، وأن شعار نبذ القوة في تسوية النزاعات الإقليمية يفتقر إلى المصداقية.
٤-عدم اتفاق الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن على صيغة محددة لضبط التسلح ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل في دول الشرق الوسط بخاصة ودول الجنوب بعامة.

فالمبادرات الأمريكية لتقييد صادرات السلاح تصطدم، بمصالح الاحتكارات العالمية لتجارة السلاح من جهة وعدم مصداقية الولايات المتحدة من جهة أخرى،

فهي تتبنى سياسة انتقائية بخصوص ضبط التسلح، حيث تمنح السلاح وبسخاء لإسرائيل بينما تعارض التسلح في سورية وإيران، ولم تتوقف أو تنخفض مبيعاتها للأسلحة لبعض دول الجنوب التي ترتبط بعلاقات سياسية مميزة مع الولايات المتحدة. في حين لو تم فعلاً تقييد نفقات الأسلحة بنسبة ١٠% لامكن توفير ٩٥ مليار دولار سنوياً لتطوير دول الجنوب.

٥- غياب الآليات المؤسسية في إطار الأمم المتحدة أو المنظمات الدولية الإقليمية للتعاطي مع نزاعات إقليمية ذات طبيعة داخلية، بالإضافة إلى غياب الآليات السياسية التي تحول دون تفجر النزاعات الإقليمية بين وقت وآخر.

٦- مشكلة الهجرة من دول الجنوب إلى دول الشمال والتي تنطوي على تناقض مزدوج، فإقفال باب الهجرة من جانب دول الشمال قد يتسبب في انفجار الوضع الاجتماعي في دول الجنوب، والسماح بالهجرة إلى دول الشمال قد يؤدي إلى خلق توترات تهدد السلم الاجتماعي، وإلى اتساع ظاهرة التطرف والتمييز العنصري كما هو حاصل حالياً في ألمانيا وفرنسا وإنكلترا.

٧- التحدي المنتظر بين الولايات المتحدة من جهة وبين الأقطاب التي في طريقها إلى الظهور، كاليابان والصين ودول النمور الآسيوية، والتي تتفجر بينها حروباً تجارية منها ما هو معلن ومنها ما هو خفي.

سادساً ـ خلاصة البحث ونتائجه

من سياق هذا البحث الذي لا ندعي أننا أحطنا بجميع جوانبه وأوفينا بمتطلباته كافة، توصلنا إلى النتائج التالية:

١- أضحى مفهوم النظام العالمي الجديد من أكثر المفاهيم شيوعاً وانتشاراً في عصرنا الراهن، وبشيوع هذا المفهوم تعددت المواقف وتباينت الآراء حول مقولة النظام العالمي الجديد، منهم من سلم وأقر بوجود هذا النظام، ومنهم من

يرى بأن النظام العالمي الجديد في طور التكوين والتشكل ولم تكتمل بعد أسسه ومرتكزاته، ومنهم من يفضل استخدام المتغيرات الدولية بدلاً من النظام العالمي الجديد، وربما ذلك أقرب إلى الدقة، نظراً لحالة الفوضى وعدم الاستقرار فهو ليس جديداً لا شكلاً ولا مضموناً، وما هو إلا تقنين للأوضاع الدولية الموروثة عن الحرب العالمية الثانية مطروحاً منها شيئين هامين انهيار الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى وتهميش دور حركات التحرر الوطني والقومي. ويمكن القول أن العالم يمر اليوم بمرحلة انتقالية، قد تستمر في إطارها أسس النظام القديم، بالإضافة إلى ظهور بدايات وقواعد جديدة ناظمة للحياة الدولية، وقد تستمر هذه المرحلة حتى نهاية هذا القرن.

٢- اختلال التوازن الدولي وبروز ظاهرة القطب الواحد ممثلاً بالولايات المتحدة التي تسعى إلى إعادة صياغة العالم وفق المقاييس الأمريكية.

٣- قد يتحول النظام العالمي الجديد القائم على الأحادية القطبية في المدى المنظور إلى التعددية القطبية، ويتوقف ذلك على عمق التحولات السياسية والاقتصادية التي تطرأ على القوى المرشحة، لأن تكون أقطاباً مؤثرة في هذا النظام، كدول الاتحاد الأوروبي واليابان والصين ودول النمور الآسيوية وكذلك تتوقف على طبيعة التحالفات التي يمكن أن تقوم مستقبلاً بين الدول الكبرى. كاليابان وألمانيا والصين وروسيا.

٤- إن النظام العالمي الجديد أبعد ما يكون عن حالة الاستقرار، وأن إمكانية اللجوء إلى استخدام القوة أو التهديد بها لا تزال قائمة في حل النزاعات الدولية.

٥- إن نظام الثنائية القطبية كان يوفر للدول النامية قدراً أكبر من المرونة على المناورة والاستفادة من لعبة التناقضات بين القوتين الأعظم، بينما فقدت اليوم الدعم الإستراتيجي الذي كانت تتلقاه من الاتحاد السوفيتي سابقاً، وأصبح هامش الحركة أمام هذه الدول محدوداً على الأقل في الوقت الحاضر، وقد تتغير

الصورة مستقبلاً فيما إذا سعت إلى تنسيق مواقفها.

٦- تتوافر في ظل النظام العالمي الجديد إمكانات لإبرام مزيد من الاتفاقات للحد من انتشار الأسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية، علماً بأن هناك ١٠ ـ ١٥[٩] دولة تمتلك قدرات نووية وأسلحة هجومية، ولا توجد آليات ملزمة للتنفيذ.

٧- في الوقت الذي يجيز فيه ميثاق الأمم المتحدة استخدام القوة العسكرية في الحفاظ على السلم والأمن الدوليين، وإلزام الدول في تطبيق قرارات الأمم المتحدة، فإن هذا الحق يطبق بموجب ازدواجية المعايير، حيث أحجمت الأمم المتحدة عن إلزام إسرائيل بتطبيق القرارات ذات الصلة بالصراع العربي الصهيوني.

٨- إن الاعتماد المتبادل وإدراك الحاجة إلى التعاون المشترك قد يخفف من حدة التوتر في العالم ويساعد على استقرار النظام العالمي الجديد، ولكنه لا يمكن أن ينهي صراع المصالح الاقتصادية والسياسية سواء بين دول منظومة الرأسمالية العالمية أو بينها وبين دول الجنوب.

٩- إن مزيداً من الانفتاح على القوى الدولية الصاعدة كالصين واليابان ودول النمور الآسيوية قد يسهم في توسيع هامش حرية الحركة أمام الأقطار العربية، ويكسبها مرونة أكبر في احتلال موقع مؤثر في النظام العالمي الجديد يتناسب ووزنها وحجمها الإقليمي.

١٠- إن النظرة الموضوعية لطبيعة المتغيرات الدولية الراهنة تفترض بالضرورة الابتعاد عن منطق العواطف والتمنيات في تقويم الأحداث الدولية، والتفاعلات التي تجري في عالمنا المعاصر وأن نبحث عن مصالحنا الاقتصادية والسياسية في إطار هذا النظام، ونحصنها من تداعياته السلبية من خلال التمسك بثوابتنا الوطنية والقومية والتعامل بمرونة وواقعية مع متغيرات العصر واستحقاقاته.

وهكذا حتى يتسم النظام بالعالمية يفترض أن يجسد إرادة ومصالح الدول كافة وهذا للأسف غير متوافر في النظام العالمي الجديد، ففي إطاره تلتقي إرادة الدول تارة

وتختلف تارة أخرى، والجديد في هذا النظام يتمثل بسيطرة القطب الواحد ممثلاً بالولايات المتحدة الأمريكية التي تتحكم اليوم بمصير النظام وتسخره في خدمة مصالحها، ولهذا فإن النظام العالمي القائم حالياً يفتقر إلى العالمية التي تفترض اتفاق جميع الدول صغيرة كانت أم كبيرة، ضعيفة كانت أم قوية، فقيرة كانت أم غنية على صياغة أهدافه ومراميه، لأن منطق التاريخ يرفض احتواء العالم من أية قوة كبرى مهما كانت قوتها الاقتصادية والسياسية والنووية.

وحتى يكتسب النظام الدولي بُعده العالمي يفترض أن يستجيب لمصالح جميع الدول الأطراف والقوى الأخرى، وألا يوظف في خدمة دولة أو مجموعة من الدول أو قوة دون غيرها، كما هو حاصل في النظام الدولي الحالي الذي تهيمن عليه الولايات المتحدة وتسخره في خدمة مصالحها أولاً وأخيراً.

هوامش البحث

١- إبراهيم عرفان **الإصلاح وحدود التغيير في الاتحاد السوفيتي**. السياسة الدولية عدد ٨٩ ــ ١٩٨١.
٢- بطرس ليكي ــ **الوضع الراهن ومستقبل التحول الاقتصادي في الدول العربية** ــ الفكر الاستراتيجي العربي عدد ٤٣ ــ ١٩٩٢.
٣- محمد سيد أحمد ــ **التحول إلى القطب الواحد**. الأهرام ١٩٩٢/١/١٦.
٤- محمد السيد سعيد **احتمالات التطور المستقبلي للنظام العالمي الجديد** ورقة مقدمة إلى ندوة مركز الدراسات بالقاهرة ١٩٦٢ صفحة ١٠.
٥- **المصدر السابق نفسه**.
٦- شريف الشوباشي.. فرنسة: **أمريكة لا تمتلك القدرة على القيادة المنفردة للعالم** الأهرام ١٩٩٢/٣/١٦ بالإضافة إلى هيرالد تريبون ٨ آذار ١٩٩٢.
٧- احمد عبد الرزاق شكارة ــ **الفكر الاستراتيجي الأمريكي والشرق الأوسط في النظام العالمي الجديد** ــ المستقبل العربي عدد ١٧٠ ــ ١٩٩٣.
٨- زكي أحمد ــ **النظام العالمي الجديد في منظور الإسلاميين العرب ــ المستقبل العربي** ــ عدد ١٥٧ آذار ١٩٩٢ صفحة ١٣٦ ــ ١٤٢.
٩- سعد عبد الحميد ــ **العرب حسابات الربح والخسارة في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد** ورقة مقدمة إلى ندوة العرب ونظام عالمي جديد.
١٠- إسماعيل صبري عبد الله ــ **نحو نظام اقتصادي عالمي جديد** ــ القاهرة ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧. ص٣٠.
١١- حسنين توفيق إبراهيم ــ **عالم الفكر** العددان الثالث والرابع ــ كانون ثاني ١٩٩٥. صفحة ٧٣.
١٢- صلاح الدين حافظ ــ **كيف نتفادى الحرب القادمة بين الأغنياء والفقراء** ــ

الأهرام ٤/٥/١٩٩٢.

١٣- محمد الرميمي ــ **سقوط الأوهام** ــ العربي عدد ٣٩٥ ــ عام ١٩٩١ صفحة ٨ـ١٣.

١٤- حوار مع نبيل العربي عدد ٣٥٩١/ ١٩٩٣، أحمد الدجاني ــ **وجهة نظر عربية في النظام العالمي الجديد شؤون عربية** عدد ٧٤/١٩٩٣ صفحة ٣٨.

١٥- أحمد صدقي الدجاني ــ **وجهة نظر عربية في النظام العالمي الجديد**، مرجع سبق ذكره.

١٦- حسن بكر ــ **مطارحة نقدية لنظرية فكوياما، فرانسيس فوكوياما** ــ نهاية التاريخ وخاتم البشرية ــ ترجمة حسين أحمد ــ القاهرة ١٩٩٣.

١٧- حسنين توفيق إبراهيم ــ **مجلة عالم الفكر** ــ العدد الثالث والرابع ــ ١٩٩٨ صفحة ٧٨.

١٨- سعد عبد الحميد ــ **العرب حسابات الربح والخسارة في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد** ــ ورقة قدمت إلى ندوة العرب ــ مرجع سابق.

١٩- **خطاب السيد الرئيس حافظ الأسد أمام مجلس الشعب** ــ مصدر سبق ذكره.

٢٠- نفس المصدر السابق.